ثورة جسد

ألفة السلامي



ثــورة جـــسد

تأليف

أُلْفة السَّلاَّمي

بطاقة فهرسة

السلامي، ألفة

ثورة جسد / تأليف ألفة السلامي -ط١.- الجيزة : دار هلا للنشر والتوزيع، ٢٠١٢

ص: سم

تدمك ٩ ٤٦٢ ٣٥٦ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية.

أ. العنوان

٨١٣

اسم الكتاب: ثورة جسد

تأليف : ألفة السلامي

الناشر: دار هلا للنشر والتوزيع

6 شارع الدكتور حجازي الصحفيين ــ المهندسين ــ الجيزة

تليفون: 33041421 فاكس:33449139

الموقع الإلكتروني: www.halapublishing.net

البريد الإلكتروني: hala@halapublishing.net

التسويق www.halapublishing.com

الإلكتروني: hazimhala@yahoo.com

مدير التسويق: 2013 / 16590

رقم الإيداع: 978 977 356 462 9

الترقيم الدولي: هلا للنشر والتوزيع

طباعة : هلا للنشر والتوزيع

طبع وفصل الألوان:

الطبعة الأولى

1434هـ - 2013م

تقديم

لابـد أن أكتـب حتى لو كان خطي رديئًا. يحتـال عليَّ القلم ليخفي أحـزاني وراء قطـرات حـبر تلطـخ الورقات. لابـد أن أخلـع أقفال الصـندوق الأسـود لتدخلـه نسـمات الحياة وتخلّصـه من صـدأ الأحـزان ورائحة الزمـن العطنة.. أيها الحرف النـور أبدِعني من وسـط الموت عصـفورة، وطـيّرني مع نسـمات الهواء، صـارع بي اليأس فأصـرَع بك الموت.. اِلجأ إليّ لأتقـوّى على الألم، فألجأ إليك لأطرد المرض.

وأيّ مرضٍ..ذلـك الذي نخشــى حتى من التلفّظ بإسـمه، فنخفيه وراء الأوصـاف الملونـة، نطلق عليه «المرض الوحشـ» أو «اللى مايتسـماش» أو«الخبيث».. إنه العاصـفة التي تداهم الإنسان بلا إنذار مسـبق فتقتلع الأشـرعة، وتقتـل جنود الحراسـة فتتهاوى المناعـة صـرعى ويتوقـف النشـاط وتُؤجّـل الأحـلام والأمنيـات وينتزع الغموض تلك الرّوحَ التوّاقة للوصول لشاطئ السّلامة.

إنهـا الحـرب لا عقل لهـا، تعلـن الجنون وتنشـر الفوضـى، وفي الحروب لابدّ من سقوط الضحايا ودموع المكلومين ونَزْف الجراح الغائرة.

كانـت حربًا من نوع آخر، فتحت نيرانهـا جميعًا في نفس اللحظة،

فهجوم السرطان على الجسد القَلِق المضطرب يتزامن مع اندلاع ثورات الربيع العربي، وكان لي نصيب أكبر من غيري في هذه المولودة التي حلمنا بها ألف عام، فجاءت توأمًا غاضبًا مكتملاً ملتحمًا بالحبل السري فيتوحدان في المصير. دفعا الرحم دفعا ونزلا إلى الميادين، ميادين تونس ومصر. وعشت مخاضات الولادات بدماء ودموع وأمنيات.

وبين مشاعر متناقضة يحلّق بها الأمل بأجنحة مرفرفة تارة ويمزقها الخوف ويبعثر ريشها تارة أخرى، تابعت ولادة متعجّلة لتلك المولودة الخضراء التي قطعت حبلها السري بنفسها، لم تنتظر طبيبا ولا قابلة. جاءت لحظة المخاض في عربة للخضر والفاكهة فأطلقت المولودة صرختها الأولى.

قاومت حينئذ أحاسيس الأمومة ورضختُ بقلب منفطر على سفر ابنتي التي أصرت على أن تشهد تلك الولادة في المدن التونسيّة. لم أذق طعم النوم في تلك الليالي الطويلة خوفا من أن يصيبها مكروه وهي توثّق صراع الفرسان لطرد لصوص الظلام حتى تبزغ شمس الصباح في شارع الحبيب بورقيبة، وميدان البلدية في سيدي بوزيد، والقصرين وتالة وصفاقس.. ولم يكفِ كلّ ما تجرعتُه من قلق، بل تجرعتُ أضعافه جرّاء النقد والتأنيب من

المحيطين بي. اتّهموني بالتفريط في ابنتي وبأنّي لا أملك قلبا، ثم زاد انتقادهم، عندما سمحت لها بالمشاركة في مظاهرات ميدان التحرير التي خرجت لتبشّر بالمولودة القادمة، التي لم تجهضها معارك الجِمال والأحصنة بل قاومت لتضع مولودتها في أحد المساءات المقمرة. وسجلت سمر تلك المخاضات الدامية لعدد من محطّات التلفزيون العالميّة وتعرَّضت إلى مخاطر جمّة،فيما تعرّضتُ إلى المزيد من اللّوم والعتاب. وزاد الضغط والانتقاد عند موافقتي على سفر ابنتي إلى بنغازي لتسجّل عنفوان مخاضات الولادة التي تتفتّح أزهارها ببطء في أرض مليئة بالأشواك وحفر الموتى، وسماء ماعادت رحيمة بعد أن هطلت صواريخ غراد!

لم أكن لأقدر على إثنائها عن السفر.. فالقبض على تلك اللّحظات الثوريّة له سحر البدايات وطعم الاستكشاف، حتى وإن كانت جمراتها الملتهبة، تكاد شراراتها المتطايرة في السماء تخنق المولودة بعد أن أحرقت آباءها وأمهاتها .

عشنا على سيرة الولادة الجديدة في أسرتنا وفي محيطنا، وكانت أحلامنا هي المساحة الوحيدة التي نملكها في زمننا للانعتاق من عوالم مرعبة لا لون لها سوى الأسود والرَّمادي،وطالت أوجاع المدن وانتظارات الخلاص مع تهاطل الأمطار السامة، لنكسر

الأقفـال عن عقولنا ونلامس إنبلاج الصـباحات ونسـترجع صـكّ المستقبل الذي وقعوه على بياض بالنّيابة عن الشّعوب.

وحانـت اللّحظة التي دوّت فيها صـرخات الـولادات تطرّز آهاتها خيـوط الفجر،وتوالـت الدروس علـى الحـكام في الهـواء الطلق. واجهـت لأول مـرة نفسـي في المـرآة بـين الإتّسـاق مـع مبادئـي والاستسـلام لمخـاوف الأمومة . وإنتصـرت للحلـم والمغامرة،بل سرت بعد ذلك على خطى الإبنة بدلا من أن تسير الإبنة على خطى والدتها.

شـاركت في أهازيـج الحريـة وبقيـت في ميـدان التحريـر طيلـة ثمانية عشـرة يوما أرقب العصـافير وهي توقـظ الأحلام النائمة في أعشاشـها وتنثرها مع الهواء وأشـعة الشـمس الذهبية، حتىّ إمتلأت حبات القمح التي صـلينا من أجلها، وحان موسم الحصاد في ليـل ليس كأي ليل ونهار لايشـبه كل النهارات، تفتحت أعمارنا، أزهارنا، صدورنا،وخدودنا..على شـرفات الحلم، وشهقت الرّوح وحلّقـت الملائكـة، لتزف مـوت طاغية بعد أن أشـبعنا موتا دسـما وشـرب مـن دمائنـا، ثم باحـت بالسـرّ :كوني بخـير أيّتهـا الأرض الطيّبـة، ولقلبـك عطرالـورد والقرنفـل والأقحـوان، زغـردي مع سـعف النخيل المتراقص في أرجاء الوطن، واعـزفي ألحان المطر،

اسـقي حقول القمح والأرز،ونامي هانئة تحت ظِلٍّ الزيتون والتين وارتمِي في حضـن القمر، اطردي وجع المنافي وغني سمفونية حبّ الأوطان!

لاحت لحظـة تاريخيّة بهيّة بنزف الروح عند إعلان تنحِّي الظالم المسـتبدّ، عايشـت إرهاصـاتها مـن الإشـتعالٍ والتململِ وحتـىّ الإنتصار.

كنتُ شـاهدة عيان على قتل مئات الشّـهداء في عمـر الزهور الذّين بكيتُهـم وتألّمتُ مع دموع وحسـرة أمّهاتهـم وزوجاتهم وأخواتهم وأصـحابهم، وارتأيت أن أكون عيونهم التي تنقل الأخبار بتوثيق الكامـيرا التـي لا يمكـن أن تُطلـق النـار علـى ضـميرها، فضـمير الكاميرات لا يكذب ولا يتجمل، وأصبحت أهلهم أقيم معهم في بيوتهم ويركضـون ويلهثـون من مـكان لآخر مع تلاحق مشـاهد الجرحى والدّماء التي سـالت على إسـفلت ميادين مصـر وفي مستشفياتها. وفي وسـط ركام المـوت وخـــردة ردود الأفعال مـن تيوس العالم وخنازيرها، إنتزعت أروع قصص التّضامن بين الناس الحقيقيين وسـباقهم نحو العطـاء وإنكار الذات غيرة علـى الوطن وتفانيًا في حبِّه، حتى في تلك اللّحظات الملتبسـة. أدّيـت واجبي كإعلاميّة بما يمليه عليّ ضـميري المهنيّ بعد أن طال الرصاص ضمائر إعلاميّين

كُثر، ملئـوا حياتنا صـخبا وحكايات في العهد البائـد، ومثلما كانت العذابـات كانت لحظات السّـعادة كالنبوءة. خفق قلـب المُوَاطنة والأمِّ وأبطـل الفـرح والحلـم مفعـول الحـزن والقنوط، فلامستُ أحضان الإنسانيّة الرَّحبة !.

كان ميدان التحرير ولادةً جديدة من رحم بكرٍ، وطاقة نور كبرى فتحت الشـبابيك لنسمات الحرية وأشرعة الحبّ وهمسات الأمل، بعد أن تحنّط جيل وراء جيل وأُدخل كالمومياء في واجهات العرض بالمتاحف، فيما كان الفقر والتهميش والفسـاد يستشري حتى نخر السّـوس نخاع عظم القيم، وكدنا نصدق أن الأحلام إنتحرت للأبد في الأوردة المتجلطة دماؤها جراء العجز عن الفعل .

وفي غمرة ذلك الحماس وصـراع النور مع الظلمة انتقلت لتغطية الـولادة الثالثـة في ليبيا حيث لحقـتُ بابنتي، وفاقـت الدماء التي سالت من شباب الثورة الليبية كل ما سال من دماء شباب الثّورات العربية مجتمعة .لقد اسـتيقظ الليبيون بعد أن فشـل القذافي في أن ينتعلهم أكثر مـن أربعين عاما .وعندما كان لابدّ أن ينتعلوه بالمثل حطّم كل شيء وهو في طريقه إلى السقوط . لكن مع اشتداد الصّعاب وقسـوة ظروف العمـل وزيادة المخاطـر، تم إجلائي مـع عدد من المراسلين عشـيّة تدخل طائرات الناتو فوق أجواء بنغازي، بينما

كان الخـراب يخيّم على الأراضـي الليبيّة ورائحة الموت تسـيطر على الأجواء فتطرد الأمل وتؤجّل الحلم!.

كانت الأوطان تغلي وتعلن ثورتها ضد حكام قهروها، وتعلن أنّها لن تعود للظلم والدكتاتوريّة والتجهيل والتفقير والإفسـاد وتدفع ثمنـا غاليـا لحريّتها من دمـاء أبنائهـا الزكية . وبالمثـل كان العقل ينتفض،والجسـد يهتـزّ علـى وقع الثّورات وتعصـف بـه الخلايا الخبيثة .

وجاء الوصـف لمحصّـلة المشـاعر المتضـاربة محموما، فصدمة المرض من جانب وتأثير جرعات الـدواء على الحالة الجسـديّة والنفسـيّة من جانب آخر، إضافة إلى مخاضـات عاشتها الثورات في المراحل التّالية لإنتفاضـات الميادين العربيّة،كل ذلك جعل عدة شهور فقط بوزن كل السّنين السابقة. ووجدتُني أخلع عباءة اللغة العربيّـة التي أعشـقها لأفتّش في حقائب اللّهجة العاميّة المصـريّة أحيانا والتونسـيّة أحيانًا أخرى عن حروف مذهلة لحدّ الدهشـة، وقليـلا ما كتبت بهما، ولكـن إذا كان القلب مليئا بالشّـقاء ومحمّلا بأمتعـة العمـر فليس هنـاك لغة أوقع من لسـان الأُمّـين: تونس ومصر،ودثارهما حتى أعبّر بالضبط عمّا يخالجني .

وخـلال هـذه الأزمـة تعلمـت فـنّ البحث عـن الوجـه الإيجابي

للمصـيبة، وهو فـنٌّ نادرٌ لا تدرِّسـه كليّات الفنـون والآداب وإنما نتعلّمـه في أكاديميّـات الحـزن، ذلك الحـزن الذي من فرط شـدّته يُخرس صـوت البكاء، فمـن المعروف أن الألم الكبـير لا دموع له، لكنّه يمكن أن يصبح جناح التحليق في سماء الإبداع .

واخـترت أن أسـير على هَـدْي الحكمـة القديمة التي تقـول: إذا حلّت بك مصـيبةٌ فلا تجزع جزعًا يُفْقدك الرشد، مادام المقدّر واقع لا محالة، ولأتذكّر باسـتمرار أن كلّ شـيءٍ يبدأ صغيرًا ثم يكبر إلا الحزن فإنه يبدأ كبيرًا ثم يصـغر،ولا يزال يصـغر ويصـغر حتى يُنسى!.

واسـتلهمتُ مـن الثّـوار الإرادة والمثابـرة .. فقد قدمـوا دماءهم لنعيشَ أحلامنـا ولم يرتضـوا بأقل من تلـك الأحلام لنـا . وكنت أستحضـر تلك البطولات في أوقات عصيبة تعصف بكياني ويحتدم الصراع بين العتمة والضياء فأستمدُّ من ملاحمها القوة والعزيمة والتصميم على مواصلة الكفاح ضدّ العدوّ الداخليّ.

وفي إطار المعارف الجديدة والخبرات التي اكتسـبتها من الوجه الثاني للمصيبة، جاء تغيير السُّلوك الغذائي بعد استشارة إخصائيّة تغذية مرضـى السرطان. وعرفت قيمة ذلك المثل الشعبي المصري «اللـى ياكل أوقيـة عياه دلوعية»، فالأكل القليـل والماء الكثير هو

العلاج الرخيص لجميع الأمراض ولا يُسْتَثْنَى منها السرطان . وفي هذا الإطار جرّبت الصوم الطبي، وهو الوسيلة الأسهل والأرخص ولكنها الأصعب في القضاء على السرطان، وصعوبتها تتمثل في إن عدوّها داخليّ وهو النفس الأمّارة بالسوء !.

كما عرفت إلى أي مدى كانت تنقصني ثقافة الغذاء وهي مفتاح من مفاتيح السعادة . وشرعت في تأثيث مكتبة منزليّة تشرح أهمية بعض الأعشاب والخضر والفاكهة في المساعدة على الشفاء من الأمراض، وتحذّر في المقابل من خطورة بعض المنتجات الأخرى على سلامة الصحة . لم ينبهني أحد من قبل إلى أهمية هذه الكتب في جهاز العروسة وضمن أدوات المطبخ وأثاث البيت؛ ولعل بداية الطريق إلى الشفاء تعديل السلوك الغذائي الخاطئ الذي يضرّ بالمريض . وشكّلت العديد من هذه الثقافة الجديدة بالنسبة لي مفاجأة .

والأهم في خضمّ تلك المعارك الداخلية مع النفس إني عَبرتُ هذه الأحداث بحلوها ومُرّها ونسجت العديد من القصص الإنسانيَّة خلال هذه المحنة، أرويها رغم حرجي،وربما حرج أسرتي وأصدقائي من خصوصيّتها الشديدة؛ لكن دافعي أنها قد تنير سبيلَ أشخاصٍ يعايشون تجارب مشابهة مع السرطان ولا يستطيعون مشاركتنا في معاناتهم أو لا يجدون سبيلا لذلك .

سـمحتُ للقـرّاء بدخـول بيتـي وغرفة نومـي والإطّـلاع على ما يدور في صـفحات عقلي وما يعتري جسـدي مـن تغيُّرات، محاولةً أن أتغلـب علـى خجلي من الحديث عن المرض،فلـم أتوارَ وأختفِ لأخفيـه عن عيون النّاس بل كشـفت محنتـي وأوجاعي عبرالكلمة الـدواء في المقـالات الصـحفية أوّلًا،وأيقنـت أن إلتهابات الجروح ونيران المواجع تنطفئ مع عسل الكلمات.

كانت التغيّرات الفسـيولوجيّة متلاحقة وصادمة بعد استئصال الثّـدي وتأثـير جرعـات الكيمـاوي، فالشّـعر يحترق ثم يتسـاقط ويُقتلع تماما من جذوره، والبشرة تصدأ، والجلد يصفرّ ويعتريه الشـحوب ثم يجرفه المـوات . وتعرّيني انفعالات الحالة الجديدة فتخلـع عنـي الحـبّ وتُدْخلني إلى كهـف الكراهية والسـخط على النّفس، فأجلدها وتطرحني أرضـــا وكانت كفيلةً بأن تدفعني إلى التقوقع وتجنب الاتّصـال بالنّاس، بالرغم من أنّي لم أنجُ من الشـرّ المجاني عبر تعليقات قاسـية انتهكتني ونظـرات جارحة أربكتني؛ لكن سـرعان ما كنتُ ألتمسُ للبعض حسـن النيّة وعدم القصـديّة. فجان بول سـارتر الفيلسـوف الفرنسـي يرى الآخرين هم الجحيم وأصـدّقه تماما لكـن مع تعديل إنسـاني، وهو أن بعضـهم فقط هم الجحيم نتداركهم ونتجاوزهم بفضـل الجسر الذي يشيّده البعض

الآخـر!. لقـد قـرّرت أن أتصـالح مـع النفس حتى لا تتحـوّل تلك النّدبات في الجسـد إلى جراح نفسيّة،سـاعدني أشخاص مخلصون فغمـروني بعاطفة جيّاشـة واغترفـوا الألم والحـزن ليحولوه إلى صـبر وابتسامة ..وكلّما اشـتدّت آلامي لجأت إلى الكتابة أمدُّ اليد إليّ أوّلًا، ثم إليكم حتى تشاركوني هذا التحدّي،علّها تُخفّفُ عن قلبي هـذا الغم وتحتوي المصـيبة، فكمـا يقولُ كاتب ياسـين «الكتـابـةُ وحدهـا تُلغي الموت بإحتـوائه». كان ملك الحرف يصـرخ في كل حين: «إكتبي فمن يكتب لا يموت!» .

ربمـا يكون آخرون قـد مَرُّوا بنفس المحنة أو ربما أقسـى حدّة، فبكـوا حظَّهُـم العـثر، وانتحبوا لمحنتهـم وخرجوا منهـا ممزّقين، قلقـين، يحملون المرض في جيناتهم والثقل النفسـيّ على أكتافهم، يكملّـون بهـا مـا بقيَ من أيّـام في حياتهم . لكن تضـامن الأصـدقاء وقبلهـم أفراد الأسـرة والأحبّة أوقف نهر البـكاء ليبدأ تنفيذ قرار المقاومـة مـن أجـل الحياة، وهـو قرار تطلّـب الكثـير والكثير من الصبر والإرادة.

بدايـة المقاومة كانـت بالبحث عن معانٍ جديـدة للحياة تجعلني أكثر قوة ونضـجا، والأهـم معاني الاسـتمتاع بالحياة بشـكل ما. فالرّاحة الإجباريَّة بمناسـبة المرض والعلاج،الذي يستغرق وقتا

يقتات على لحمي ودمي، جعلتني أكتشِفُ أن هناك أشياء كثيرة لم أختبرها من قبل بسبب الاستغراق في العمل وعدم الالتفات إلى غيره . فلأول مرة أستمتع ببيتي وكتبي وأولادي،وبالرياضة والعبادات والأكل على نحو جديد . وشعرت بالسعادة ليس لأني تغلّبت على المرض، وإنما لأنّي مازلت قادرة على تحمُّل المحنة ومقاومة الآلام وممارسة تمارين التحلّي بالصبر. وقديمًا قال أحد الفلاسفة «ليس شقاؤك في أن تكون أعمى بل شقاؤك في أن تعجز عن إحتمال العمى».

ولأول مرة في حياتي كنت أدرك ماذا يعني أن أتدرَّب وأتمرَّن على مقاومة الألم، ماذا يعني أن أحتمِل السجن داخل غرفة النوم، لمُدَد طويلة،وكيف كنت أحاول أن أُجَمِلَ سجني حتى لا تنهار معنوياتي ولا تصدأ مشاعري كما صدأت جلدتي . كنت أعمد إلى أشياء صغيرة لأهرب من الجنون كتغيير أغطيةِ السرير ذات الألوان الوردية الزاهية يوميا وأحيانا صباحا ومساء،أرسمُ لوحات من زهور أحيط بها نفسي حتى أتخيَّل السّجن متّسعًا ورحبًا بدلًا من ذلك الإحساس الخانق بأني داخل قفص حديدي ضيّق،وأتعطّرُ بروائح محبّبة حتى أتجاهل نتانة العلاج الكيماوي المقيتة . أحيانًا أتخيّل غرفة النوم وقد امتلأت بالحيوانات المفترسة والحشرات

المقرفة، فأستعجل تغيير المفروشات والأغطية والتطيّب بعطر الورد والليمون، فتتعطّر المشاعر ويخفّ الألم قليلا. هكذا أتسلى بلعبة التغلّب على الأوجاع فأمسك المخدّة ذات الألوان المحبّبة إليّ وأريح عليها اليد اليسرى المنتفخة، تأخذني ألوانها الجميلة ويدغدغني العطر الناعم فأغفل عن الألم لحين.

مدهشة تلك الآلام والأوجاع التي تصنع أزهارها وعطورها!

أعلم أن المقاومة منحتني فرصة استثنائية للنّجاة لحدّ الآن، ربما ضنّت الدنيا بها على آخرين، فكثير من الذين أسقطهم المرض اللعين لم ينهضوا أبدًا،ومنهم شقيقتي -رحمها الله- التي تُوفيت بعد صراع مع المرض وهي لم تُكمل عامها الثّلاثين . أمّا وقد مُنحتُ هذه الفرصة فقد قرّرت أن أسجّل تجربتي،على الرغم من رغبتي بأن أمسح من ذاكرتي كل الغيوم التي عبرت سمائي وعطنت مشاعري ..لكن استعادة الأحداث بحلوها ومُرّها لأخطّ كلماتها بصدق،قد تنير ضوءًا في عتمة يعيشها مرضى أمثالي .

ربما أبكيتكم .. ربما أضحكتكم .. أو لعلّني طحنتُ عظامكم وأنتم تتابعون شراسة المعركة، أو لعلّكم قلتم نفس الجمل المحفوظة التى تردّدونها فى تلك المناسبات.. لكن المرض بالتأكيد قد منحكم كما منحني قوة، لذلك أودعتكم مشاعري حتى نتلّمس معًا خطوات

الأمل، فإما أن نعتاد على المرض ونتحول إلى أصدقاء إلى أن نستقبل الخاتمة كأي نهايات أخرى نتفرج عليها بلا دموع ولا حسرة، وإمَّا أن نمحو من الذكريات أيام الضعف والبكاء ..والأهم أن أستمر أكتب وأكتب ..لأن حياة واحدة لا تكفيني!!

ديسمبر ٢٠١١



مرض.. ميهزرش!

«بينما الأوطان ترعى مولودتها الثورة وتثبّت خطاها نحو الغد الأفضل، كان الصراع على أشدّه بين إرادة الحياة وشراسة المرض اللّعين))

اليـوم الأول مـن مايـو ٢٠١١ سـأبدأ مرحلة جديـدة في حياتي . اختبـار لم أختره، بل فُرِض عليَّ، ولكن المطلـوب خوض معركة ناعمـة زادهـا إرادة خضـراء مورقـة لتعزيـز فرص الانتصـار. المعركة هذه المرّة ليسـت كباقي معارك خضـتها في سـابق حياتي، بل شراسـتها في نعومتها لأنّها تحارب عـدوًا داخليًا «مبيهزرش»، لا يـكلُّ ولا يملُّ، ما يظهر منه أقلُّ ممَّا يُخفيه،وعندما يُقرِّرُ أن يعلن عن نفسـه، يستلّ أسلحته الخبيثة التي إستعدّت للهجوم والتدمير بكل وحشيّة.

أكتب عـن محنة مرض يعيشـها كثيرون مثلي وبأعـداد متزايدة مـع ارتفاع معدلات تلـوّث المياه والطعـام والهواء والمسـرطنات التي اغتنى بفضـلها تُجَّار الموت في أنظمة رأسـمالية فاسدة تحـوّل حكّامها إلى سماسرة يتقاسمون الأرباح الطائلة من الصفقات التي دمّرت صحّتنا، بينما مازال منهم الكثيرون طلقاء ينعمون بالصحَّة وبالحريَّة دون محاكمات ..!

قـررت أن أكتـب قصـتي،وبدأت ذلـك أولاً في الجريدة المسـؤولة عن تحريرها وذلك بعد أن تلقّيتُ الكثَيرَ من الاتّصـالات والرّسائل من قراء أصـبح الكثيرون منهم أصدقاء يسـألون عن سبب توقف كتابة عمودي بالجريدة،ويستفسـرون إن كانـت قد تمت معاقبتي بايقـافي أو بفصـلي عن العمـل! الطريف أنهم ربطـوا احتجابي عن

الكتابة بالظروف التي كانت تعيشها الجريدة، عندما قرر العاملون الإعتصام من أجل إسماع صوتهم للإدارة لتلبية مطالبهم التي كانت مؤجلة وظهرت مجددًا بفضل الشباب ومناخ ثورة ٢٥ يناير الذي حرَّك كلّ ما كان راكدًا متكلِّسًا.. وتطورت فكرة الكتابة إلى هذه الصفحات التي بين أيديكم، لأن في الكتابة انتصارًا للحياة.

ألمي وجراحي في الأيام الماضية لم تمنعني من قراءة الرسائل الإلكترونية التي تستفسر عن مصيري واختفائي الغامض وتلقيت عروضًا مغرية من أصدقائي، بالعمل في «ميادين التحرير» التي إستُنسخت في كافة الصحف والبرامج التلفزيونيّة بعد الثورة، دون سداد مقابل لحقوق الملكية الفكرية للثوّار الذين اخترعوا ميادين الغضب للمطالبة بالحريّة والكرامة !

ضحكت من الأعماق لطرافة بعض الرسائل، وقلت في نفسي: «تبقى مصيبة لو صدَقت إنَ القرّاءَ يمكن أن يدعوا إلى مليونيَّة من أجل أن أعود للكتابة» .

شعرت بالزهو والانتفاخ من فرط المدح المضرّ جدًا بالصحّة النفسيَّة والعصبيّة، فهو من نفس فصيلة تلك المشاعر التي كان يصبغها المقرَّبون من الرّؤساء العرب المخلوعين حسني مبارك وزين العابدين بن علي والقذافي يوميًا بل لحظيًا، من إطراء ومدح سرعان ما يتحوّل إلى نفاق كريه يدمنه الحاكم ويزيد انتفاخه

ومشيه في الأرض مرحا وزهوا، دون أن يعمل حسابًا ليوم واحد في بورتو طُرَه، أو في المنفى أو في جبّانة التاريخ.

الحمد لله أن الأمر لا يحتاجُ إلى مليونيَّة ولا إلى نصف أو حتى ربع مليونية ..بل إلى دعاء الوالدين والأصدقاء والقرّاء، بأن يلهمني الله القوة والعزيمة وأفضل السّبل للصبر على المقاومة واختيار العتاد المناسب للمعركة في الوقت المناسب، فهي معركة ليست عاديّة ولا سهلة ..وإن مرت منها مرحلة مهمَّة خلال الفترة الماضية وهي مرحلة الصّدمة، عبرتها بفضل أهلي وأحبّتي فإنَّ المسيرة القادمة تحتاج لعزيمة وتضامن كبيرين.



حنعمل بيه إيه؟!

هي أظرف أصدقائي،الابتسامة لا تفارق مُحيّاها،،فهي كما الطّفل ينسى العالم من حوله ويتلهّى بأصابع يديه وقدميه. هكذا يصف علماء الفلك مواليد برج الحَمَل،ويرونه بريئا براءة الطفل وهو ما يشفع له المشاكسة والهجوم في الحوارات لدرجة العدائيّة!

إنها تلك الصفة التي تحفظه في مأمن من الخوف فصاحب برج الحمل لا يخشى أحدا أو شيئا ما لم ينَلْه الأذى فعلاً؛ لكن عيبه الكبير أنه سرعان ما ينسى ويسقط في متاهات التجربة ويبدأ من الصِفر ويجري وراء الأحلام إلى حدّ الأوهام. تلك صفات عديدة تتصف بها شخصية مها التي يطلق عليها القريبون منها «مهموهة». ولعل أطرف ما يميزها أنها مبدعة ومبتكرة، في تعليقاتها طرافة أشهر الكوميديّين، وربما تفوقهم، حتى إني تخيّلتها على الدوام ممثلة كوميديّة ضلّت الطريق إلى قطاع الفندقة والسّياحة، فهي تحسن الإلقاء ولها حضور آسر، تُشْعرك كأنها تمثل دورًا كوميديًا على أشهر خشبة مسرح، قادرة على أن تُدْخل البهجة على من هم أشدّ تكدرا، بل يمكن أن تتحدى الكآبة حتى لدى من يصارع الموت في آخر سكراته.. وتلك قدرات خاصة لدى بنت الحاج عراقي رحمة الله عليه.

وقد أنعم الله عليّ بصديقتين من مواليد برج الحَمَل، فإلى جانب مها أعتز بهالة عمر، وهي الكاتبة والناشرة المعروفة، والتي أَثْرت حياتها وحياتنا بمعرفة جديدة إضافيّة ألا وهي علم الفلك والأبراج . أحببنا علم الأبراج على قدر حبّنا لهالة،التي لا يوجد من يعرفها ولا يتعلّق بها من أول تعارف . فهي تجمع بين الجد والهزل . طموحة وقياديّة،تعشق الاستقلاليّة وتتحمّل المسؤولية فتجتهد في عملها من أجل حياة كريمة ولا تنتظر أحدا ليقوم بهذا بالنيابة عنها، فهي تتولّى أنشطتها بطريقة مبتكرة تفوق رجالاً كثيرين.

لعبت هالة دور المساندة بذكاء كبير وإحساس مرهف،وقلب عامر بالعطاء والإيمان وكأنّها الواحة التي أستريح فيها فتبدد خوفي، وتمرّر لي القدر الدّامغ والحظّ المتعثّر بشكل فلسفيّ محبّب .

ورغم أني كنت أرحّبُ بزيارتها وأعشق الحديث معها إلا إنها كانت مقلّة في الزيارة، وإن كانت المكالمات المطوّلة بيننا بمثابة الاستضافة لدى عيادتها النفسيّة . كنت أنهي مكالمتي معها وقد شفيتُ من آلام كثيرة .

أما مها فكانت تصر على أن تكون بجانبي في الفترات الأولى

للصــدمة ورافقتني لـدى الطبيب، وفوجئت بها وقد سـبقتني إلى العيـادة قبـل الموعـد، وأحضـرت كارت توصـية من طبيـب آخر صـديق وإسـتعدادها للموقف يُنْبئ بأنها سـألت عشـرمئة واحد بين أطباء ومرضـى، ولم تنسَ الريسـيرتش على النت وسؤال من يعيشـون مغردين خارج الأوطان مستظلين بدفء العلم والعلماء وأمانة الضمير،وحضًـرت نفسـها لتهيئتي للموقف الجديد ما بعد المرض وكأنهـا تخوض إمتحـان الماجسـتير، وامتـد خوفها عليّ إلـى هاجس شخصـي حيث توهمـت أنها مصـابة بدورها بالمرض اللّعين،فأجرت سلسلة من الفحوص ..

ورغم كل صـفاتها التي عدَّدتُها وفي مقدمتها الابتكار والقدرة على إضفاء جوّ من المرح والحبور،إلا إن مها لم تستطع أن تخلق جوًا يختلـف عما يسـود عادة في مثل هذه الظروف وانعكس إحساسـها بالارتباك علـى ملامحها، فرغم مداراة التأثّر إلاّ إن الحزن العميق جعل صـوتها مرتعشًـا، ونظـرات عينيها اللّتين كانتـا على الدوام تشـعّان بريقا وعاطفة بلون الشـمس،انطفأتا فجأة وبدتا غائرتين متعبتين تتلهفان طلب الراحة فتقاوم إغماضهما.

مهـا لا تعـرف اللّـفّ والدوران ومـن الواضـح أن النتيجـة التي توصـلت إليها بعد البحث والاستقصـاء .. هـي الهزيمة، فحاولت

الاقـتراب مني حتـى تمهّد تلـك الحقيقـة الصـادمة بنعومة، قبل أن يصـدمني بها الطبيب نفسـه، فلا سـبيل لتفادي إجراء العملية الجراحيّـة فـورًا والتـي غالبًا ما سـيتمّ خلالهـا استئصـال الثدي بالكامل.

كنت أشـعر بأنها تتألّم لألمي وتحـاول أن تمنع دموعها التي تريد الاندفاع بغزارة لأن ألمها يفوق حدّ الاحتمال، ولذلك تخلّصـت من لحظات صـمت مربكـة وقررتُ أن أبادر بالتعـالي عن الموقف بنفس أسلوبها المسرحيّ،فقلت وأنا أدّعي عدم تأثّري على الإطلاق :

-أنا عارفة إن العملية حتمية والغالب أن الاستئصـال سيتم، هو أنا هعمل إيه بالثدي يا مهموهة، موش هعمل بيه حاجة !!

-آه،.. فعلاً موش هنعمل بيه حاجة !!

ظلـت مها تكرر نفسـ الكلمات لعـدة لحظات ولم تتمالـك من كتم الضّـحكات أمام مفاجأة وقع عباراتي، فدوّت صـيحات بملء فمها وجنبيهـا تجمـع بـين الرغبـة في الضـحك ومقاومة البـكاء؛ حتى إن الدمـوع تـلألأت في عينيهـا واختلطـت المشـاعر وأصـبح هناك مبرّرللتخفي وراء الضـحكات حتّى تبكي بلا مداراة .



تابعـت الدّكتور علاء الطبيب الجراح وهـو يلج من باب العيادة بخُطًى متسارعة نحو غرفة الكشف مباشرة .

تفحّصته بسرعة وهو يمضي، بحثًا عن انطباع معيّن،لكن لم أجد في محياه أي ملامح تنبئ عن شخصـيّته، سوى جديّة يشترك فيها غالبية أطباء الجراحة .

تعمّـدت أن أُسـلِّمَ باليد عندمـا دخلتُ عليه وهـو جالس في مكتبه فتفاعـل بقدر محدود وسـلَّمَ علـيَّ دون أن يتململ في جلسـته،حيث يبدو أنه لم يتعود على أن يُسلِّم على المريض باليد، فعادة السّلام باليد بدأت تختفي في بعض المجتمعات المصـريّة؛ وخاصة الريفيّة بعـد صـعود التيّـار الإسـلامي بـكل فصـائله مـن إخوان وسـلف وجماعات أخرى متشـدّدة، إضـافة إلى إن السّلام باليد يفتح باب الحميمية التي ستكلفه في أحسن الأحوال المزيد من الجهد والوقت.

تعمّدتُ أن أطري عليه ببعض المدح، ورغم صدق الكلمات إلا إنها كانت تبحث عن الاطمئنان والتخفيف من الخوف، فقلت:

- سُـمْعتك سـابقاك يا دكتور، ناس كتير يشكّروا في حضرتك وأنا عارفة أني بين أيادي أمينة.

أومأ برأســه بالموافقة على عبارات المجاملة،وكأن ما سـمعه من المسلّمات لديه، ورد باقتضاب:

– أنتم جايين بتوصية من اثنين من الدكاترة الأصدقاء .

وتسلّم التحاليل والأشِعّات وأخذ يقرؤها مرورًا عليها بسرعة، ثم وقَفَ وتوجّه نحو سرير الكشف في زاوية بالغرفة ودعاني إلى أن أكشف عن مكان الورم .

جلست على السرير وشرعتُ في خلع ملابسي بكل هدوء واستسلام. وعاجلني بسؤال :

– إمتى نعمل العمليّة ؟

نزل السؤال عليَّ كالصاعقة،لكن تخلّصت من الموقف وأجبت بسرعة بديهة :

– إمبارح !

فانفرجت أساريره وظهرت أسنانه الأمامية ناصعة البياض في إبتسامة عابرة، مستحسنًا الإجابة التي اختصرت عليه أشواطًا من الشرح الذي عادة ما يبخل به الجرّاح على المريض .

وعلّق قائلًا:

– حلوة إمبارح ده!

ثم عاد ليجلس وقرّر أن يتحدّث مستجمعًا الكرم الطّائي غير

المسـبوق لدى الجرّاحين، وأمسك بورقة التحليل من ظهرها وأخذ يرسم شكلًا توضيحيًا لمهمته الجراحيّة القادمة .

حـدد أمامه احتمالـين: إما أن يقوم باستئصـال الورم فقط، وإما أن يستأصـل الثّدي كلّه وذلك سـيتوقف على عـدد وأماكن تمحور الأورام.

الكلمـات تخـرج منه ببسـاطة روتينية، لكنها تقع علـيَّ كالزلزال المـدوِّي وأطبقـتُ على أسـناني جيـدًا حتـى لا تفضـحني فتحدثُ قرقعةً من شدة اصطكاكها .. ثم استسلمت نهائيًا وفضلت أن «أشد الفيشة من الكهرباء» فارتخت أعصابي !.

سـرحت في ملامحه من جديد لأسـهِّي نفسـي عن وقـع المعلومات المتلاحقة التي كان يشرحها، متأمّلة شفتيه وهما تنفرجان قليلاً مع حركة اللِّسان والكلام .

– لمـاذا لا يُبْدي الطبيب أي تعاطف،وهل تحوَّل الأمرُ إلى روتين لدى الجراح، أم إن الحالة خطيرة والورم في مرحلة متقدمة ؟

تزاحمـت الأسـئلة،وبدأت الأفكار تؤلمنـي في الرأس ..ربما بحكم التكرار لا ينتبه الأطباء إلى أن كل مشـرط يمسـكون به ويفتحون بـه جرحًا فإنـه مهما يندمـل فلا يختفي أبـدًا ويحفر معـه ذكريات ممزوجة بالألم والأمل.

وانتبهتُ على تغيُّر نبرة صوت الطبيب فجأة، وهو يردُّ على تساؤل لسمر ابنتي حول إمكانية تطبيق اكتشاف جرى تجريبه في أمريكا حيث يتم حقن الخلايا السرطانية ببروتين معين يقوم بتحفيز الجهاز المناعي بالجسم، لمقاومة نموّ تلك الخلايا السرطانيّة في الثّدى، وقاطعها وهو مشحون بالاستفزاز ومحاولاً التقليل من أهمية ما تسوقه، معتقدًا بأن اقتراحها جرّاء القراءة غير الدقيقة لمعلومات تتيحها بعض المواقع على شبكة الإنترنت .

لكن سمر أوضحت في ضيق، بأنها تلقّت تلك المعلومات عندما كانت في الولايات المتحدة الأمريكية للدّراسة، حيث تنشط مجموعات التوعية بكيفية الكشف الذّاتي لاكتشاف أورام الثدي وطرق التعامل معها، كما تتاح المشاركة في حملات تطوعية لصالح المرضى، ويجري التعرف على أحدث الاكتشافات ويتطوع عدد من المرضى أو حتى الأصحّاء لتجريب تلك الأساليب في العلاج .

لم أرحّب بهذا الحوار المتشنّج، فالأستاذ يتعود أن يكون الحوار باتجاه واحد، ومَلَكة الاستماع والاستقبال لديه يقلُّ نشاطها والكلام ما قلَّ ودلَّ أيضًا، وهذا لم يعد ملائمًا لشباب خاضوا الثورة ويريدون أن يفهموا كل شيء، ولابدّ من احترام عقولهم والتعامل معهم بنديّة وتواضع . والأولى بالعلماء أن يتواضعوا.

وحتـى أتوقف عن هذا التمادي في النقـد للطبيب والتحامل عليه، قلت لنفسي بتأنيب:

- أنـتِ مالِك موش طايقـه الدكتور ليه..هو إحنـا هنتجوزه ..هو جـرّاح وموش مطلوب من الجرّاح أن يكون عاطفيا أو رومانسـيا، ده حتـى في المثل الشـعبي يقولون الجـراح زي الجزّار، دلالة على أنـه منزوع العواطف .. لكني أجد صـعوبة في التعامل مع الأطباء الذين ينظرون في الساعة . .

قلت للدكتور علاء وأنا أودِّعَهُ بنبرة صوت تحمل استغاثة :

- أرجوك أن تتبنّاني يا دكتور!

لم يـرد، وظـل على إصـراره في حياديّة نظرتـه، وكأنّه خائف من إبـداء أي تعاطف مـع المريض، قد يكلّفه كلمـات أكثر، وكرمًا أكبر في المعاملة، بينما لا وقت لديه لمسـاحة من العواطف،ربما تُضَـيِّعُ بعضـ الوقت الذي يحتاجـه لإجراء المزيد مـن العمليّات في قائمة طويلـة من مرضـى ينتظرونه،ثـم ماذا يحدث له لـو تعاطف وفقد بعد عدة أيام هذا المريض،وهو معرض للفَقْد كل يوم، هل يذهب إلى بيته وينام في سـريره معذبًا..لا بل إنه يفعل الصواب حتى يضمن لنفسه السلامة وأداء المهمات على الوجه الأكمل.

في تلـك اللّحظات أشـار زوجي إليَ بالانصـراف وانتظـاره خارج الغرفـة لحين اسـتكمال حديـث مع الطبيـب عن بعض التفاصـيل للعمليّة الجراحيِّة .



ثورة على الثورة!

هل أنا بصدد زلّة القَدَر.. أم زلة القدم؟

لم أستمع إلى النصائح بالتوجّه إلى أحد معامل التحاليل الطبيّة الشهيرة في مصر الجديدة القريبة من بيتي والذي تملكه عضوة لجنة السياسات السابقة في الحزب الوطني المنحلّ، بل فضّلتُ أن أذهب الى معمل الدكتورة سيدة وزوجها المرحوم الدكتور عاطف، صحيح إنهما ليسا من مشاهير أطباء التحاليل الذين يتم تلميعهم في إعلام النظام البائد والذي كان معياره عضوية الحزب الوطني الفاسد، ورضا جهاز أمن الدولة لكي يقبل ترشيحهما لمناصب في كليّات الطبّ أو ترشيحهما في أي من اللجان التي تشكل خصّيصًا لكي تسهّل «السبابيب» بوزارة الصحة؛ لكن ثقة المرضى بهما وبعلمهما أهمّ وأبقى .

كنت أداوم على إجراء التحاليل المطلوبة مني عندهما خاصة أيام حملي الأول والثاني، كما أنهما صديقان صدوقان لوالد زوجي -رحمة الله عليه- الحاج عبد الله حيث كان يداوم على إجراء تحليلاته لديهما طيلة سنوات مرضه بالكُلى التي زادت على ربع قرن . هما لا يعلقان علامات الجودة على مبنى معمل التحاليل،كما إنهما لا يعلنان عن معملهما في الجرائد والتلفزيون وإذاعات الـFM كما يفعل معمل عضوة أمانة السياسات بالحزب الوطني الشهيرة، لكني أشعر دائما أنهما نموذجان لأخلاق وقيم العلماء،ويقظة الضمير الذي مات في منشآت صحية كثيرة منذ زمن .

كانت مشـقة الوصـول الى معمل التحاليل الطبيـة تفوق أي مرة سـابقة، بسـبب الازدحـام الكبـير، وليد السـائق يختـار المناطق المزدحمـة بحسـن نيّـة منقطعـة النظير .هـو يعشـق المقاهي فهي نافذته التي يطل منها إلى كل الوجوه التي مرت على عتباته؛ لذلك يميّز كل شـارع وحيّ بمقاهيه. اخترقت السيارة ميدان التحرير في أكثر من ساعة لنصل إلى شارع عبد العزيز حيث يوجد المعمل .

لم يهدأ الميدان منذ اندلاع الثورة، والمرور منه في أي وقت وحتى خارج أيام الجمعة يسـبِّب نكشًا في الأعصـاب. وللتخفيف من ذلك أخذت أشغل نفسي بقراءة اللافتات وعرائض المطالب التي علقتها ائتلافات الثورة على عدد من واجهات العمارات المحيطة بالميدان، بينمـا توجـد مجموعات متفرقة من الشـباب يقفون في قلب الميدان بجانب خيمتين منصـوبتين يلتقط تحتهما الثوار أنفاسـهم وتقيهم الشمس والهواء .

انسـابت السـيارة في بـطء وبـدا التحضـير علـى أشُـدِّه لجمعة غاضـبة. فالبيانات كثيرة معلقة في الحديقـة المقابلة لمبنى مجمع التحرير ممضـاة من ائتلاف الوعى المصرى، وائتلاف ثورة مصر الحرة تندد بالفسـاد الذي مازال مستشـريًا ولم يسـقط بسـقوط مبارك، بل مسـتمر باسـتمرار الفاسـدين والمفسـدين والانتهازيين والمتحوِّلـين الذين يقبضـون بقوة علـى زمام المؤسسـات الأمنية

والاقتصادية والإدارية والتعليمية والمحافظات والمحليات، وتحذِّر البيانات من سعي هؤلاء إلى ضرب الثورة والالتفاف عليها بشراسة لاستعادة زمام الأمور من أجل إجهاض باقي المطالب، تحت دعوى أنه بسقوط الرئيس السابق وحلّ مجلسَي الشعب والشورى قد تحقّقت مطالب الشعب .

وعي شباب الثورة يفضح محاولة غسل سمعة النظام السابق وإعادة تسويقه في صورة أخرى وبأشخاص آخرين، لم تحترق دفاترهم كما حرقت دفاتر أحمد عز وشِلّة جمال مبارك . لذلك أصر الثائرون على تحريك محاكمات ضد عدد من رموز النظام السابق وكبار الفاسدين، وعلى رأسهم مبارك وثلاثي الشر -كما أطلقوا عليه-: زكريا عزمي وصفوت الشريف وفتحي سرور، وحلّ الحزب الوطني أساس الخراب والإفساد في البلاد، وعدم السّماح لأيٍّ عضو من أعضائه بممارسة الحياة السياسيّة، وتطهير وزارة الداخلية وتطهير الإعلام الفاسد الذي لم ينجح في الإفلات من عباءة مبارك وحزبه ويدافع عن المجرمين ويؤيد الثورة المضادة لإجهاض ثورة الشعب، وإستبدال رؤساء الجامعات والإسراع بمصادرة أموال الطغاة ورجال الأعمال الفاسدين وتجميد كل أرصدتهم في كافة بنوك العالم وأولهم آل مبارك. لغة الثوار مليئة بالتحدّي ولا تحمل مرادفات متلونة بل وجهًا واحدًا للمعنى .

امتلأت ساحة التحرير بشعارات كُتبت بألوان العلم المصري وبتكرار الحروف وفقًا لإيقاع الشعار، بحيث تجعل من يقرأه يلحِّنه ويهتفه، وتتحوّل المجموعات التي تقف متجاورة في التحرير إلى فرَق من الشباب يردّدون الشعارات كما الأغنيات وكأنهم كورال محترف تدَّرب عليها مرَّاتٍ ومرَّاتٍ، وتسري الحماسةُ في النفوس مع انتشارِ الأغنيات في الميدان:

تعبنااااااااش ما تعبناش ...

الحرية مش ببلاش ... دم أخواتنا مش ببلاش

أصحي يا مصر وأوعي تنامي .. لسه فيكي كام حرامي

إصحي يا مصر وفوقي شوية .. لسة فيكي كتير حرامية

يالِي ساكت ساكت ليه .. أخوك مامتش ولا إيه؟!

ولا تخلو الشعارات والرسوم من خفة دم كعادة المصريّين .. فعلًا صدَقَ من قال أنه لايوجد شعب على ظهر البسيطة أكثر ظَرفًا من الشعب المصري الذي يتّسم دائما بالطرافة وروح النكتة وخفّة الدم حتى في أحلك الظروف الاقتصادية والمعيشية التي يعاني منها.

كانت تسترعي انتباهي خلال تغطيتي التلفزيونية في الثمانية

عشـر يومًا من أحداث الثورة المصرية تلك المظاهر الفنِية البديعة كالرُّسـوم والكاريكاتـير والنكت السـاخرة؛ للتعبير عن الغضـب من مبارك ونظامه ورموز عصـابته بطريقـة مبتكرة. وكانت هناك شعارات غير مسبوقة خلال الثورة تعكس خيالًا خلاَّقًا للمصريين: عفـوًا لقد نفذ رصـيدكم ..ارحل !! ..بيتي وَحشـنِي.. ارحَل ! عايز ارجَع مدرستي ..ارحَل مراتي وحشتني ..ارحل عايز أتجوز!

وكانت هناك شعارات أخرى ترمز إلى المصير المحتوم الذي ينتظر مبـارك، مثل تلـك اللافتة التي كتـب عليها: «بن علي: هل سـيرحل مبارك؟ الإجابة :بسم الله الرحمن الرحيم :تونس !».

ثم تطوّرت تلك الـرّوح الثوريّة النقديّة خلال الجمعات المليونيّة وتكرَّرمشهد ذلك الشّابّ البسيط في مظهره ولكن العبقريّ في فكرته الذي ابتكر شـعارًا طريفًا: «قرطسني ..شكرا»، والأكثر طرافة أنه ارتـدى القرطاس فوق ملابسـه لتلخيص شـعوره بالغضـب من سياسـات تُحاك لإحباط الثورة والتلكُؤ في تنفيذ مطالب الشـعب. وتردُّ على ذلك الشـاب لافتة رفعها رجل في منتصف العمر له نفس ملامح قدماء المصريين، من وجه طويل مع استطالة بسيطة وقامة فارعة بسُـمْرة لونه المميزة، ومكتوب عليهـا بخط اليد «إحنا اللي اتقرطسنا كلنا»..

الشـعور بالقرطسـة يلخص جيـدا مواقف كثيرة ظلـت محتقنة وتحتدم في نفوس الثوار، الذين يعتقدون بعد مرور عدة أشهر على سـقوط نظام مبـارك إن مبارك وأعوانه هم مـن يحرِّكون الأحداث من وراء السِـتار ومن تحت الترابيزة، وبعبـارات الثوار «مبارك يحكم بالشـاليموه» وهو مصَّاص أو مزَّاز يستخدم لشرب العصير أو المياه الغازية !!

هناك مؤسَّسات تحاول قرطسة الشعب في مقدّمتها قيادات بارزة سابقة في وزارة الداخلية، تحرّك جحافل من البلطجيّة والمسجّلين خطـر الذين كانوا يسـتخدمونهم في الإنتخابـات لتقفيل اللجان، أو تلفيـق"قضـايا وطبخ ملفـات بعينها عنـد احتياجهم لإثبـات أنهم يعملون لصالح البلد المزعوم!

وصـلنا بعد شـق قلب العاصـمة. كان المصـعد معطّلاً فصـعدت السُـلّم خمسـة أدوار أفرغـت فيها شـحنة التكدير والقلـق. عندما وصـلت إلى معمل التحاليل الطبيّة كانت الدكتورة سـيدة عوفي في انتظـاري بتحيتهـا الحميمية التي أنسـتني تعب صـعود السـلم، لكن هذا المشـوار أصـبح بعد ذلك ثقيلاً على قلبي خوفًا من نتيجة التحاليل في كل مرة.



استعرضت وأنا أرقد على طاولة العمليات في انتظار وصول طبيب التخدير والجراح، تلك الأحلام الكبيرة بتحرير الأوطان من الظلم والظالمين ومن الإفقار والإذلال، والتي كانت تبدو كالمستحيل وتحقّقت في تونس ثم في مصر في لمح البصر، وتستغرق وقتا ودماء أكبر في ليبيا وربما في اليمن وسوريا. فخلال أيام قليلة، رحل دكتاتوران عربيان في حين لم يكن أحد يتخيّل إن هروب بن علي والإطاحة بمبارك ستستغرق تلك المدة القصيرة، من فرط ما كان الشعور، باستحالة تحقيقها قابضًا على الأرواح كما إستحكام القبضة الأمنية على المصائر. لكن الهمّ الأكبر الآن هو الإفلات من عباءة الماضي وشق الطريق بهدوء نحو المستقبل الذي يستحقه المصريون.

تراءت لي تلك الأحلام من جديد، وأنا في غرفة العمليّات، أقرب إلى المعجزات. شعرت إني أحتاج في تلك اللّحظات، وأنا ممدَّدة بين بقايا وعي وارتباك مع بدء تسرِب التخدير في الدماء، إلى شيء من عزيمة الثوّار التي حاربوا بها بن علي ومبارك والقذافي والأسد وصالح. كم أحتاج إلى بركة المعجزات وصبر وتصميم الثوار على الوصول إلى الضوء في نهاية النفق! هل تكون مجرد أحلام مراهقة غالبًا ما تجهضها مؤامرات الساسة وتشعبات مصالحهم القذرة؟!

آخر مشهد رُسِمَ في الذاكرة هو عينا الدكتور علاء الجراح الثاقبتان من تحت النظارة بينما تغطّي الكمامة باقي وجهه وملامحه، دون أن يعطيني فسحة من الزمن لأستشعر منه نفحات طمأنينة أتعطش إليها. كنت أرتجف كالطير الذي ينظر إلى مخالب الصّقور وهي تنقضّ على الفريسة. أنفي وفمي لُجما بجهاز التنفّس، وتدريجيًا أتدحرج كالحجر بسرعة شديدة من أعلى صخرة إلى سفح الجبل لأستقر في نفق عميق يشبه أنفاق رفح على حدود مصر مع غزة، التي شاهدتها لأول مرة في حياتي في يناير ٢٠٠٩عند الاجتياح الإسرائيلي البشع للقطاع حيث كانت تمر من الأنفاق أنابيب الغاز والمواد التموينية وشكاير الأسمنت كما يمر منها أيضًا الآر بي جي والكلاشينكوف ...وجدتني أستقرّ في أحد تلك الأنفاق وتزلّ قدمي إلى التيه بينما الخرطوم يمرّ في الأحشاء ويبتعد الأوكسجين عني فأختنق ..أختنق ..

تمنيت أمنية واحدة وبسرعة قبل الاستسلام إلى المخدّر، ولأول مرة أعرف طعم الأمنيات السريعة: يا ربّ أطفئ أحزاني وامنحني حنوّ القدر ..فينتهي الكابوس حين أستيقظ..!!



بداية .. أم نهاية ؟

من أين جاء الحزنُ يا صديقتي ؟

وكيف جاءْ ؟

يحمل لي في يده ..

زنابقًا رائعةَ الشُّحوبْ

يحمل لي ..

حقائبَ الدموعِ والبكاءْ ..

نزار قباني

الغرفـة رقـم ٤٠٩ بمستشـفى كليوباترا ممتلئـة بملامح لوجوه أعرف أغلبها، وإن كان ضـباب يشـوّش النظر والأصوات تصلني متداخلة وبعيدة من فج عميق. الجسد ممدّدَ في السرير يزن أطنانًا والأطراف مقيدة متيبسـة: بردانة وحرّانة، نائمة ومصحصـحة، خائفة ومستسـلمة ..مشـاعر غريبة. أشـعر بـأني لا أعرفني وأدق علـى بابـي لأوّل مرة. هـل مازلت في غرفـة العمليـات أم في مرحلة الإفاقـة بعد العمليّة، أم تُراني أدخلتني في غرفة النوم واسـتجلبت النعاس المريح!

آخر ما كنت أتذكره قبل أن يبتلعني الأسانسير تدفعني إلى داخله بهمّة شديدة ممرضة من قسم الجراحة، تلك الهمسات التي لاحقتني بها مها وإبتسـام وهما تتندران على تناكـة ما قبل العملية وكأنني ذاهبة إلى فسـحة في جنينة. كانتا تستدعيان الضحكات المبتسرة فتهمسان كيف إني أبيتُ إلا أن أغسل أسناني وأخلع ملابسي بالكامل وأرتدي بنفسـي الثوب الأخضر الواسع، قبل أن أستسلم وأصعد لأتمدد على السرير استعدادا لنقلي إلى غرفة العمليات. حاولت أن أبدد القلق باختلاق حوار أخير بيني وبين الممرضة في الأسانسير؛ حيث أخذت أشـرح لها أسـباب جَعْل فتحة الثوب من الأمام وليس من الوراء كما جرت العادة!

كانت تناكة بطعم القهر.. وهذيان بحوارات تافهة لتبديد رهبة اللحظة وقطع أحبال الصمت المميت.

أحاول أن أفتح عيني. لا أدري كم من الوقت قد مر عليّ في غرفة العمليات، ولا أدري ماذا حدث بالضبط،هل استأصل الطبيب الورم أم أن الوضع اقتضى استئصال الثدي كاملًا .. الجلبة وتداخل الأصوات تزيد من الإحساس بالألم وتنطلق الآهات كالخنين الذي يتأرجح مع الأنفاس المتقطّعة. أميِّز بصعوبة صوت إبتسام، وهي تشدّد على الممرضة بضرورة إحضار مسكّن على وجه السرعة.

إبتسام هي سومة كما نحبّ أن نناديها جميعًا تدليلًا لها، وهي ليست مجرد جارة وصديقة وإنما هي زوجة الأستاذ حامد جبر القيادي الناصري المعروف صديق العمر لزوجي طارق، وقد قرّر العودة إلى الوطن بمجرد اندلاع شرارة ثورة ٢٥ يناير. وتربطه بزوجته علاقة قرابة، وهي بدورها من عائلة سياسية هي عائلة طاحون بمحافظة القليوبية، شقيقة لاثنين من أصدقاء زوجي المقربين إلى نفسه أيضًا، وهما الأستاذ صلاح طاحون والأستاذ رفعت طاحون. أفراد عائلة طاحون هم جميعًا إخوة لم تنجبهم أمي وجعلتهم الأقدار في طريقي ليُخففوا عني وحشة الغربة

ويعوضـوني حنان أشقائي. وسومة بشكل خاص هي رفيقة الدرب في هذا المرض اللعين.

بدأت أهذي تحت تأثير التخدير وعقلي مشوش :

-إبتسام كذَّابة، والألم فظيع (فيري باينفول)

أنطقها بالإنجليزية هكذا!.

يأتي صوتٌ ضاحكٌ يُخفي دموعًا مكتومة:

– طيّب لازم تتمنظري علينا بالإنجليزي يا ستّ أُلْفه؟!

عرفت صاحبة الصوت. إنها مها،الوحيدة التي تناديني بست ألفه عندما تريد كسر الرتابة وإضفاء أجواء مرحة .

ما أغرب تأثير المخدرعلىعمل المخّ ولا نظن إن العلم إكتشف حتى الآن بشكل دقيق كيفية تأثيرالمخدرعلى الجهاز العصبي! لكن ما شعرت به بعد أن بدأتُ العدَّ من واحد إلى خمسة مثلما طلب طبيب التخدير مني ذلك، أن ردود فعلي أصبحت خارج السيطرة وحدث تشويش وهلوسة فتخرج الكلماتُ بدون ترتيب منطقي أو إدراك، ويتتابع في ذاكرتي عدد من الصور غير المفهومة دون أي سلطة أو رقيب، فتتشابك الصور والأحداث. مازلت أسأل نفسي لماذا قلت لطبيب التخدير إني خائفة من ذقنه الطويل وسببتُ له إحراجًا

أمام زملائه مثلما روت لي الممرضة بعد ذلك، لماذا انتقدتُ وجوده باللّحية الطويلة داخل غرفة العمليّات،هل هيئته توحي بانتمائه للتيّار السّلفي من شكل اللحية المشعثة والبنطلون القصير؟

ولا أزال مندهشة من تعليقي على رائحة السجائر التي كنت أشتمّها وعلى الأرجح كانت صادرة من أحد الأطباء المساعدين. وأعتقد أني سبَبتُ حرجا أيضًا للطبيب المدخن، فرائحة التدخين لا تختفي إلا بالاستحمام!

كنت في غرفة العمليّات ثم في الإفاقة أتحدث بلغة عربيّة رائعة ولا عَمِّنا نجيب محفوظ، وعلى الأرجح كنت أتحدث باللهجة التونسية عندما روت الممرضة مازحة أن الجِنّية التي تتحكّم في لساني «تبرطم» وتلك اللغة التي لم تكن مفهومة لديها هي غالبًا التونسية، كما أني نطقت كلمات بالإنجليزية والفرنسية، لكن من غير المفهوم لماذا الإنجليزية والفرنسية خاصة أنه ليس من عادتي التحدث بهما. وقد استحسنتُ فكرة تسجيل مادار وقد تمكنت بعد ذلك من الاستماع إلى كل ما صدر مني وأنا تحت تأثير المخدر، ووجدت الهذيان مريعًا للغاية وأشفقت على الأطباء والممرضين الذين يقاسون من الأنا الجبارة التي تكسّر القمقم وتتخلص من الرقيب! كأني أستمع لصدى شهقات ويتراءى خيال أمامي. ربما

هي صديقتي الدكتورة هدى زكريا أستاذة علم الإجتماع السياسي. هـل ألمـح دموعًا في عينيها..رغـم أني لم أقبض من قبـل على عينيها تحتجـزان عبرات، ليس لأنها صـلبة كالحديد أو تقاطـع البكاء، ولكـن لأنها مرت بالكثير من المحن التي أخذت منها الدموع وتركت العاطفـة الهادئـة مع صـبر المتصـوفين الجميل. قد تكـون الأنّات والدموع مصـدرها صـفاء ابنة خال إبتسـام، أم يا تُرى مصـدرها بناتـي الحبيبـات: سـمر وصـديقاتها سـالي ومنّه وميرنـا ؟! على الأرجح هي سـالي التي أُصيبت بحالة إنكار من شدة الصدمة، فهي ترفض فكرة مرضـي، وتعجز عن مواجهة الحقيقـة التي يعاندها بهـا القـدر. قد اختطف المرض والدتها وهي في سـن صـغيرة، لكن حالـة الإنكار وعدم التصـديق انهارت تمامًا عندمـا قابلت الطبيب بعد الجراحة على باب الأسانسير.

سـالي هي ابنتي الحبيبة التي لم تلدها بطني، فقدت والدتها وهي في سـن الرابعة. ولأنها زميلة سمر في المدرسة فقد توطّدت العلاقة بينهما منذ مرحلة الحضـانة. واحتضـنتها بصدق ولم يكن دافعي في ذلـك مجرد التعاطف مـع يُتْمها وإنما لتميزها بشخصـية فريدة وذوق رفيع وذكاء وفطنة مُبكرة، وقد أحسن والدها شهير تربيتها وتعليمها وضـحّى من أجلها فلم يتزوج بعـد وفاة والدتها حتى لا تتيتم مرتين. ونجح شـهير في الاقتراب من سـالي وسـمر وكسـب

ثقتهمـا فاتخذتـاه صـديقًا وكاتم أســرار وليس أبًـا حنونًا فقط. والأجمل أنهما تنادياته بشوشـو دلعًا وتدليلاً. وقصــة سالي وسمر نموذج تلقائيّ لكيف يتشـكّل الحلم الطفوليّ بمصر التي تذوب فيها الفروق ويختفي التمييز الدّيني. سالي تصوم معنا رمضان وتحتفل بأعيادنا وبالمثل تُحْيي سـمر معها الأعياد القبطية وتصـاحبها إلى القداس في الكنيســة، وتقتسمان السـرير مثل الأختين وكل واحدة منهما تنام وتحت مخدتها إنجيلها وقرآنها .

أتميـز شـيئًا فشـيئًا الوجـوه في الغرفـة ..هذا هـو محمود نجل إبتسام وحامد يذرف الدموع ويحاول مسح عينيه، وقد فطر بكاؤه قلبي وزعزع عاطفة الأمومة التي أشعر بها نحوه.

وعلـى الفـور اكتملـت الصـورة أمامـي: الجميع كانـوا يبكون.. تيقنت على الفور إن ما دار في غرفة العمليات هو السيناريو الأسوأ!

مـا أحوجني الآن لاسـتدعاء تلك الحكمة في لحظـات تتراوح بين الوعي واللاّوعي : «من الذكاء أن تكون غبيا بعض الوقت !»

يبتدئ النزيف في قلبي .. وفي أناملي
كأنما الأمطار في السَماءْ
تهطل يا صديقتي في داخلي..
عندئذ .. يغمرني شوقٌ طفوليٌ إلى البكاءْ ..

إقتربت ابتسام، حاولت تطميني بمسح جبهتي بيدها وأنها تعتذر عن مبالغتها في التهوين قبل العملية، بينما كنت أنتفضُ من شدة الخوف والبرودة. لقد ظلت تهوِّن من الجراحة لتشجيعي قبل دخول غرفة العمليات، وعلى الأرجح فقد تجدّدت آلامها وهي ممسكة برأسي الذي يهتزُّ مع نوبات الكّحة.

لمساتها تبدِّدُ القُشَعْريرة التي تنفض بدني. أخذت تمسِّد رجلي وتوزع الضغط بالإبهام على بطن القدم والكاحل مرارا وتكرارا من الأعلى إلى الأسفل. بينما يدثّرني زوجي بغطاء إضافيٍّ، فهو أكثر من يعلم كيف أرتجف من البرد بعد كل تدخّل جراحي وتتيبس أطرافي من الجزع واستعصاء الإذعان. لقد رافقني في تجارب سابقة عند استئصال المرارة وعند ولادة ابني، وكانت أنفاسه تنحبس وتتجمد الدماء في عروقه وتخور قواه قبل انتهاء المهمة. ألمح من ورائه خالته رضا التي نناديها طنط ريري، وجودها يبعث على الارتياح ووجهها الهادئ وملامحها الحانية تزرع الطمأنينة في نفسي المضطربة، لذلك فوجودها إلى جانبي في تلك اللّحظات الحرجة يعوض غياب الأم"!

يشتد الألم وتتعالى صرخاتي أمام تراجع قدرتي على الاحتمال. استدعَوا الطبيب لإعطائي بعض المسكّنات . ما أقرب أحاسيس

الطفولــة النضــرة، التي ســرعان ما يُهـرع المرء للتفتيشـ عنـها في لحظـات العجز فيحتاج أن يحتمـي بقلب وعقل يَسَـع الدنيا كلّها .
فأيـن أنت يـا بابا ..هلاّ تغيثني فتضـع يدك على رأســي وتمررها علــى شــعري وتروي لي قصــة من قصصــك الرائعة التــي لا أحب أن تنتهـي من ســردها أبدًا. هل أقدر على اقتفــاء أثرك وأنت القائل الجزع عند المصــيبة مصــيبة أخرى أفظع .. أوَلَســت أنت البدّاعي علــى الدوام إلى التنقيب عن النفع مــن رحم المكروه. لقد مررت في مشــوارك الطويل بالمعــارك وخرجت منها منتصــرا، فكيف ياتُرى كان لديــك كل ذلــك الصّــبر على تحمّــل الظلم من نظــام قهرك وقهر شــعبه عندما فرض عليكم في الســتينيات اشــتراكية بالإكراه وهي مــا عُرفت بالتعاضُــد، فأخذ محالَّكم وضــاعت أحلامكم مع الفشــل المــدوي لبورقيبــة ووزيــره أحمد بن صــالح في تطبيق اشــتراكية عرجاء تحت دعاوي إعــادة توزيع الثروة في البلاد . ولكلّ حروب تجارهــا، فخلال التجــارب الفاشــلة ينتهز تجار الأزمات الفرصــة لســرقة عرق الكادحين وجيوبهــم، لتحقيق أكبر قدر من المصــالح على حسابهم .

أتذكر دموعك وهي تبلّل خديك فأمسحهما براحة يديَّ الصغيرتين وأنا جالســة على ركبتيك أتشــبّث بك خوفًا عليـك. كنت أعلم رغم سـنّي الصــغيرة أن دموع الرجال تُنبئ بخطب عظيم، فأربِّت على

كتفَيْ والدي وأهدئ مـن روعه، ونظراته الحزينة تهز قلب الطفلة البريء.

أستشـعر يدًا على رأسـي، فأجده زوجي ملتصقًا بي يمسك بيدي ويسـند رأسـه عليهـا يحتمي مـن خوفـه وغربته ويـأوي جزعي ودهشـتي، وكأنـه مُطّلع علـى ما يدور في خيالي الممـزق بين الوطن والجسـد الجريح. كنت أعلم إن زوجي سـينتزع نفسه من أحزانه ليرسـم البسـمة والرضـا علـى وجهـه ويهدئ مـن روعي مُصـرًا علـى قضـاء اللَيل إلى جانبي. لا أدري كيف مـرّت تلك الليلة، فبين الإغفاءة والأخرى كانت خيالاتي المفزوعة تعود بي إلى أيّام وليالي الحـرب في ليبيـا، وما أقسـى الذّاكرة فهـي ملكة مسـتّبدة، تنتقي أخطر العذابات وتعيشـها عشـرات المرّات في الخيال بعد أن كانت قد عايشتها بمرارة في الماضي!



ثورة الأوطان ..والجسد

ماعاد يكفينا الغضب ..

ما عاد يكفينا الغضب!!

فاروق جويدة

- يا إلهي ما هذه الأصـوات التي تطلقها سـيارات الإسعاف، وما كلُّ هذه الطلقات التي تدوِي من المدافع والبنادق!

أتحسّـس سمر في سـريرها. لا يفصلها عنـي إلاَ كومود خشـبيّ صـغير، أتأكـد ما إذا كانت مخـاوفي قد وصـلتها أم إنها نجحت في الاستسلام إلى النوم بعد يوم طويل من التصوير.

-أنا صاحية يا مامي !

..وهل من الممكن أن تغفو الأعين وسط هذه الحرب الدائرة؟!

تبدو سـمر بالفعل هادئة أو هي على الاقل أكثر هدوءًا مني، ربما أبـدو منفعلة ومتأرقـة لأنها ليلتي الأولى في بنغـازي، أو ربما لأن أول ما قابلني عند وصولي، تلك الواجهة الزجاجية المحطمة وآثار الانفجـار الـذي طال مدخـل الفندق. غـير أن ما يزيد دقـات القلب تدافعا تصـاعد وتيرة المدفعيـة وارتفـاع دويّ المفرقعات التي ما عاد ممكنًا تجاهلها. تتجمّد الدّماء في العروق وأتضـاءل وأنا لابدةٌ في سـريري كلما أضاءت السَماء من جراء الشرارات المتطايرة من صواريخ غراد الروسية ومضادات الطائرات. ورغم أنه يصل منها بعضـ النّور الذي يتسـرب من وراء سـتارة البلكونـة ليبدّد عتمة الغرفـة قليلا، إلا إننـي بدأت في تلك الأثناء أفكر جيدًا في ضـرورة تدبـير طريقة للعودة علـى الفور إلى طـبرق، فالكهرباء المقطوعة

عن الفندق المكتظ بالصحفيّين ومراسلي التلفزيونات من جنسيات مختلفة والاتّصالات المعدومة، تجعل المهمّة شبه مستحيلة.

الشباب اللّيبي الذين يتولون حراستنا في فندق أوزو نصحونا بألاّ نضيء أنوار الغرف ليلاً حتى لو لم ينقطع التيار الكهربائي. جميع أحياء بنغازي يلفّها الظلام الدامس، ويزيد انقطاع المياه والاتّصالات من تدهور الوضع الإنسانيّ. وفي رواية لبعض الشباب فإن كتائب القذافي هي التي قطعت جميع الخدمات وتتحكم فيها طرابلس حاليًا، وهناك رواية أخرى تشير إلى إن الانقطاع بسبب الأعطال الناتجة عن الحرب. لكن في كلتا الحالتين فإن الأوضاع لن تساعد على تصوير الريبورتاجات المطلوبة للتلفزيون.

- سمر،عزيزتي أنتِ لا بأس ؟!

- لابأس مامي متخافيش علي،أنا تعودت خلاص،إنتِ ناسية إنه مر عليَ ثلاثة أسابيع في أجواء الحرب دي !

- يا حبيبتي يا بنتي ربي يحميك ..كيفاش مستحملة هذا الكلّ!

تابعت الحديث مع سمر ولا أدري كيف أصبح لسانها أقرب إلى اللّيبية منها إلى اللّهجة التونسية. أخذت سمر تحكي عن الأجواء هنا وكيف أن غالبية الصحفيّين والمجموعات التلفزيونية غادرت بنغازي، آخرها قناة الجزيرة بالإنجليزية، ثم حكت مغامراتها

مع التلفزيون الألماني آر. تي.إل، وكيف وصلت إلى البريقة وراس لانوف حيث كان تبادل النّار بين الثوار والكتائب بروفة للجحيم! وباتت ليلتها وسط الرصاص مع مراسلة أخرى فرنسية مُتخفّين تحت السيارة.

كانت سمر تسعى بتلك القصص إلى تبديد التوتر الذي تلبّسني في تلك اللّيلة المرعبة،لكنها لم تفلح. شعرتُ بوجع شديد في بطني. أمعائي تتصارع، عصارات من اللهيب تتقد بداخلي وتدفع جدراني رغبة في القيء. هل بدأت أنّات النهايات؟ هل حان المشهد الأخير وتصاعدت رائحة الموت الدسم؟!

خيالي يرتع هنا وهناك، والأفكار السلبية تستبدّ بعقلي في هذه اللّحظات التي تختصر عقودًا من التاريخ. ماذا لو قرَّر أنصار القذافي الانتقام من الصحفيّين الذين يغطون الأحداث من الجانب الشرقي ويفسدون عليه رقصاته الإعلاميّة المجنونة لكسر إرادات ثوّار بنغازي وطبرق والبيضاء ودرنة والجبل الأخضر والبريقة وراس لانوف والزويتينة، وغيرها من المدن والقرى في الشرق الليبي الذي كان أول من ثار على حكم القذافي ؟!

لقد بعثت الكتائب رسالة صغيرة بأنهم قادرون على تنفيذ تهديداتهم عندما وضعوا تلك القنبلة التي دمرت الواجهة البلّورية

للفنـدق الذي نقيم فيه، فمشـهد الحطام في مدخـل الفندق والعمّال يلتقطونه ويلملمون معه ما تسـاقط من خوفهم لا يفارقني . هذا له معنـى واحد أنهم سيصـلون إلينا وإذا أرادوا اقتلاعنا وتصـفيتنا فسـنكون هدفًا سـهلاً في متناولهم. هم متمرّسـون علـى معاقبة من يتجرأ على حمل القلم والكاميرا وبناء صرح الحقيقة.

يا إلهي مشـاعري كلها مبتئسـة ومتناثرة كالحطام. أمسك بطني وأبحـث عن الحمّام، فأمعائي تـكاد تهوي على الأرض. لكن المأزق أن الظـلام الدامس سيصـعّبُ مهمة الوصـول إلى بيـت الراحة . أضاءت سمر الموبايل وفتحت أمامي الطريق إلى الحمّام، وبمجرد أن تحركـتُ صـدمت كرسـيًا كانـت سـمر قـد زحمتـه بحاجياتها، وسـقطت حقيبة كانت مُسنَدة على الكرسـي وفوقها الكاميرا التي لم يكـن يظهرمنهـا شـيء. شـعرت بضـيق لأنني تسـبّبت في هذه الفوضـى التي عطّلت حركتنا. لكني تنبّهت إلى أمرٍ أهم: الأشـياء تم تجميعهـا في مكان واحد، الكاميرا متخفية وقد لفّتها في شـال فلا يظهر منها شـيء، واللاب توب الذي يوتّرني صوته وهو يصدر كلّ حين إشـارة تُنْبئ عن حاجته إلى شـحن البطارية، ثم آلة تسجيل صـغيرة وبعض قطع الملابس وُضِـعت على ظهر الكرسي، ومعها أدوات العمـل، الجاكـت الطويـل الغريـب والشـال الأسـود غطاء الرأس. لقد إتّخذت كل احتياطاتها لعدم جذب الانتباه أثناء عملها

وإبداء احترام لعادات الليبيِّين في اللِّباس حيث لا تسير سيداتهم وآنساتهم في الشارع سافرات، كما لا يتظاهرن في مسيرات ميدان الشهداء دون غطاء الرأس والملابس الواسعة الساترة للجسم.

إن الليبيين متديّنون ويتسم أهل بنغازي بطيبة وصدق ربما تفوق أهل طرابلس والمدن الأخرى.

أشعر بارتياح بعد خروجي من الحمام وأتجه إلى السرير وأهمس لسمر بأنني فهمت للتوِّ فقط كل شيء!

ثم سألتها:

-هل أستطيع تجميع ملابسي وحاجياتي الموجودة في دولاب الغرفة على ضوء الموبايل؟

- آه آه ..إيه هل قررّتِ..ما لسّه بدري؟!

- متهزريش..صوت الرَّصاص والمدافع أصبح قريبًا جدًا من أعصابي وأزيز طائرة مرّ منذ قليل فهتك الليّل واهتزت تجاعيد الأرض،إذن الخطر بجانب أنوفنا فماذا ننتظر ..لابد من أن نكون على أهبة الاستعداد للإجلاء في أية لحظة.

- لم نسمع أصوات تحليق طائرات منذ الحظر الجوِّي، ربما يتهيأ لك أنها طائرات!

رغم التشكيك وصراع المخاوف فإن سمر قامت لتساعدني على ترتيب أشيائي بينما الأصوات تتعالى في الخارج أكثر فأكثر.

داهمني ألم بمعدتي، يعتصرني فأتقلّص، قلبي يخفق بدقات سريعة دون توقف. ما أقسى الشعور بالخطر على الحياة وما أبشع الدماء التي تسيل بدون ثمن! أخذت أفكر في كيفية تأمين مكان لعودة سمر إلى مصر، فربما لا نجد مقعدين شاغرين لنا معًا.

- إذا تم إجلاء جماعيّ للصحفيين فستكون الأولوية لمغادرة الأجانب! سوف أرتّب لك العودة إلى مصر بمجرد ظهور ضوء النهار.

قلت ذلك ثم أخذت أتمتم بالدعاء حتى يكتب الله لنا رؤية ضوء النهار مجددًا.

-انسي يا ألفة موش هرجع من غيرك،رجلي على رجلك!

إجابتها أصابتني بهياج . إنها كشفت مؤامرتي عليها سريعًا..

ثم إنها تنرفزني عندما تنطق اسمي بدلاً من ماما .

لم أعلّق، فلم تكن تلك اللّحظات مناسبة للعناد والتحدّي أو حتّى للثّرثرة،لكنها تعلم أني أحاول إيجاد مخرَج للمأزق الذي نتّجه إليه، وعاودت الحديث بنديّة:

- مامي موش باش نسافر إلا وأنا معاك.. ساقي على ساقك ولو كنت نحب إنسافر كنت سافرت البارح مع زميلي من قناة الجزيرة إنجليش، كان عنده مكان في السيارة ألحّ عليّ لإقناعي بضرورة الخروج من بنغازي وأن القادم مفتوح على مصراعيه أمام المجهول!

قالتها بدلال شديد لكي تمهّد لثرثرة حول موضوع آخر فتنتزعني من الهواجس ويجذبني دفء البوح.

رائحة الدم تخيم على كلّ الأماكن في بنغازي. المفارقة أن الزغاريد هي التي تعلن عن ذلك الموت الكريه وعندما تعلو في الأرجاء فإنه إخبار بوصول المزيد من الشهداء . يالسخرية القدر، بالأمس كنّا نشاهد أمّهات الشّهداء في فلسطين يزغردن بعد غارات إسرائيليّة تغتال أبناءهم، واليوم يتكرّر المشهد لكن على يد «أولاد البلاد» وليس بني صهيون. هذا الشعب اللّيبي يموت منه المئات يوميًا بصواريخ غراد الروسيّة المتهالكة . لم أسمع من قبل عن حاكم ظالم ومستبد يقتل شعبه بصواريخ مضادة للطائرات في وقت يستطيع أن ينال منهم بسهولة بالرَّصاص!

لماذا هذه الدموية البشعة وهم على مرمى يده؟ لماذا يتعمّد أن تكون الإبادة بهذه الوحشيّة؟ هل يسعى لإثارة الرعب في قلوب

«مشـروعات الإستشـهاد» الذين يتطوعون بالمئـات يوميًا بعرض الجثـث المنتشـرة المقطّعة الأوصـال ربما يخافـون ويتراجعون؟ أتذكرما قاله عوض قويدر مهندس في شركة البترول الوطنية:

– حسابات القذافي مغلوطة، إذ إن العائلات عندما تتسلّم شهداءها وتجدهـم على هـذه الصـورة البشـعة تزداد بسـالة وصـلابة في مقاومة القذافي وكتائبه، ومن يفقد ابنًا شـهيدًا يرسـل إبنين مجددًا إلى المعركة. وقد استشهد ابن عمّي على يد كتائب القذافي وأرسلنا جميعًا أبناءنا فنحن فداء ليبيا.

عوضـ قويدر من سـكان بنغـازي، قام بأدوار مهمة في مسـاعدة الإعلاميّـين الأجانب، كمـا تطوّع لمرافقة طاقم العمـل أثناء إحدى جولات التصـوير وهو الذي تطوّع لإجلائنا من بنغازي إلى طبرق عندما اقترب الخطر . يقوم عوض مع زوجته وابنيه بالمساعدة في تحضـير الطعام للثوار وتوصـيله إلى الجبهة وتقديم الإسعافات الأوليّـة للجرحـى. ولأن الموت يعلّـم الحكمة والقهـر ينزع الجبن ويوقظ الشجاعة،فقد نطق عوض بها:

– لم يفهـم حكّامنـا منذ بدء ربيع الثـورات العربية أن قطرة الدم كلما اتّسـعت مسـاحتها وأصـبحت نهرًا مـن الدّماء غـرق الحكّام أنفسهم في ذلك النهر المُشين واستحال الرجوع عن مطالب الثورات

إلى نقطة الصفر؛ حيث يزول الخوف من قلوب الشعوب وينضم المزيد من المتظاهرين إلى الشوارع رافضين العودة إلى بيوتهم، ولايرى الآباء والأصدقاء غير الثأر للدم المسال ولن يتوقفوا إلا بسقوط الحاكم!.



هذا يوم جديد غارق في الهوان، تأبى شمس بنغازي أن تشرق، وقد أدمنت ركوب السّحاب،وهي التي كانت لا تغيب عن سمائها. لكنها باتت الآن تبحث عن ذلك البريق الفضيّ الذي يتلو سحاباتها الممطرة. ميزان القوى في المعركة الدائرة بين الثوّار وبين القوّات الموالية للعقيد القذافي ينبئ عن هزيمة مدويّة. فالطغاة لا يزدهرون إلا بشرب الدماء ولا يستسلمون إلا بعد فوات الأوان. كم مات من الثوّار وكم تكبّدوا من خسائر..! هل تُراهم يمهدون الطريق بموتهم لمقبرة قاتليهم؟!

محدوديّة جاهزيّتهم وتواضع السّلاح الذي يقاومون به كتائب شرهة للقتل ومستعدة خير استعداد لإبادتهم، يجعل الشهداء يتساقطون كأوراق الشجر في خريف دمويّ مَقيت. ورغم أن العدد لم يتم حصره لكن إطلاق النّار الكثيف الذي يُسمع في كل أرجاء بنغازي والمدن المجاورة بالمنطقة الشرقية ينبئ بأن الحصيلة كارثيّة.

بمجرد سماع عويل سيارات الإسعاف تدخل بنغازي قادمة من جبهات الحرب في رأس لانوف والبريقة والسدرة وأجدابيا وبن جواد، أصبح الجميع يعلم أنها تحمل جثامين الشهداء.

يتجه الأهالي إلى مستشفيات المدينة الثلاثة ويبحثون عن أبنائهم ويحملون جثامينهم إلى ميدان التحرير الذي أُطلق عليه ميدان الشهداء؛ حيث يلتف المتظاهرون بأعداد كبيرة حولهم يهتفون بحرقة نيران القلوب، ثم يصلّون عليهم قبل أن ينطلقوا لدفنهم.

تروي سمر العديد من القصص التي تُدمي ضمير الإنسانية لكنّها تتحوّل إلى شيئ روتيني من فرط تكرارها. جبال الحزن والآلام تنسج العديد من الملاحم تظهر معدن هذا الشعب الصَّبُور الذي قاسى كما لم يُقاسِ شعب آخر أربعة عقود عقرة، ويقدم الآن الغالي والنفيس وتقطف الأسلحة المحرّمة طفولة وشباب أبنائه الذين يعبّدون بأرواحهم طريق الحرية.

ومع مرور الأيام وأنا أغطّي يوميّات الثورة أصبحت تلك الطّقوس مفهومة لكل الصحفيّين الذين يتابعون الحرب المشتعلة. وتمتلئ الليالي والنهارات بالمشاهد الجنائزية ولا سواها.

وفي مقابل ارتفاع حصيلة الشهداء منذ بدء الثورة في السابع عشر من فبراير بما يتجاوز ٧ آلاف شهيد تقريبًا، فإن أضعاف

تلـك الأعـداد تلتحـق يوميًـا بالجبهة، وكانـت جمـوع المتطوعين يتجمعـون بعد صـلاة فجـر كل يوم بجانب مبنـى وزارة العدل في انتظار الركب الذي يأتي لنقلهم إلى جبهات الموت. عندما لا يصبح للحياة معنى أهمّ من الموت لا يبقى للشباب اللِيبي إلا فعل واحد: التصـميم على التطوُّع في صـفوف جيش التحريـر الوطني اللِيبي الذي يُمثل القوات البريَّة للثوَّار أو في صـفوف سـلاح الجوِ لقوات الثوار الليبيين، وكلاهما يتبع المجلس الوطني الانتقالي الذي يُدير عمليات الثوار العسـكرية ضـد القذافي، تحت قيـادة رئيس أركان جيش التحرير اللواء عبد الفتاح يونس العبيدي.

دخلت الثورة الآن منعرجا خطيرا،فلم يكن القذافي يمازح شـعبه عندما قال إنه سـيفنيهم ويتعقبهم زنقة زنقة،شـبر شبر، دار دار، بيت بيت، حتى يعيش هو وأنصاره.

– الشهداء واجد.. واجد !!

هكذا كرَّرها مرتين بلهجة ليبية مميزة «واجد واجد»..إنه طارق نبوس، قريـب محمد نبوس واحد بين أهم عشـر شخصـيّات تدير المجلس الانتقالي الذي يرأسـه مصطفى عبد الجليل. التقيت طارق وهو أحد الضبّاط السابقين في القوات الجويّة الليبيّة الذين انشقوا عـن نظام العقيد معمر القذافي وأعلنـوا مبكّرًا التحاقهم بثورة ١٧

فبرايـر. هـو الآن من القـادة الذين يدرّبون المقاتلـين على الجبهة ضـد كتائب القذافي..أخذني إلى معسكر للتدريب الذي يشرف عليه حتى أجري ريبورتاجًا مع الشـباب المتطوّعين، شـرح لي ونحن في الطريق إلى المعسـكر على متن سـيارة نصـف نقـل متهالكة تخزُّنا قرقعاتها،إن هذا المعسكر له خصوصيّة.

– الشباب الذين يتدرّبون في المعسكر عادوا من عدّة دول أوروبيّة بعد ١٧ فبراير، بعضهم كان يدرس في إيطاليا، وفي بريطانيا وحتى في دول إسـكندنافية، وبعضـهم يديـر أعمـالاً واسـتثمارات ..وهم مرتاحون في معيشـتهم ببلـدان المهجر، لكن ليبيـا تناديهم، جاؤوا لتحريرها من «بو شفشوفه».

هكذا يطلق الثوار على القذافي. طوال المدة التي بقيتها في بنغازي تكرر وصـف أبو شفشـوفة كثيرًا في الرسوم الكاريكاتورية المعلّقة على جدران المكتب الإعلامي ومحكمة الاستئناف، ولم أستمع إلى تفسير لهذا الاسـم. وتوالت أغاني الراب تتهكم على أبي شفشوفة. لكنهـا لم تكن سـوى وجع يداورونه بالسـخرية حينًا وبالموسـيقى حينًا آخر.

تنفّسـت الصـعداء بعد أن تمكّنت من تسـجيل أول تقرير والذي أقر خلاله «علي» أحد الثوار العائد من السـويد، بأن المعركة غير

متكافئة على الإطلاق بينهم وبين الكتائب، التي تهاجم من البحر والجوّ ومن مواقع مختلفة وغير ثابتة من الصحراء، وهدفها الآن هو بسط سيطرتها على المواقع الاستراتيجية التي يتم فيها تكرير النفط المتدفّق عبر مواسير من الصحراء إلى رأس لانوف، ومصانع الغاز ومصانع البتروكيماويّات القريبة منها، وموانئ التصدير مثل ميناء السدرة والبريقة. هل يمكن أن تتوقف لعنة السماء التي تحصد أعمار العائدين من الغربة إلى الاغتراب؟

يروي «سالم» وهو العائد من بريطانيا، كيف اشتدّت مهاجمة كتائب القذافي لهذه المناطق الاستراتيجية في تلك الأيام الأخيرة، نظرًا لأن منطقة مثل سرت التي يعتبرها القذافي مسقط رأسه وتدين بالولاء إليه، أصبحت تعاني شحًا كبيرًا في البنزين والغاز الذي يأتيها من رأس لانوف والمنطقة الصناعية هناك، بعد استمرار حصار الثّوار لها بين كرّ وفر في المعركة الأولى ثم المعركة الثانية، وقد أرسل الساعدي نجل القذافي فرَقًا من الكتائب ومعها معدات كثيرة وأسلحة محرمة دوليًا حتى يستعيد سيطرته على تلك المناطق المهمة.

كنا على الإفطار عندما استمعت إلى عدد من المراسلين الأجانب لوكالات أنباء وتلفزيونات يرددون لغة يائسة وينشرون الإهانة

والذل مؤكدين إن القذافي وقواته هم من سيفوزون في هذه المعركة!

وَقْع هذه التحليلات يحطم صمود اللّيبيين الذين ظلّوا يسهرون على خدمتنا في الفندق بعد أن سافر كل العاملين من مصريين وتوانسة وبنغال، ولم يبقَ إلا الشيف المغربي في المطبخ الذي مازال يبحث عن تأمين رحلة لعودته وأسرته إلى الدار البيضاء. وبالمثل كانت الأحاديث الدائرة بين صحفيين أجانب والشباب اللّيبي الذين يحرسون الفندق محبطة، فاليأس يسري كالعدوى بينهم وذلك هو الفرق الشاسع بين المراسل العربي الذي تتحرّك آماله ويتّقد حماسه مع الثورة، والأجنبي الذي يغطي الأحداث وأولوياته البحث عن السبق الصحفي قبل أي شيء آخر وعيناه ترمقان شيئًا واحدًا وهو كيف يختطف فرصة الفوز بلقاء القذافي وابنه سيف الإسلام، وهو يعلم أنهما مجرمان حقيران كاذبان ومضللان .

أنطونيا رادوس كبيرة المراسلين في المجموعة الألمانية آر.تي .إل والتي اشتهرت بمراسلة عدة قنوات تلفزيونة ألمانية من الشرق الأوسط، تخطط إلى الانتقال من بنغازي إلى الجزء الغربي من ليبيا، لذلك لا تنقطع إتصالاتها بشخصيات في طرابلس للترتيب للقاء مع العقيد القذافي أو ابنه سيف الإسلام أو حتى كلب من

كلابهما أو أسـد في حدائقهما. يبدو أنها تلقّت الموافقة في ذلك اليوم الـذي وصـلت فيه أخبـار عن قرب انعقـاد اجتماع طـارئ لوزراء الخـارجيـة بالجامعـة العربيـة لبحـث مقترحين همـا فرض حظر جوي على ليبيا والإعتراف بالمجلس الوطني الإنتقالي المعارض.

في المقابـل تتردد الأخبار عن قوى الثـوار التي تخور فيتراجعون إلى جنوب أجدابيا. وأجدابيا هي آخر معقل في طريق الكتائب نحو بنغازي، وهي تقع على مفترق طرق يمكن من خلاله لقوات القذافي حصار معقل المعارضة الرئيس.

وعلى خُطَى أنطونيا رادوس سار العديد من المراسلين مستعدّين إلـى الانتقال إلى طرابلس بعدما لاح لهـم أن الغلبة تتجه إلى كفّة القـذافي، قـد يكـون ذلك منتهـى الاحـتراف الصـحفي، أن يتواجد الصحفي في مكان الحدث، لكنني لم أعد أستطيع أن أخفي الغُصَّة في حلقي وأنا أراقب الاقتراب من حافة الهزيمة.

حزم من بقي من الصحفيين حقائبهم في بهو الفندق وأعدُّوا العُدّة للمغادرة..الرسالة أضحت واضحة: الخطر قادم لا محالة!



أنتم عرفتم منين؟

وأقولُ للقَدَرِ الَّذي لا ينثني   عَنْ حَرْبِ آمالي بكلِّ بَلاءِ:
لا يُطْفِئُ اللَّهبَ المؤجَّجَ في دمي   موجُ الأسى وعواصفُ الأَرزاءِ
فاهدمْ فؤادي ما استطعتَ فإنَّهُ   سيكون مثلَ الصَّخرة الصَّمَّاءِ

أبو القاسم الشابّي

مضــى علــى العمليّــة الجراحية ثلاثــة أســابيع. لم ألملم جراحي بعدُ ولا حتى بكيت بما يكفي للتخلّص من تلك الســكّين التي تقطع أوصالي. لذلك ابتهجت وأنا أستقلّ الطائرة إلى باريس لأنها ستكون مناســبة لأختلــي بنفســي، ألملــم جراحــي، أبكــي أو أنتحِــب دون أن أوجــع قلب أحد من أفراد أســرتي، وأســتجمع قــواي لمواجهة السّــاعات والأيّــام القادمــة التــي قــد تحمــل لي المزيد مــن المتاعب والآلام، فكل ما يلوح في الأفق غامض.

قد يكون من الغرابة محاولة تناسي موعد الطبيب الذي سيكون في العاشر من يونيو، والتركيز على ما أحتاج إليه في تلك اللحظات خلال الرحلة البعيدة عن أي شــخص قريب مني، حتى أتمكن من الفضفضــة مع النفس واختبار المشاعرالصــغيرة كالبكاء بدون مراقبــة من عيــون أحد، ولكنّها الحقيقة، فعندمــا يتعوّد من حولك بمن فيهم أقرب الناس إليك على أنك متماســك والضــعف والانهيار ليســا في قاموسك، فلابدّ أن تبحث مثلي عن أبعد رحلة ممكنة تتيح لــك ذلك في وقت يطالبك فيه كل من حولك بالتماســك كما هي عادتك وطباعك، ولكن ما أحوجني اليها الآن، فأنا أفتقدها جدًا!

كنــت عاقــدة العزم علــى أن تكون زيــارة باريس أكــثر من مجرد استشــارة طبيــب الأورام الذي طلب الاطّلاع علــى تحــاليل الورم الباثولوجــي الــذي تم استئصــاله عنــد إجــراء العمليّــة، وإنمــا

إستشــارة حميمة مع النفس، لأســتجمع أجزاءهـا المبعثرة..فأنا طبيبــة روحــي بل أهم طبيبــة تطبّبها في هذه اللّحظـات . قد أكون إضــطررت إلى الســفر إليها رغـم أنها أقرب مني إليّ. واســتغرقني ســؤال مهم: كيف أكون راضية بما ابتلاني الله به من مرض، وأكون في نفــس الوقــت حزينة على نفســي وأعــبر عن ذلك الحزن بشــتّى الأشــكال دون أن يكون معنــاه رفضًــا للابتلاء أو تمــرّدًا على إرادة الله.

غريبة أحوال من تنزل عليه مصيبة، فأسئلة كثيرة غريبة تسيطر عليه، ويكون كالمذبوح الذي تســيل من رقبته الدماء، وهو لا يراها وأحيانًا لا يشــعر بها، وربما يفقد الشعور بالرأس وبالرقبة ويظل مشــدوها ومجرورا إلى الســراب بدون هدف، تلك هي الحالة التي كنت أسعى إلى الهروب منها.

ورغم التصميم على ذلك إلا أني لم أنجح، فبمجرد صعودي طائرة إير فرانس، والتقاطي لكل الصــحف التي كانت متاحة لأتســلّى بها طوال الرحلة، حتى اكتشفت أني وقعت في كمين تعسفيّ .

-.. عرفوا منين ؟! ..

الصــحف كافة تنشر موضــوعات عن السّــرطان، حتى إني أخذت أنظر إلى من حولي في دهشة مسرحيّة.

كنت أتمنى في تلك اللّحظة أن أسأل كل من حولي:

-أنتم عرفتم منين ؟؟

تملّكني الضحك بشكل هستيري في نفس اللحظة التي سالت فيها دموعي على خدّي وأنا أطالع أرقام من لقوا حتفهم سنويًا من جرّاء السّرطان. هناك مليون وثلاثمائة ألف امرأة في العالم يُصَبن بنفس نوع المرض الذي أصابني وهو سرطان الثدي، الأوسع انتشارا في الدول الغربية ولقي إحدى عشرة ألف وخمسمائة سيدة حتفهن في عام ٢٠١٠ بدول أوروبا الغربية لوحدها والمعروفة بإمكاناتها الطبية المتقدمة بالنسبة للاكتشاف المبكر والقدرات العلاجيّة. على الفور انتزعت صكّ الخلاص واستجمعت الروح المرحة الشحيحة في كل تاريخ البشرية لأقرأ ما لم يقله الخبر . يعني هناك أكثر من تسعمائة ألف امرأة مصابة تُكتب لهنّ النجاة من الموت سنويًا، وقلت لنفسي التي ارتدت دثارًا زائفًا من الأمل لصد اللّكمات:

– الحمد لله ..فيه أمل إن شاء الله !!

وتابعت قراءة صحف أخرى.. ياللمصيبة! هناك مؤامرة تُحاك ضدي. لماذا هذا الاستعجال للقضاء علي.. سأُصاب بالسكتة القلبية قبل أن تحطّ الطائرة على أرض المطار. أليس هناك موضوعات أخرى يتحدّثون عنها في صفحات الصحة بالصحف الفرنسية غير السرطان ؟!.

ومع ذلك لم أتوقف عن تصفّح الجرائد، رغم كوني حذرت نفسي هامسة:

- أنا داخلة على اكتئاب..وسيكون باريسيًّا..وهل باريس يزورها الاكتئاب أيضًا؟!

الله يسامح فيروس الفضول الذي دفعني لأتابع القراءة. فقد اكتشفت سر اهتمام الصحف بنشر موضوعات عن الأورام، حيث إنتهى للتوّ المؤتمر العالمي لإخصائيِّي الأورام في الولايات المتحدة الأمريكية من أعماله في شيكاغو وأعلن عن عدد من النتائج التي تعطي أملاً للمرضى، حيث تم التوصل لدواء «أرومازين»-وهو الاسم الفرنسي للدواء -والذي يخفض نسبة الإصابة ٦٥٪ لدى النساء بعد انقطاع الطمث، وقد أُجريت هذه الدراسة لاختبار الدواء الهرموني على أربعة آلاف وخمسمائة وستين سيدة من الولايات المتّحدة وكندا وفرنسا بين سنوات ٢٠٠٢و٢٠١٠، من خلال فريق طبي يقوده البروفيسور في جامعة هارفرد بول غوس.

وبقدر ما تكون المعرفة نعمة تضيء العقل تكون نقمة تصيب بالاكتئاب، فالأرقام العنكبوتية مرعبة.

في فرنسا وحدها هناك أكثر من ثلاثمائة وخمسين ألف حالة إصابة جديدة بالسرطان تم اكتشافها في العام الماضي ٢٠١٠،

وسجلت نحو مائة وسبعة وأربعين ألف حالة وفاة بالمرض،إثنان وستون ألفا بين نساء،وهناك ثلاثة أنواع للسرطان هي الأكثر تسببا للوفاة عند المرأة حسب الترتيب: سرطان الثدي، والرحم، ثم الرئة.

أصبح واضحًا أن هناك مؤامرة قدرية للإطاحة بمعنوياتي، لكن زلّات القدر بالجرعة الضخمة تنقلب إلى كوميديا هستيرية، فبعد أن وصلت إلى باريس، فوجئت بمجموعة من الناشطين يوزّعون على المارَّة في الشارع مطويّات، ولا أدري لماذا تم اختياري من بين الذين وزّعوا عليهم تلك المطويّة، التي تتحدث عن حملة لصالح مرضى السرطان.

- هاتجنّن.. لازم حد يقولّي إيه اللي بيحصل بالضبط ؟ لابد أن هناك من يمشي ورائي ومستقصدني!

يوم طويل قضيت معظمه في الشوارع الفسيحة النظيفة التي توقظ معاني الحياة . كنت أبحث عن مَواطِن الجمال والاسترخاء لنسيان المؤامرة القدريّة . الطيور والحمائم تتجمّع في الميادين المبللة لتوّها بدموع السماء، مشهد أصبح عاديًا ولدينا منه بالآلاف في مصر، غير أني أستميت لإقناع نفسي بأنه منظر بديع محصلش ومفيش أروع منه!

تلفت نظري فتاة وهي تسير إلى جانب شاب ملتصقين جدًا، أجرب تقمّص شخصيّة شباب اليومين دول فأهمس:

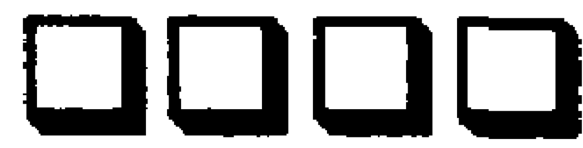
- الاثنان مُزز ويسيران ملتصقين وأيديهما تعبثان في أجسادهما.. عادي.. كوول!

لا، لا .. بالعكس منظرهما خنيق ومبتذل وموش مزز ولا حاجة وعندنا بالمئات منتشرين على كورنيش النيل، مُزّ طحن وآخر رَوْشَنة.. وحبّ مقطع بعضه. بس موش عارفة ليه عايزة أشوف الحاجات دي في باريس مختلفة !

وجدت أني قد أجهدت نفسي بحثًا عن مواطن الجمال في شوارع مبلّلة ببقايا الأمطار التي نسيها الشتاء، وحفزّت إرادتي للاستجابة لتنفيذ تعليمات داخليّة بالتفاؤل، رغم الحزن الذي بدأ يستلقي في مَخَادِعي وكأنه يخبرني بأن الزيارة لن تكون قصيرة. شعرت أني بحاجة لابتهالات الأكوان، وزارت مُخيَّلتي في تلك اللحظات أبياتُ نزار قباني وجدتني أردِّدها باستسلام مغرّر:

إذا أتى الشتاء..
وإغتالَ ما في الحقلِ من طُيوبْ..
وخبأ النجومَ في ردائهِ الكئيبْ
يأتي إليَّ الحزن من مغارةِ المساء

يأتي كطفلٍ شاحبٍ غريبْ
مبلّل الخَدّين والرِّداءْ..
وأفتحُ البابَ لهذا الزّائرِ الحبيب
أمنحُهُ السّريرَ .. والغطاءْ
أمنحه .. جميع ما يشاء



دخلت غرفتي بالفندق وفتحت التلفزيون بحثًا عن فيلم رومانسي من تلك الأفلام التي تتقنها السينما الفرنسية، فإذا بي يشدني ريبورتاج بالقناة الخامسة الفرنسيّة حول النجاح في التوصّل لتطوير تطعيم ضد الإصابة بسرطان الثدي؛ حيث أعلن علماء أمريكيّون قبل يومين فقط أنهم استطاعوا تطوير لقاح قد يمنع تَكوُّن سرطان الثّدي.

يشرح التقرير كيف جرّبوا هذا التّطعيم على الفئران في المختبر فأثبت فاعلية، وكيف ينوون البدء قريبًا بتجربة الدواء على البشر. تتجاذبني الوساوس. فئران التجارب تخلص لعلمائها أما الفئران البشر فلا أحد يضمن إخلاصهم،

ثـم حتـى إذا نجحـت التجـارب مـع بنـي البشـر أيضًـا، فـإن فـترة تطويـر المنتـج النهائي قـد تطول لتصـل إلى عدة سـنوات! لكن فكرة التطعيم عبقرية واعدة .وهي تتويج لسلسـلة اختبارات معملية للوقاية ضـد عدد من أنواع السـرطان، منها سـرطان عنق الرحـم وسـرطان الكبد وسـرطان البروسـتاتا. والفـرق بين هذه التطعيمـات المعروفـة وبـين التطعيم الجديـد هـو أن التطعيمات التي تُسـتخدم مع سـرطان عنـق الرحم والكبد موجهة بالأسـاس ضد الفيروسـات التي تسبب السرطان، بينما هذا التطعيم الجديد سيعتمد على آلية وتقنية مختلفة . وتم حقن نصف الفئران المختبرة بالمادة البروتينية المسـماة ألاكتالبومين a-lactalbumin، بينما تم حقن النصـف الآخر بمحلول ملح دون أية فاعلية طبيّة. وكانت النتيجـة أن أيًا من الفئران التي تم حقنهـا بالمادة الفعالة طبيًا لم يُصـب بأي عارض من أعراض سـرطان الثـدي. الباحثون الذين طـوّروا هذا اللقاح قالوا إنه موجِّه بالأسـاس ضـد مادة بروتينية تتواجد بشـكل عام في مجمل أنواع سرطان الثدي، وبذلك يستطيع منع تطوّر السـرطان وتقدّم مراحله. وأضافوا بأن التطعيم الجديد إذا ما نجـح، فسيقضي على سرطان الثدي بشكل كليّ.

– مـاذا يجـري بالضـبط .. هـل هي محض صـدفة أني أصـبحت محاصرة بالسرطان أم إنه انتشر بدرجة كبيرة في العالم،أم تُراني لم أعد أرى غير هذه الموضوعات منذ إصابتي بالمرض ؟

..لابـد أن أهـدِّئ من روعـي، فالأمل كبير طالمـا أن التجارب على قدم وساق،وقد يكون حظّي أفضل من غيري!

أغلقـت جهـاز التلفزيون في محاولـة قبل النّوم لاسـتدعاء الطاقة الإيجابيـة، فبشـرى التطعيـم ضـد السـرطان أدخلت علـيَّ بهجة أحـاول أن أُحكم القبض عليها واسـتبعاد ما سـواها من رواسـب سـلبية مـرّت بـي طـوال السـاعات الطويلـة الماضـية، بحثـت في الـلاب توب عـن أغنيات أُحِبُّهـا تعود بي إلى الوراء عدة سـنوات وتستحضـر الذكريـات الجميلـة، وانطلقـت أغنية «عـود» لأحمد الحجار. وأخذت أشدو مع الأغنية:

عود ..الفجر لسّه بيبتسم بين دمعتين عود ..

الفرح ممكن يتقسم على شفتين عود ..

الوهم مات والذكريات قالت لي حبك بالوجود يا ريت تعود ..

إحنـا زمان كنا الزمان كنا الهـوا من غير هوان كنا الأمان من غير حدود ..

عمري اللي راح سماح سماح يا حب أكبر من الجراح رجع عبيرك للوجود عود ..

أغمضـت عينـي وهي تغـرورق بالدمـوع ولسـاني مـازال يدندن

بالأغنيــة لكنــي لم أعد أشــعر بنفس الضــيق الــذي داهمني طوال اليــوم؛ بــل تبـدد وتبخر مـع كل نغمة تســري في عروقــي وتهدهد أعصابي وأخذت أتمتم بقية الأغنية .

الفــن له قيمــة رائعة، يبـدِّدُ الوحشــة ويجعل العالم كلــه قنديلاً يضـــيء قلوبنا، ويســافر في الأحاســيس فيوحّدها في نفس اللحظة بفضل تذوق لحن أو أغنية أو لوحة فنية دون اكتراث للمسافات.

قد تكون تلك الصــدفة التي إعترضتُ على تكرارها في البداية هي التي مكّنتني من أن أرى الدنيا وهي تؤازرني وتطبطب عليَّ وتُبْحر معي في اتجاه شاطئ السكينة.

شــعرت براحــة كبـيرة وصــفاء داخلــي بعــد الأغنيــة وتوقفـت الزوابع الضــاغطة على رأســي كأنه الهدوء الذي يتلو العاصــفة، واستغرقني النوم العميق كما لم أنم منذ أيّامٍ بل أسابيع.



العدُّ التنازليُّ

رقـم الهاتـف المحمول الـذي حاولت الاتّصـال به مـرارًا وتكرارًا لا يـردّ. لم أتبـيّن مـا إذا كان مغلقًـا أم لا توجـد شـبكة للتغطيـة. تملّكني القلق الشّـديد على حياة الشاب علي. فمنـذ أن التقيت به وصـورت ريبورتاجا عن تدريبه على حمل السّلاح ضمن المقاتلين والمتطوعـين لا أسـتطيع أن أنسـى ملامـح وجهـه. ربمـا القصّـة الإنسـانيّة التي تضيء تجربته تركت بصـمتها على ذاكرتي، وهو العائد من السـويد خصّيصًـا للتطوع على الجبهة تاركًا زوجته في إنتظار وليدهما . لقد أخبرني أنه إضطر وزملاؤه الثوار قبل يومين إلى التراجع إلى منطقة العقيلة في إطار الكرّ والفرّ. بعد تقدّم قوّات القذّافي نحو خمسة وأربعين كيلومترًا غرب البريقة .

وفي الغـرب الليبي تواتـرت الأخبار عن اسـتعادة القذافي لمدينة الزاوية بعد قصف عنيف استمر أسبوعًا . أثرت تلك الأخبار السامّة علـى معنويـات الثـوار، مثلهـا مثـل الأخبـار الأخرى التـي تعلن تقـدّم كتائـب القذافي نحو مصـراتة، وهي ثالث مـدن ليبيا وكبرى مدن محافظة مصـراتة أو شـعبية مسراتة كما يسـميها اللّيبيون. إحدى الطالبات في كليـة الآداب بجامعة بنغازي التقيتها في المركز الإعلامـي تطوّعت بسـرد معلومات عـن المدينة، قالـت إن العلاّمة

عبدالرحمن ابن خلدون ذكرها بالسين وليس بالصاد، باعتبارها تنسب إلى قبيلة تعتبر بطنًا من بطون بني اللهان من قبيلة هوارة وتقع على البحر المتوسط عند الحافة الغربية لخليج السدرة في منتصف الطريق بين بنغازي وطرابلس .سألت الفتاة عن اسمها فأجابت ديانا .كثيرات من بنات جيلها يشتركن في أسماء تغازل خيال الليبيين التوّاق إلى كسر النوافذ الموصَدَة للإطلال على الغرب،أما البنات الصغيرات في عمر الروضة والمدرسة فتغلب عليهن الأسماء القديمة التي تعود إلى صدر الإسلام،فحنين الليبيين إلى الانعتاق قادهم إلى الماضي، فاستُحسنت أسماء بنات الرسول وزوجاته .

لا حديث هذه الأيام إلا عن التحضير للمعركة التي سيخوضها ثوارمصراتة ضد الكتائب، يحدوهم الأمل في أن تكون المعركة الحاسمة لإلحاق الهزيمة بالقذافي واستسلام رجاله .

روى عدد من المقاتلين من أنصار القذافي الذين تم أسرهم من قِبَل الثوار إن القذافي اتخذ إخوتهم وأمهاتهم وزوجاتهم رهائن؛ حتى لا يفكّر أحد من أفراد الكتائب في الانسحاب من المعركة في أية لحظة . كما إن الطيارين لا يستطيعون الهروب لأنهم يحلِقون بدون المناطيد،وما قد يكتفي به بعض هؤلاء الطيارين، الذين

تدميهم نوبات الضمير هو أنهم يرمون الذخيرة في أماكن بعيدة بقدر الإمكان عن الثوّار .

أحد قادة الجيش، العميد مختار يتلحّف رأسه بقطعة قماش باهتة اللون، كان يعمل بالتحديد في القوات الجوية وكشف عن تواضع مستوى قدرات الجيش الليبي، حيث إكتفى القذافي متعمّدًا بتدريب وتسليح القوات المسؤولة عن حراسته وسلامته الشخصية فقط، أمّا ما عدا ذلك فليس لديه إمكانات تذكر وهذا الإفقار مع سبق الإصرار..

وبالإضافة إلى ذلك فإن كل الإنفاق على التسليح طيلة أكثر من أربعين عاما من حكم القذافي اتضح أنها كالأسلحة الورقية التي يلعب بها الأطفال ،حتى الطائرات خرَّت بلا أجنحة فاستعان بطائرات وطيارين مأجورين وبأسلحة جاءته من إيران عبر ميناء طرطوس السوري وجنود مرتزقة من جميع أنحاء العالم .إحدى تلك السفن رأيتها بعيني رابضة في ميناء طبرق حيث قبض عليها الثوار في عرض البحر وجروها إلى الميناء بمعدات بدائية، فليست لديهم سوى الحماسة لكنها في الحروب مع المأجورين تكفي للتغلب على باخرة محملة بأطنان الأسلحة، وعلى رجال عصابات يحرسونها مدرّبين على معارك البحر. إن من يحارب للوطن ليس كمن يحارب للمافيا!

ومن واقع الأسرى الذين يقبض عليهم الثوار اتضح عدد من الحقائق عن جنسيات المقاتلين المؤجَّرين من الجزائر وسوريا والنرويج وزمبابوي ومالي والتشاد..لم يثبت أنهم جنود أو ضبّاط حكوميون بل على الأرجح قد تمّ جلبهم من خلال شركات عالميّة وسيطة للتوظيف،وتردد أن أجر المقاتل في العملية الواحدة يتراوح بين عشرة آلاف واثني عشر ألف دولار. أما العمليات النوعية لاستهداف شخصية بعينها فإنها لا تقلُّ أبدًا عن خمسين ألف دولار في العملية الواحدة .

ورغم الخطر الداهم وكثرة الشكوى من قلّة العتاد وتواضع الإمكانات القتالية للثّوار، إلا أنهم يحصلون على أسلحتهم من المجموعات التي يتمكّنون من القبض عليهم فيأسرونهم ويستولون على كل ما لديهم من عتاد وسيّارات.

لكن بعض أنصار الطاغية،سواء من اللجان الشعبية أو الثورية السابقين أو من قوات الأمن الداخلي السابق -هو الجهاز الذي كان مسئولاً عن الاعتقال والتعذيب وتوضيب القضايا السياسية - يحاولون أن يندسّوا بين النّاس ويتولون الآن مَهمّات التجسس على الزُّعماء الميدانيِّين والثـوَّار وعدد من المراسلين في القنوات الفضائية، كما أنهم يتولُون إرسال رسائل «إس إم إس» على

الهواتف الجوالة لتهديد بعض المستهدفين .وكلاب التجسس ظلت هي الأعلى ربحًا بين عصابات الجرذان .

حدث هذا السيناريو مع قناة الجزيرة،التي تم تتبُّع خط سير فريقها ومقر إقامته وتحركات أفراد الطاقم،وتم استهداف السيارة التي كانت تقلُّهم خلال عودتهم من مهمّة في مدينة سلوق حيث صوّروا ضريح عمر المختار وأحفاد هذا الزعيم الخالد الذين خرجوا في مسيرة يعلنون تأييدهم لثورة ١٧ فبراير، وعند منطقة النواقية اعترضت مركب الجزيرة سيارةٌ ضربتهم وأصابت المصور علي حسن الجابر بثلاث رصاصات إستقرّت واحدة في قلبه، ورغم وجود سيارة حراسة خلفهم إلا أن ذلك لم ينقذهم .

الجغرافيا في المناطق اللّيبية قاسية، لا تنسج ستارة واقية للضعيف بل تخذله حيث يسهل الانقضاض جوًا أو برًا ومداهمة الثوار من قِبَل العصابات، والصحراء الممتدة في غالب المناطق شبه خالية من السكان،وتتحصن الحشود الخاصة بالثوار شرق ليبيا على مداخل المناطق النفطية الإستراتيجية وتتقدم تلك الصفوفَ قواتُ الصاعقة؛ ولكن الحاجة مُلحَّة الآن مثلما يقول الثوار الذين قابلتهم على الجبهة للدعم بالسلاح ومن غير المعروف حتى الآن كيف سيتدبّر قادة الثورة السلاح والعتاد

الضـروريين في هذا الوقت العصيب، وإن كانت الموافقة على قرار الحظر الجوي من قبل الجامعـة العربية -وهو الذي اعتبره أمين عـام الجامعـة العربية عمرو موسـى إجراءات وقائية للتشـويش على تحليـق الطيران الحربي التابع للقـذافي- قد حظيت بترحيب وارتياح بين الثوّار،بل شـعرتُ شخصـيًا بقيمـة ذلك القرار في رفع معنويـات الثـوار والمقاتلـين على الجبهـة رغم ما نالهـم من حزن كبـير علـى إثر سـماعهم لخبر اغتيال مصـور قنـاة الجزيرة علي حسن الجابر. قتلوا الضمير الإنساني ولم يقتلوا شجاعة الصحفي وكسروا كاميراته الموثقة ولم يفقؤوا عين الحقيقة.

اختلط الحزن بالنقمة والغليان لدى أهالي بنغازي ومدن الشـرق الليبـي بكاملها،وإندفعـت أفـواج جديـدة مـن الشـباب للالتحاق بالخطوط الأماميّة في الحرب .

وبنفس تلـك العزيمـة كانـت ردَّة فعل مراسـلي قنـاة الجزيرة علـى خبر استشـهاد زميلهـم .لم يهربـوا ولم يُروَّعوا فينسـحبوا إلى ديارهم، بل زاد تصـميمهم على البقـاء في الميدان حتى يقوموا بواجبهـم ويكـون الإعـلام عيـون المعركة وضـميرها إلـى جانب المقاتلين وينقل ما يحدث في أرض الوَغَى، وهو دافع معنوي كبير للثوار وللأهالي؛ لأنه يكشف الحقيقة أمام العالم .

وفي المقابل انسحب المزيد من الصحفيين الأجانب، في الوقت الذي كانت الوكالات تنقل آخر الأخبار القادمة من طرابلس حيث استطاعت أنطونيا رادوس أن تُجْري مقابلة مع العقيد القذافي لصالح تلفزيون الار. تي .ال الألماني . كان القذافي يتنفس كذبًا فهو الذي ينسف الثوار نسفًا بصواريخ غراد بينما يدَعي أن أعمال القتال التي تشهدها الأراضي الليبية هي أحداث صغيرة،مدبَرة من تنظيم القاعدة الإرهابي وأن هذه الأعمال ستنتهي قريبًا! ونفى القذافي أن تكون الأراضي الليبية قد شهدت مظاهرات قائلاً إن تنظيم القاعدة لا ينظم المظاهرات ويفضل استخدام العنف، وإن الوضع في معظم الأراضي الليبية هادئ والأمن مستتب. وعن الضحايا الذين سقطوا جرَّاء أعمال الاقتتال بين قواته والثوار نادى بإرسال لجنة دولية لتقصِّي الحقائق مؤكدًا إن عدد الضحايا تراوح بين مائة وخمسين ومائتي ضحية نصفهم من القوات الأمنية الليبيَة.

نسي أن يقول إن تلك الحصيلة من القتلى هي في يوم واحد،فمن شاهدتهم بأُمَ عيني من الشهداء في مستشفيات بنغازي الثلاثة خلال أسبوع واحد يفوق هذا العدد، وغالبهم أشلاء يُستدل بأشيائهم للتعرف على ملامحهم الضائعة !

قضـيت تلك الليلة في ركنٍ من بهو الفندق،وقد احتشد الصحفيون أمـام التلفزيون لمتابعة تغطية قناة الجزيرة حول استشـهاد فقيد الضـمير المغتـال مراسـلها علـي الجابر، بينمـا يعتصـرنا الحزن وتنهمر من أعيننا الدموع الحارقة وتزداد نقمتنا : تبًّا لهذا القذافي الدموي الذي يستهدف الصحفيين العُزْل!

ربمـا كان كل واحد منّا يهمس لنفسـه :من سـيكون الهدف القادم ويلقَى نفس المصير ؟!.



بسـقت شـمس اليوم الموالي وهو يوم الجمعة ...احتشدت ساحة التحرير في كورنيش بنغازي بالمصلِّين ربما أكثر من أي يوم جمعة سـابق منذ قامت ثورة السابع عشر من فبراير. صلُّوا أيضًا صلاة الجنـازة على الفقيد الشـهيد،وابتهلوا إلى الله أن ينقذهم ..فقوات القذافي ترمقهم وتصوب رشاشـتها على مشارف بنغازي. البعض يؤكـد إن أمامهـا سـاعات معـدودة على الاقتحـام والعسـكريُّون يقرعون الطبول محذرين من الكتائب التي سَتُغِيرُ على بنغازي مع حلول الغروب.

يتصاعد صوت المصلّين أكثر فأكثر يتضرَّعون إلى الله، بأن يُغيثهم

وفي صوت واحد يردِّدُ المصلُّون بحماسة منقطعة النظير، وكأنهم في الحرم المكّي يؤدون طقوس الحجّ :

الله أكبر الله أكبر الله أكبر
لا إله إلا الله الله أكبر الله أكبر ولله الحمد
الله أكبر كبيرًا والحمد لله كثيرًا وسبحان الله بكرة وأصيلًا
لاإله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده
وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده
لا إله إلا الله ولانعبد إلا إيّاه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون
اللّهم صلى على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد
وعلى أصحاب سيدنا محمد وعلى أنصار سيدنا محمد
وعلى أزواج سيدنا محمد وعلى ذرية سيدنا محمد
وسلَم تسليمًا كثيرًا

انتهت صلاة الجمعة والخطبة والتكبير المتكرر واختتمها الخطيب بالتضرع إلى الله لكي ينصر اللّيبيين، ثم اصطفّت الصفوف لتنطلق مسيرات من أمام مبنى المحكمة ووزارة العدل تجوب ذهابًا وإيابًا كورنيش بنغازي وتهتف: «الشعب يريد إسقاط النظام»..

ذلك الشعار الذي أصبح عربيًا، بل كونيًا هو الأشهر منذ اخترعه شباب تونس الثائرون الباسلون. النساء يسرن في مسيرات

لوحدهن، بينما يمسك الرجال والشيوخ بعد أن فرغوا من الصلاة بأطفالهم وأحفادهم بأياد وبالأيادي الأخرى أعلام ليبيا أيام الملكيَة وينشدون شعارات وطنية حماسية. ولم تتوقف المسيرات رغم سقوط مطر غزير وكأن السماء تذرف دموعها حزنًا على ما آلت إليه الأحوال . منذ قيام ثورة السابع عشر من فبراير والسماء لا تنفكّ تزغرد كزغاريد الزوجات الثكالى والأمهات المكلومات .

ومع حلول المساء كنا نتحلق من جديد حول شاشات التلفزيون في بهو فندق أوزو حيث كان سيف الإسلام يهدّد ويتوّعد ويشدِّد على إن تدخّل الناتو في ليبيا تدخّل غير قانونيّ، ويعلّق على المشهد المسرحي صهيب الصحفي العراقي ذو الأصل الفلسطيني :

-هذا ما كنا نخشاه... لا نريد أي تدخل لقوات غربية في ليبيا . لا نريد أن يتكرَّر سيناريو العراق المفزع. أتمنى لو يستفيق الشعب اللّيبي من خلطة السمّ في العسل التي تُطبخ في ردهات منظمة الأمم المتخذة وجامعة الخراب العربية ودولة السمسار الشرق أوسطية «خطر»و أن يفتك قراره ويصنع مستقبله بنفسه دون تدخلٍ خارجيّ من أحد.

قالها وكأنه يهمس بينما يرتشف التاي اللّيبي ويشرب السيجارة المالبورو الأمريكية. صهيب ليس وحده من يتمنّى عدم دخول

قوات الناتو إلى ليبيا فأصوات المحلّلين والسياسيّين على شاشات التلفزيونات تتعالى محذرة من تلك الخطوة، وبعض المفكرين القوميين العرب وصل الأمر بهم إلى اتهام أعضاء المجلس الوطني الانتقالي بالخيانة؛ لأنهم طلبوا تدخل قوات الناتو .

لربما كنت سأتبنى موقفًا مشابهًا لو كنت بعيدة عن أرض المعركة ولم أشاهد تلك الفظاعات من قِبَل قوات القذافي، كاغتصاب النّساء واتّخاذ المدنيّين دروعا بشرية والمتاجرة بالجرحى والشهداء، من ذلك قطع الأعضاء التناسلية لكل أسير أو جريح أو شهيد يقع بين أيدي الكتائب ويتم إرسالها إلى القذافي في مركزه بالعزيزية لينال الرضا والهدايا المالية الوفيرة .. لو لم أشاهد وأسمع كل ذلك لربما كان موقفي سيتغيّر! .

هكذا حاولت أن أقنع صهيب بصحة الموقف المطالب بالتدخل الخارجي قبل أن يفني القذافي شعبه بعد أن حاول أن انتعله في رجليه القذرتين أكثر من أربعين عاما،توّجها بمصالحة وبنصب خيمته في قلب عواصم العالم الغربي الذي كان يعاديه .أضفت عندما وجدت آذانه صاغية :

- المثل المصري يقول: «مالزك على المرّ إلا اللّي أمرّ منه»، فالقذافي الذي توعد الثوار بأنه سيتعقبهم «دار دار، بيت بيت

وزنقـه زنقـه» نفذ خططـه، والصــحفيون كانوا شـهود عيان على إنتهـاكات لأبسـط حقوق الانســان في أوقات الحـروب، رأينا كيف كان مقاتلـو الكتائـب يداهمون المنازل، ويأخذون الأطفال الرضّـع من أمهاتهم ويضـعونهم علـى الدبَابات دروعًا، حتـى إذا ما ماتوا من جراء قصف الثوار يحضـرون جثامين الرضّع أمام الكاميرات ووسـائل الإعـلام العالمية مدَّعين أن ضـحايا الثوار أطفال رضّـع وأن الثـورة متوحشـة ترتكب إنتهـاكات فظيعة. أما النسـاء فكنَّ ضـحايا اغتصـاب كتائب القذافي، الذين يقتحمون حرمات البيوت وهـم يرتـدون ملابس الثـوار ويدّعـون أنهم مـن أعـداء القذافي، ويعتدون على النساء والبنات ولا يرحمون حتى العجائز. كل ذلك لإثارة تعاطف المنظمـات الحقوقية والرأي العام العالميّ وتزييف الحقيقة.

فإلى متى يسـتمر الانتظار؟ وهل يسكت العالم عن تلك الفضائع؟ وماذا أمام المجلس الانتقالي فعله والحال أنه لا مجال لقوات عربية يمكـن لهـا أن تتدخـل وتحل محـل البديـل الأجنبي؟ هـل يتركون نسـاءهم يُغتصـبن وأطفالهـم يموتـون دروعًـا بـلا ذنب،وماذا في وسعهم فعله والحال أن ميزان القوى غير متكافئ؟ .

قال: إن الانتصـار القادم على جنـاح طائرة أمريكية أو دبابة من قوات الناتو هو هزيمة .وسكت متلهيًا بسيجارته ..

- الهزيمة والفضيحة هو ما شاهدته في ذلك اليوم ولن تُمحى من ذاكرتي ما حييت. عندما دخلت بكاميرا التلفزيون إلى مستشفى الجلاء، وجدت قسم العناية المركزة مليئًا بالجرحى وأصوات أنّاتهم تخترق الجدران غالبهم من الصبية الذين لا يتجاوز سن أكبرهم السبعة عشر ربيعًا. تساءلت كيف يرتكب المجلس الانتقالي هذه الجريمة الشنعاء حين يسمح للأطفال بحمل السلاح والمشاركة في حرب غير متكافئة معروف مصيرهم فيها، بالمخالفة للقوانين والشرائع والمواثيق الدولية ؟!

كانت غرفة عمليات الطوارئ بالمستشفى غارقة في مستنقع من الدّماء والآلام والفوضى . كل الطاقم الطبي ليبي، باستثناء عدد محدود من الوجوه غير العربية -أوكرانيين وبنغال- هؤلاء لم يغادروا كغيرهم الذين هربوا من أتون الحرب وزحفوا على الحدود المصرية أو ركبوا سفن الإجلاء الدولية . الجميع من أطباء وممرّضين ومساعدين يبلون البلاء الحسن في إسعاف الجرحى وإجراء التدخّلات الجراحيّة التي لا تنتظر،رغم قلة الإمكانات . لكنّ الكارثة أكبر من عزائمهم .

أشرت إلى زميلي مروان الكاميرا مان بالبدء في التصوير من داخل القسم الاستعجالي بمستشفى الجلاء، وكان مصور وكالة رويترز

قد سبقنا إلى ذلك الشابّ المُمَدّد على سرير في آخر الغرفة، يده اليمنى مجبّسَة،ورجله اليسرى مقطوعة ومضمدة وغطاء ملطخ بالدماء يستر عورته الجريحة. ورغم كل هذه الجِراح والدماء فإنه الوحيد الذي يستطيع الحديث أمام الكاميرا حيث إن خمسة جرحى آخرين يبدون فاقدي الوعي . ولكن ما إن بدأنا التسجيل حتى ارتفع بكاء طفل في سن الثانية عشر تقريبًا يرقد على سرير مجاور، بينما كانت الممرضة تخيط الجرح العميق في رأسه، بعد أن إنتهى الطبيب من تنظيفه . سألت شابًا وسيمًا يرتدي معطفًا طبيًا أزرق اللّون عن سبب البكاء الذي يحطم القلب فردّ أن خياطة الجرح تتم بدون تخدير!

لم أستطع النوم في تلك الليلة رغم الإرهاق الشديد من جراء اللّهاث طوال اليوم ما بين مستشفيات المدينة الثلاثة والمركز الاعلامي، ومتابعة المؤتمر الصحفي الذي عقده مصطفى عبدالجليل رئيس المجلس الانتقالي لتوضيح مَهمّة الناتو في ليبيا .

إسترجعت وأنا مستلقية على السرير مشاهد الجرحى والدماء التي تلطخ كل شيء، وثلاثة شهداء نأيت بنفسي عن تصويرهم عندما أُعيدت جثامينهم من الجبهة وهي ممزقة والرؤوس مفصولة عن الأبدان .

أيـن أنـت يـا صـديقي عبـد البـاري عطـوان الكاتـب الصـحفي الفلسـطيني العروبـي المعـروف ورئيس تحريـر جريـدة القدس العربي . أين أنتِ يا صـديقتي فاطمة بن عبد الله الكراي الناشـطة القومية ورئيسـة تحرير جريدة الشـروق التونسـية،كي تشاهدا هذه البشـاعة التي يقترفها القذافي ضد شعبه .هل كنتما ستغيٌران موقفكمـا الرافضـ لتدخّل قوات الناتو في ليبيا يا تُرى لو شـاهدتما ما شـاهدته ؟ إن من يُقتلون وقُطعت أعضـاؤهم إربًا شـباب عربي يتوقـون إلـى الحرية أُجبروا على حمل السـلاح أمـام حرب إبادة تشنها قوات القذافي، فهل تنصران القاتل على المقتول ؟

لقد كتب عطوان مؤخرا قائلا: «سادة حلف الناتو يبالغون في قدرة القذافي وأنصـاره، ويسـتخدمونه كفزّاعة لإرهاب الشـعب اللّيبي وإبقائه تحت سيطرتهم، ولابتزازه للحصول على صفقات تجارية ونفطية خارج نطاق المنافسـة والشفافيّة المشروعتين، الأمر الذي قد يؤدي إلى مخاطر أكبر، تتمثل في تدخلات قوى أخرى ترى إن من حقها أن تحصل على أنصبة متساوية في الكعكة اللّيبية».

ويضـيف: «إن خلفـاء القذافي على وشـك اسـتبدال طاغية محلّي بطغاة أجانب، بقناع إنساني زائف»!!

قارئ ليبي يمضي محمد من لندن كتب تعليقًا على المقال في الموقع الإلكتروني للجريدة :

– سألوا أدولف هتلر عن أحقر من قابلهم في حياته فأجاب قائلاً: «هؤلاء الذين ساعدوني لإحتلال بلادهم»!

أرتجف خوفًا على الشعب الليبي أو من تبقّى منه حيًا كلَما تخيَّلتُ لحظةً إن قوات الناتو لن تتدخل في ليبيا، ربما منتهى الغرابة أن أستعجل هذا الخراب الخارجي على بلد عربي إسلامي وجار لمسقط رأسي تونس وموطني مصر، وأنا العروبية بنت رشيد السلامي الذي يعشق عبد الناصر ويغير على العروبة والإسلام وأطعمنا ذلك في خبزه وقهوته أيام الطفولة . لكن عندما تُحتل غرف الضمير جميعها ويصبح الموت المحقق الحقيقة الوحيدة الباقية فلابدّ أن نعيد التفكير في رفاهية الأحلام لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، فدبابات العقيد تزحف نحو بنغازي لسحق كل ما على أرضها، والحل في فرض مناطق الحظر الجوي لتحول دون وقوع مجزرة الإبادة.

أشعر بألم في صدري الأيسر، أمدُّ يدي اليمنى لأتحسَّسه فأجد نتوءًا متحجِّرًا، فأمد يدي اليمنى إلى تحت إبطي أتفحصه فأكتشف أورامًا صغيرة ومتوسطة الحجم ويصطدم بأصابعي نتوء

ضــخم. أستنجد بسمر وهي ممددة تأخذها غفوة. تجسّني فتتغير ملامح وجهها بمجرد أن تمرر أصابعها على تلك النتوءات، وتطلق صرخة مكتومة : لابد أن نراجع الطبيب فور العودة إلى القاهرة!



الرقص فوق الموت

((الخراب الجميل: أن تصل بخيبتك وفجائعك حد الرّقص...إنه تميّز في الهزائم أيضا، فليست كل الهزائم في متناول الجميع)).

أحلام مستغانمي

هـذا الصـباح داهمني بسـرعة فأفقت قبـل أن أغتنم مـا أحتاجه مـن راحة،فـترك التعب غبـاره على الـحالـة المزاجيّة . الجسـد في باريس لكنّ الـخيال والروح لا يزالان في ليبيا، فرحيل القذافي تأخر وتتحطم على صـخرته الأمواج المحمّلة بالآمال الشـهيّة . ربما لم أفِـقْ من صـدمة القدر بعدُ، ولعل وعسـى يسـاعد اسـترجاع هذه الذكريات في تطبيب الجرح النازف.

أمواج الصدف رمتني على شاطئ القدر

تحكي دموع الحياة ولوعة البشر

ارتجفي ارتجفي يا أوراق الشجر

ليل الشتاء طويل يشعل الضَّجَر

يروي قصص الموتى ويسرق ظل القمر

ليصمت الضجيج والأحلام تنكسر

توجهت إلى المطعم لتناول الفطور، شربت أولاً كوبًا كبيرًا من الماء الدافئ، ثم أخذت أنتقي بعض الأطعمة الصحية المناسبة، حرصا على الالتـزام بما حددته إخصـائية التغذية لأمراض السـرطان . أخذت تفاحة خضراء،ثم وضعت ملعقة من عجينة «الميسو» على كوب من الماء السـاخن وأضـفت عليه ملعقة صغيرة من مسحوق

الزنجبيل وبعضًا من ورق الكرفس الأخضر كانت سمر قد أصرت على وضعها ضمن أغراضي في حقيبة السفر. بدأت تناول الفطور بينما نظرات النادل تراقبني .قد يجد غرابة في إخراج الطعام من جرابي الخاصّ، وفي أثناء ذلك كانت تتابعني نظرات رجل آخر له ملامح التوانسة،وابتسم وأقبل نحوي ليسلِّم عليَّ .

– عسلامة مدام.. آش تعمل هنا ..كمّلت الثورة المصرية واللّيبية؟

تأكدت عندئذ إنه يتابعني من التلفزيون . مددتُ إليه يدي بالسلام وتشجعت لسؤاله :

– أهلاً بك ..منين خويا في تونس؟

من الكاب بون ..تحديدًا من نابل ..

– وأنا من صفاقس،ولكني أعيش في مصر مثلما تعلم .

هكذا رددتُ عليه قبل أن يهم بالحديث عن تغطياتي عن الثورتين المصرية ثم الليبية والتي كانت تبثها القناة الوطنية وكيف أنهم كانوا يحبسون الأنفاس في بيته عندما تعرض التقارير معاناة الجرحى ودموع الأهل على الشهداء والمفقودين.

تبادلنا الكروت . هو صاحب شركة علاقات عامة ونشر. وتركني

أكمـل فطوري وإتجه إلى طاولة كانت تجلس إليها إمرأة تونسـية الملامح جدًا بشعر قصير وبشرة بيضاء وملابس غير متحفظة .

وسـرعان مـا جاءتنـي المـرأة وأخذتنـي بالأحضـان في حميمية تعكس سـعادتها بلقائي موضـحة أن زوجها حكى لها كل شـيء . روت كيف كانت تقلق طوال الليل عندما لا يأتي صوتي أو لا يصل تقريري في نشـرة من نشـرات الأخبار خلال الأيـام التي قطع فيها النظام المصري السابق الإتصالات ونكّل بالإعلاميين،وأوقف البث بالأقمار الصناعية .

-كنا نقلقو عليك ونخافو على سلامتك!

هكذا شـعرت بمشـاعر الحـب والتقدير التي تُرْضـي غروري بين أسرتي التونسية الكبيرة.

تعرفت أكثر إلى هذين الزوجين بلدياتي التوانسة، اللذين تجاوزا السـبعين وتحدثا بأُلفة شـديدة عن مدينة نابل مسـقط رأسهما في الشمال الشرقي للعاصمة التونسية،وعن أبنائهما وأحفادهما التي تحفل حكاياتهما بشقاوتهم .

تأملت وجه العجوز وهي تحكي قصص النوستالجيا إلى الوطن تونس،عـن الأعـــراس والملابس والأطعمـة وغير ذلك من رائحة

البلاد التي تهز البدن بقُشَعْريرة ممتعة، وسرعان ما لفت انتباهي ملامحها الشاحبة، وزنها الخفيف كالريشة من شدة النحافة، شعرها القصير لدرجة غير مألوفة وكأنها حلقته للتوّ بموسى على الزيرو، كموضة الشباب هذه الأيّام.

تسارعت ضربات قلبي،وكأنها تدق على طبل أجوف،إلا من خوف يملأ فرغاته . ذكرتني ملامح المرأة بالمرض اللعين .

قلت في نفسي :

- لوصح خوفي فإنها ستكون صدفة مبالغًا فيها يعني «أوفر أوي» . لكن ارتيابي كان في محلّه . هناك أشياء غريبة تمر في حياة الإنسان يعزوها أحيانًا للمصادفة، ولكنها تشكل منعطفًا مهمًا.

بلغة طبية تنمّ عن طول خبرة مع المرض والأطباء تحدثت السيدة «آمنة بن يدر»عن تطورات مرض اللوكيميا الذي أصابها في الدم، فأخذ ينتشر من عضو إلى آخر في جسدها النّحيل وتضطر في كل مرحلة إلى أخذ جرعات الكيماوي، ثم الإشعاع، وقد مرّ أكثر من إثني عشر عاما منذ أخبر طبيب الأورام في لندن زوجها بأنها لن تعيش أكثر من سنتين على الأكثر، لأن السرطان شرس وفي مرحلة متقدمة،يرتع في جسدها ويفترس دماءها وسيقضي عليها لا محالة!

وتعلّق على السـخافة التي يعيشـها الإنسـان فلا يتعلـم أبدًا من سيرته وسيرة من سبقوه :

- العجيب إن الإنسان لا يستطيع أن يشعر بالسّعادة وهو متمتع بها،ولكنه يبدأ في تذوقها والبحث عن لذتها عندما يُحرم منها لتبدأ رحلة البحث عن الزمن المفقود!

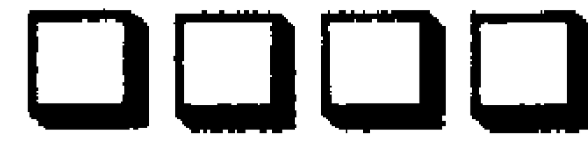
الرائـع في هـذه الشخصـية أنهـا لمّاحة،وجذّابة جاذبيـة البنات المراهقـات، مقبلة على الحياة، كلها حيويـة وزهو وأنوثة،عيناها تلمعان بالأمل الذي يقطر من كل كلمة تنطق بها .

روت السِّـرّ وراء انتصـارها على المرض،قائلة:إنها تشـرب الماء بالقـدر الكافي وبمـا لايقل عن ثلاثة لـترات يوميًا، فالمـاء يجدد كل خلايا الجسم ويخلص الدم من السموم والرواسب ،أما الطعام فلا تتناول إلا القليل منه فقط، ألم يَقُل أحد الحكماء إن أفضل الدواء أن ترفع يدك من الطعام وأنت تشتهيه . أما غذاء الروح فهو السعادة والفرح،وهـي لا تترك مناسـبة دون أن ترقص، أو «تتشـطح» على حـد تعبيرها بالتونسـية الملوّنة بالقـاف والجيم،مثلمـا كان يفعل زوربـا الراقص دائمًا فما وسـع الإنسـان أن يفعل غـير الرقص أو الانفجار!

في الألم كما في الفرح والسـعادة عليك بالرقص، الرقص هو كسـر

للرتابة ومواجهة للألم، لقد نهضتُ ورقصتُ- هكذا يعلن زوربا- فقيل لي مجنون، لكنه كان الرقص، فقط الرقص هو الذي أوقف الألم. هو انعتاق وتحرر وقفز فوق جراح العمر. وفي رقصة زوربا تندمج الثنائيات ..انتصارا لثنائية الجسد والروح، فالرقص هو تمرين على لغة لا يجيدها إلا جسد متوحّد بالروح ..

الرقص هو الحُلْم الذي حلمت به ألف عام يكذّب نبوءات الموت، لولاه لكانت السيّدة آمنة في عداد الأموات من زمان!.



دخلت إلى كافتيريا صغيرة في مطار شارل ديغول بعد إعلان تأخير الرحلة، وبحثت عن شيء أشتريه لإسكات زقزقة الأمعاء التي تطلق صيحات الاستغاثة من شدّة الجوع الذي يضيع مؤشرات العقل .

هناك عصير جزر وعصير تفاح ولا يبدو بين المشروبات المعروضة اختيارغيرهما، بعد أن أصبحت قائمة التغذية محدودة بالنسبة لي ولم أجد شيئا من المأكولات المسموحة إلا سلطة خضراء،فرحت بها كما يسعد الطفل بقطعة حلوى . قررت أن أتناسى هلع الناس من بكتيريا إيكولاي المنتشر في أنحاء أوروبا هذه الأيام، وتوكلت

على الله ونبهّت نفسي مثلما أنبه أطفالي بضرورة أن أقول بسم الله قبل أن أتناول السلطة .

وما غاضني أكثر من الخوف من إيكولاي، سعر طبق السلاطة الذي زاد بمقدار الضعف عن المعتاد،عكس ما تعلمته في كلّ دروس الإقتصاد عن العلاقة بين الأسعار وقانون العرض والطلب في النظام الرأسمالي، فمن المفترض أن ينخفض السعر جدا مع تراجع الطلب على الخضراوات. ولم أستطع أن أفهم لماذا لم تنقلب القاعدة !

الفرنسيون مصابون بداء الوسوسة من الطعام، وهم الآن متوجسون بفزع غير مسبوق تجاه كل أنواع الخضر والفاكهة الطازجة بل واللحوم النيئة، خوفًا من انتقال عدوى بكتريا إيكولاي إلى منتجات أخرى. التقارير التي تنقلها وسائل الإعلام تزيد من الهلع، تشير إلى إرتفاع الإصابة لما يزيد على ألفين ومائتي شخص في اثنتي عشرة دولة، ويوجد في ألمانيا العدد الأكبر منهم .

في كل زيارة لي إلى بلد أوروبي كنت أحرص على القيام بجولة في السوق المركزية وأعتبر ذلك في صدر الأولويات السياحية، حيث أستمتع بالألوان الجميلة للخضر والفاكهة والرائحة الجذابة والنظافة الفائقة،وكل تلك المميزات نحن محرومون تمامًا من

التمتع بها في الأسواق المصرية الفوضوية ذات الرائحة الكريهة. سألت بائعًا عجوزًا يبيع الخضر والفاكهة في إحدى الأسواق الباريسية الصغيرة، عن مدى تأثير الإيكولاي على مبيعاته من الخضر، التي كان شكلها ولونها يغريانني بالشراء، فأجابني بفرنسيّة بها لكنة أهل المغرب:

– خضري بما في ذلك الخيار طازجة وزبائني عندهم ثقة في بضاعتي،وما يحدث مؤامرة .. لا يوجد أي مكروه في البضاعة. ذكّرتني إجابته بمربّي الفراخ في مصر على إثر انتشار إنفلونزا الطيور حيث كانوا يرددون إن هناك مؤامرة من الحكومة ضدهم لصالح مستوردي الفراخ من الخارج .

كثيرًا ما صادفت خلال الأيام الماضية وأنا أتجول في شوارع باريس مزارعين وموردين للخيار، وهم يتجولون بكرتونتهم ويأكلون خيارهم أمام الناس لبعث الطمأنينة فيهم،قائلين إن الخيار الفرنسي ليس به شيء . فقد تكبّد هؤلاء خسائر بالملايين نتيجة إعراض المستهلكين عن شراء كل أنواع الخضر بل والفاكهة وليس الخيار فقط. وتمتلئ تعليقات عرب فرنسا بالإيحاءات الجنسية من مشاهد السائرين في الطرق كلّ بخيارته!

أما الإعلام الفرنسي فهو لا يكتفي بالولولة والصراخ والفزع؛ ولكنه

يقدم أيضًا برامج وموضوعات يقترح فيها حلولاً كثيرة عن كيفية تجنب إلتقاط العدوى .وتحفل الصحف والبرامج بموضوعات عن بكتريا إيكولاي تشرح بتبسيط كيف تعيش في معدة الإنسان والحيوان،وكيف أنها غير مؤذية في العادة،غير أن بعض سلالات منها قد تكون تحورت لأسباب مازالت مجهولة،فأنتجت نوعا من السموم التي تصبح مميتة إذا لم تُعالج في مراحل مبكرة . وتنتقل العدوى إلى الإنسان بعد تناول خضروات طازجة كانت مزروعة في أرض ملوثة، أو تمّ ريّها بمياه ملوّثة بالبكتريا،أو ربما إذا كان قد تناول لحومًا نيِّئة . لذلك في مقدمة النصائح طبخ الخضر واللحوم قبل تناولها، بما في ذلك طهي الخضر المستخدمة في السلاطة لمدة دقيقة واحدة والتخلص من قشرتها الخارجية،ثم الحرص على النظافة كغسل اليدين مرارًا خاصة بعد استخدام الحمام،وبعد تقطيع اللحوم،والخضر والحرص على عدم إستخدام نفس السكين في تقطيع اللحوم والخضر،وأيضًا الحرص على غسل الأيدي بعد تغيير حفاضات الأطفال .

وهناك قائمات للتوعية تحوي بعض التوجيهات تجدها ملصقة في محطات المترو . وهناك نصائح موجهة للعاملين في العربات المخصصة لنقل البضائع للمحلات،وأخرى لأطفال المدارس وملاحظات حول الأكياس المستخدمة في تخزين المنتجات الغذائية

وضرورة غسلها قبل استخدامها، حتى لو كانت جديدة ولم تُفتح من قبل .

تواجه المجتمعات الغربية مثل هذه الأزمات بالشفافية الكافية، فالمواجهة تعتمد بإستمرارعلى حق المواطن في المعرفة ومازالت الثقافة الصحية في مصر بعيدة تمامًا عن الثقافة الفرنسية مثلاً، والأهم إن لديهم منظمات وجهات رقابية وظيفتها التأكد من سلامة الغذاء،لكننا في المقابل ظللنا في مصر بدون هذا الجهاز بل ومحل خلاف حول تبعية هذا الجهاز بين وزارتَي الصحة والتجارة والصناعة لأي منهما، فيما ظلت غرفة الصناعات الغذائية باتحاد الصناعات المصرية تطالب بأهمية استقلاله عن أيِ وزارة والدفع إلى أن تكون التبعية لمجلس الوزراء.

وبعد ثماني سنوات من الرفض والتعطيل والتسويف، وافق مجلس الوزراء بعد ستة أشهر من قيام الثورة على مشروع قانون جديد بإنشاء الجهاز بتبعية لمجلس الوزراء .

وسلامة الغذاءلا تعني شكل الطعام ولونه ورائحته ولكن تعني سلامة عمليات تصنيع الغذاء وتخزينه ونقله، وهي في مصر غير آمنة بالمرة،والكارثة إن المسئولين يعلمون ذلك ويتواطئُون ليظل «حانوتية» أغذية الموت يطرحون الأغذية الفاسدة بالأسواق على

أساس أن معدة المصـريين تهضم الزلط ويحاكم بقانون الطوارئ كل صـاحب رأي حـرّ لمجرد إنتقـاده للنظام، بينمـا لا يُطبق قانون الطوارئ على من قتلوا شعبًا !

لقـد تفشـت الأمراض الناتجـة عن تسـمم الغذاء، ومنها الفشـل الكلـوي والكبـدي والسـرطانات المختلفـة التـي تصـيب الأطفال والشـباب قبـل الكبـار، فقـد انخفـض المعـدل العُمْـري للإصـابة بالسرطانات في مصر من ٥٠ سنة إلى ٣٠ سنة، وهو فاجعة كبرى لا تخدم إلا مصلحة الـ٤٪ من العواجيز الذين يأتي منهم حكامنا!!



«شلُّوت» الضمير!

في قلبي فرحة ..وضمير يكفيان الإنسانية!

العاصمة البرتغالية لشبونة مبهرة نَديَّة تغوي شوارعها على السير لساعات دون ملل .سرحت في الملكوت أتأمّل بهاء الله. كل شيء منظم باحتراف ويؤدي دوره في المنظومة الكونية .

الطبيعة خلابة، والبحر يتخذ ألوانًا مختلفة عند حافات المحيط حيث تحتفظ الأمواج ببرودة منعشة عشية الاحتفال بعرس الصيف، وذوبان الجليد أعلى الجبال لتنساب تغسل دموع الأرض والأشجار بعد انقضاء فصل كئيب .المياه تتدحرج بسرعة فتنقش درجات على السفوح كأنها سلالم من الفسيفساء أتقن رسمها مهندس معماري بارع!

كم أتمنى أن أمتلك من الشجاعة ما يكفي لأفعل ما فعله بودلير عندما بنى كوخًا غريبًا في قطعة من أرض بعيدة لا سكان فيها، أبعد من تخوم الرومانسية المعروفة، حيث تُقرأ أشعار إدغار بوو وكان سعيدًا لكونه ارتكب صنعًا مستحيلاً؛ حيث كان يسود الإعتقاد أنه ليس هناك من يستطيع الذهاب إلى ذلك المكان ..

هل باستطاعتي بناء كوخ فوق هذه الأرض العامرة بالخضرة والهواء وعصافير الجنة على شاطئ الأطلسي ؟

إن بعض الأحلام ترنو إلينا كالمستحيل فيرموننا بالجنون، غير أن الحلم يبدأ مستحيلاً ثم يولد في لحظة نورانية تتجمع فيها كل الإرادات .

ولا أدري لماذا جلب كل هذا الإبداع والجمال فيضًا من العَبَرات انسابت من عيني هادئة ساخنة في البداية، ثم أصبحت صاخبة حارقة وكأنها الرذاذ الذي يشتد مع العاصفة فيصبح مطرًا غزيرًا.

ما كلّ هذا الحزن ولماذا هذا الصراع الأبيقوري يسيطر على عقلي وروحي، بينما أتظاهر بأني فوق المحنة وأنها لم تُصِبْني بأي نوع من الحزن أو حتى الوَهَن أو الغُصَّة؟!

إعتقدت أن استجابتي إلى دعوة لحضور مؤتمر إقتصادي في لشبونة سوف تنتزعني من أنياب الألم وتدخل عليَّ بهجة الترحال قبل أن أخضع لجلسات الكيموثيرَبِي المدمرة؛ ولكن عقلي أبَى إلا أن ينغمس في عمليات حسابية شاقة على النفس :

كم ياتُرى باقٍ لي من العمر بعد هذا السرطان اللعين، وهل سوف أُشفى مثلما قال الأطباء ؟

وأعاود التفكير، والقلق يدمرني، فأتساءل :

هل سيمهلني الله من العمر حتى أفرح بأولادي سمر ومحمد، وبنات أختي إكرام -رحمة الله عليها- أمل وأنس، ولو أمهلني فكم ستكون ..سنة.. اثنتين ثلاثة.. أم أن عدّاد الأيّام بدأ يعدُّ عكسياّ!؟.. هل هذه الأسئلة تُخْرجني من عباءة الإيمان وطاعة الله وتجعلني أكفر بقدرته ؟!

..هل بدأت أُخرِّفُ أم أنه إضطراب أمام سلطان الموت، والرعب أمام هوّة العدم؟!

أمضيتُ عقدا ونيِّفًا وأنا أشعر بالخوف، بل كان هلعًا من احتمالات الإصابة بالسرطان مثل الراحلة شقيقتي إكرام –رحمها الله، وحاولت تعديل الكثير من نفسي من تلقاء نفسي منذ رحيل شقيقتي، فأستبعد مأكولات كثيرة قد تساعد على ظهور الأورام وأحرص على أكل أطعمة من مُكَوِّنات الشعير والقمح الصلب والبرغل،وأستخدم زيت الزيتون ومنعت السمن تماما من مطبخي وحاولت تجميل بيئة العمل بتقليم أظافر الضغوط وتخفيف الإرهاق بقدر الإمكان، بأن أسبح دائمًا في بحر الحب، أحبُّ ما أعمل وأستمتع به،فأتشوّق دائمًا إلى ما أحبّ لكن مهنة الإعلام تغتصب المتعة،وتجني على الحبّ .فهي تعاني مشكلات تجعل كل عشاقها يلعنون سلسفين أُمّ المحبة التي أسرتهم في شباكها، فالوصول إلى المعلومة وشخصنة القضايا يهزمان الاستعداد للتفاهم المثمر في مواقف الصراع اليومية، فتتحول المنافسة إلى توتر وشد وجذب ومعارك شخصية .

وحرصت على الدوام أن أقي نفسي أعراض الأمراض الصباحية بأن أهمس بالجوانب الإيجابية وأبتعد عن الجوانب السلبية مع

فتح العينين عند إشراقة اليوم..فأتفادى الردّ على التليفونات الصباحية من أي شخصية نكدية تتعود أن تلقي ملح انكساراتها وترسّبها في أعماق الآخرين، وما إن تفرغ من التخلص من شحنة التنغيص لديها حتى تستيقظ كل حماقاتي لتعصف بما تبقّى من شذوات السَّكِينة النائمة في أرحام الأحلام .

فعدوى النكد أسرع من عدوى الأنفلونزا،ولأن السعادة لا تأتي إلا لمن يحلم بها، فإن الواقع العربي يداهم الأحلام ويحولها إلى كوابيس مكدرة ، فكيف السبيل إلى أن يزورنا الفرح وأن نطرد الكوابيس ونطهر سماءنا من إدمان الانكسارالعربي اللعين ؟!

لابد أن أدير ظهري للأمس وأزرع الغد بالأحلام فتورق شجرته فرحا وحرية تظلّل الأفكاروتنعشها،ألم يَقُلْ بالزاك: فكّر في الغد، فالأمس قد مضى،واليوم يوشك على الانتهاء .

سأظل أبحث عن الفرح فهو قمح الغد ومحصوله،وأقتنص رشفات الأمل والمرح لأنها تشحذ الهمم بالطاقة الإيجابية وبالإرادة التي تُحَقِّق المستحيل، سأغيّرعنواني حتى لا أتلقّى أية رسائل حزن من إمبراطور جبّار مستبدّ تخصص في صناعة قبور الخراب الذي تُدفن فيه الصباحات الجديدة والأحلام والأمنيات.

كنت أدرّب النفس من خلال عملية واعية ومقصودة على

مضـادات الاكتئـاب، وأحرص علـى أن أحيطها بأجـواء فرائحية فأنظـم حفلات فنية أدعو فيها الأصـدقاء فنغنـي ونأكل ونتناقش، ونمارس الفرح ونقتلع التكدير من بسـاتيننا ..وكأنما كنت أُؤَجِّل المكتوب الذي لابدّ أن تراه العين .

الوعـي لا يفلح في إيقاف القَدَر، بل المعجزات فقط هي الرحمة له. نفـذت تلـك الحكمة الشـعبية في طالعي «اللي يخـاف من العفريت يطلـع له»،فالحزن كان يختبـئ على كتفي وغيومه دَكْناء السـواد تطفئ شموسي .

شـعرت بألم في عقلي المعذب بجَلْد الضـمير، حاصـرتني السياط والسيوف وأخذت تربك أفكاري وتتهمني بالإجرام في حق نفسي .

صـوت ظـل يعذبنـي أيامًـا وليالِيَ،أسـدّ أذني حتى لا أسـتمع إليه ولكنَه لا يصمت بل يتغلغل بداخلي ويقوَى، ويظل يعذبني بإلحـاح ناخرًا في عظمي سوس الإحباط والهزيمة:

-لقد فشـلت في تغيير مجرى حياتك،عصـبيَّتك الشـديدة هزمتك وبُعْدك عن أهلك جعل السـكينة تتآكل إلى أن تحولت إلى كتلة من القلق المارد، إذ كيف للإنسـان أن يكون هادئًا متوازنًا وهو يصارع أمـواج بحر غير بحره ويزرع بـذورًا في أرض خارج بيئته .ها أنتِ قضـيت ما مر من سنوات تكافحين..وقاسـيت من أجل ماذا؟.. من

أجـل النجاح بامتيـاز طول الوقت ؟ ومن يظـل ناجحًا طول الوقت ..في البيت وتجاه أفراد الأسرة ..وفي العمل وتربية الأبناء وتَحمُّل مسـئولية تعليمهم وإتقانهم الخبرات الحياتيَة الأساسـية وتعلُّم اللُّغات وصقل مواهبهم؟؟. لابد من تذوّق طعم الفشل أيضًا!

كان مُهمًّا الإيمان بفكرة تأسـيس الشخصـية منذ الصغر بمبادئ وقيـم إنسـانية راقية،فتربيـة الأطفال مثل تشـييد عمارة شـاهقة لابد أن تكون قائمة على أسـس صـلبة وأبعاد معمارية صحيحة، زراعة الطموح ورَيِّ الأحلام بمياه الإرادة وقيمة العمل والاجتهاد وإعـلاء القيم حتـى تكون الدافـع والحكم حين يغيب صـوت الأم والأب ولايبقى إلا صوت الضمير.

كل ذلك كنتُ أنحته في شخصية الأبناء كما تُنحتُ التماثيل فتظهر أبعادهـا الجمائليـة تدريجيًـا . وتلـك مهمـة الأُمّهات في أوطاننا، والنتيجـة أنَّهـم كَبِروا وتميَّـزُوا ويتابعون حياتهـم ونجاحاتهم؛ ولكنك لن تتمكني من رؤية الورود وقد أينعت ومتابعة الوقوف إلى جانبهم والاستمتاع بالحصاد بعد البَذْر، سوف تختفين في لحظات قادمة،حينمـا يحـين الأجـل، فالسـرطان لايرحـم، وفي الغالب لن تستمتعي بأيٍّ من تلك النجاحات للأبناء، إنها حصيلة ناقصة: أين كانت نفسك وأين أصبحت، لقد قصرتِ معها.. لم تحبيها بما يكفي

وإلا لحافظت عليها أكثر،ربما كسبت أشياء، لكن خسرت الصحة!! أسرعتِ الخطوات إلى النهاية المبكّرة ..إصابة بالسرطان اللَعين الذي زحف متسلّلاً مع الضغوط والتوتر،وعندما يدخل المرض الخبيث بدون إذن من باب الجسد،تُودِّع الصحة والسَّكينة من شبابيكه .

تأنيب ووخز كالإبر المسمومة يدمّرني،وتزيد من إضرام النار في حطب روحي كلمات إخصائية التغذية التي لجأتُ إليها لتساعدني بوضع نظام غذائي مناسب لمريضات سرطان الثدي،صفعتني عباراتها وهي تكشف بالعدسة المكبّرة الموجّهة إلى قاع العين على طريقة من تقرأ الطالع،قالت :

- تعرضتِ لأزمات صحية في السابق لها علاقة بالمناعة، وكانت قرصات وذن أما الآن فأنت تأخذين بالشّلّوت!.

أذهلني التعبير القاسي الذي استخدمته بدون إكتراث لوقعه السيئ على معنوياتي، فانفجرت باكية كطفلة تعفّفت عن الشكوى وفجأة وجدت أمّها فبكت بعتاب وهي ترتمي في أحضانها،وكأن كلام إخصائية التغذية صادف هواجسي وجَلْدي لذاتي متهمة إياها بالتقصير نحوها فيما مضى من حياتي.

الدكتـورة هيـام مـن دعاة محاربـة النظـام الاسـتهلاكي الغربي وهـي تحاربه مـن داخلـه كمواطنـة أمريكية،ونقلت هـذه العلوم المعرفية إلى مسقط رأسها . فهي تشن هجومًا على فلسفة الجبابرة الرأسماليين الذين يشيِّئون الإنسان ويحوّلونه إلى أداة يستخدمها إقتصاد السوق في إطار تنميط البشر ومهاراتهم بصرف النظر عن الأبعاد الروحية والقيمية، وجرى عبر عقود من تفشي هذا النظام الأخطبوطي تحويل العلاقات بين أفراده إلى علاقات تعاقدية باردة خالية من التراحم.

فاجأتنـي الدكتـورة هيام مجددا بعـد أن بدا علـيَّ الكَمَد، فغيرت مجرى الحديث قائلة:

- سـتوب بريديكشـن ..توقفي عن التوقعات .. وارفقي بنفسـك قليلاً!

كـررت هذه النصـيحة عدة مـرات بالإنجليزية لكـن بعدما كانت اللكمـات قـد أطاحت بي . نفس هذه الكلمات سـبق أن سـمعتها من الصديقة منية عمّار.

كانت الجلسـة مع منية -وهي قاضية تونسـية- ومع أصدقائها القُضـاة المصـريين والعرب ممتعة، تنفض الصـدأ عن المشـاعر،

وتجدّد الحيويّة الإنسانيّة ..كانت منية حريصة على الاتصال عندما تزور القاهرة لتحديد موعد للقاء عادة ما يكون في نهاية يوم عمل طويل بالنسبة لكلتينا حيث كانت مكلَفة بمَهمَّة لدى وزير العدل، وتشارك في ورشات عمل قانونية وحقوقية على المستوى العربي تقيمها جامعة الدول العربية .

ورغم الإرهاق الذي كان يبدو عليها إلا إنها لم تكن تفوِّت فرص السَّهر للدردشة والمرح. وكنت شغوفة بجلسات منية خاصة لأنها تتيح وجبة روحية دسمة متنوعة المشارب الثقافية، تشترك في إثرائها الصديقة مفيدة الزريبي الدبلوماسية في سفارة تونس بالقاهرة التي يضفي حضورها بهجة وعمقا لأي حوار، وإنصاف وهيبة الباحثة التي تحضر رسالة دكتوراه عن السينما الدينية التي تفتح بدورها آفاقًا رحبة من خلال تجربتها الثرية في الحياة المتنقلة بين تونس وفرنسا ومصر، إلا إن كثرة المشاغل لم تكن لتتيح لي الاستجابة لتلك المواعيد إلا نادرًا. وهذا ما جعلها تنبِّهني إلى تقصيري تجاه النفس .

- حِبّي روحك يا عزيزتي، ما تستخسريش فيها حاجة !

كانت منية مؤثرة في محيطها، تتقن الحوار وتجيد الإقناع حول حقوق المرأة والتشريعات الضرورية للحفاظ على تلك المكاسب

من هوى الحكّام والمستبدّين والمتطرّفين، غير أن الموضوع الجدلي في هذه الجلسات غالبًا ما يجذبه زملاؤها العرب إلى أرضية الدين وما يحرِّمه وما يحلّله،فتتحول النقاشات إلى خناقات حماسية وتنقسم الجلسة إلى معسكرين،الأول مع حرية المرأة وحقوقها بلاحدود وتتزعمه منية طبعًا، والثاني ضد إعطاء المزيد من الحقوق للمرأة ويدافع عن هذا الرأي عدد من الشباب من دول الخليج العربي خاصة وأحيانًا ينضم إلى الجلسة وجه جديد من اليمن أو من لبنان أو الأردن، وعادة ما يميلون إلى معسكر حقوق المرأة التي ترفع منية شعاراته، فيلتهب النقاش بين المعسكرين.



الغذاء قبل وبعد الدّواء

خَتْفُ المرء ... بين فكّيه

مَثَل عربي

بدأت على الفور ريجيمًا غذائيًا خاصًــا بمرضى السرطان بعد أن إقتنعت أن الدواء وحده لن يكفي .زرت الدكتورة ريهام في عيادتها قبل أن أُجري العملية الجراحية،وأثرتني الزيارة بالعلوم الغذائية التي تنفع أن تكون دليلاً دائمًا للصــحة . فلابد من تناول المنتجات التي توقِف إنقســام الخلايــا وتحولها إلى ســرطانية، ويعتمد هذا النظـام الغذائي على عناصــر بســيطة مـن الخضــراوات كالجزر والقرع والجنزبيل والكرفس والجرجير والفقوس (الخيار)، ويتم تناولها بأي شكل تقبله النفس وتشتهيه مسلوقا أو أخضر طازجا، مــع الامتنــاع تمامًا عــن تنــاول البروتينــات الحيوانيــة فيما عدا الســمك وبيضة واحدة أسـبوعيًا، وتعويضــها بالبروتين النباتي مثل البقول وأهمها الفول الصــويا، والنشــويات مثــل الأرز البني والمكرونة البنية والقمح والبرغل والشــعير بحيث تكون محتفظة بقشــرتها وكذلك الشــأن بالنســبة للســكر فالقليل من السكر البني كافٍ. ويمكن أخذ الســكريات مـن الفاكهة الطبيعيــة مثل الجوافة والتفاح والكيوي والابتعاد عن الملح وتعويضـه بالليمون.

هــذه الحميــة لا تهدف إلى إنقاص الوزن وإنما إمداد الجســم بما يلزمــه مــن أليــاف وفيتامينات،والابتعــاد عــن المواد التــي تغذي الخلايا الخبيثة والأورام . قبل المرض كنت أجهل معلومات كثيرة عن التغذية الســليمة، كما أني اكتشفت الكثير من الأفكار المغلوطة

والسلوكيات الغذائية السيئة، نتيجة التنميط الذي حدث للثقافة الغذائية للبشرية جمعاء،فقد ابتكر النظام الرأسمالي استعمارًا جديدًا براقًا يخفي عدوانيته وراء المنتجات والإستهلاك، ويدخل إلى جيبك ويستعمره فتفقد السيطرة على قرارك .وهكذا أصبح آخر طموحاتنا استجداء أن تكون الرأسمالية أكثر إنسانية بعد أن تفحّشت في كسر عظام الضعيف وابتلاعه والاحتفاء بالفشل وكأنها تحتفي بالنجاح على قدم المساواة،وقد صنعت له تنظيمًا هرميًا تُصنَّف فيه الشّركات التي تخسر في الصراع القاتل على الأسواق والمستهلك، فتنهار وتُطرد من السوق وتنضم إلى هرم الفشل !

لقد أضحى المستهلك الضحية الكبرى في صراع الشركات على أكبر نصيب في الأسواق،وكان من الطبيعي في جو الصراع أن تُحارب ثقافة التفاحة والبرتقالة والجزرة،وكافة الخضر التي تزرع في أرض على بعد خطوات من أسواقك لتترك مكانها لثقافة الهمبرجر والوجبات السريعة المليئة بالدهون ومكسبات اللون والطعم والرائحة، والمعلبات التي تُستورد من آخر بلاد العالم فيملئُوها بالمواد الحافظة لتقاوم عفن الزمن .

ولابد من الاعتراف إني قد قصرت فيما مضى بإهمالي هذه المعرفة بثقافة الغذاء البديل وخسرت خسارة لا تعوض، لأن الحفاظ

على صـحة السـليم المعافى أسهل بكثير من تدارك ما فات المريض مـن صـحة،كما إن تغيير العـادات الغذائيّـة الخاطئة،قبل دخول الأمراض إلى الجسـم، أسـهل من مقاومـة عدوانهما معًا؛ كم كنت أتمنـى لو جعلت في صـدر الأولويات البحث عن التغذية السّـليمة فيما مضى من عمر!.

ورغم نفوري من أسـلوب إسداء النصائح، فهو ثقيل على القلب، إلا أني كنـت أتمنّـى لو صـادفت من غمـرني بهذا الفضـل لأنه عماد الوقاية من مرض السـرطان، لذلك فأشـعر بأهميـة وإلحاح تقديم بعض النصـائح المهمة حتى لا تفوت الفرصـة على مريض محتمل علّ وعسـى تتحقّـق الإفـادة والوقاية له، ويسـتطيع قبـل فوات الأوان أن يتجنّـب سـوء التغذيـة ويُقْبل على المنتجـات التي تفيد الجسم وتقوّي المناعة .

فالتمتـع بمناعـة جيـدة والحفـاظ عليهـا أمـر جوهري لمرضـى السرطان، وهذا يستلزم الأكل الصحي واتباع عادات سليمة .

ولابدّ أن يكون المريض طبيب نفسـه فيحرص على أكله المناسب فالطبيـب لدينا لن يقول لـه كُل هذا وامنع ذلك، لأننا لم نصـل إلى مسـتوى الخدمات الصـحية الموجودة في أوروبا أو أمريكا، حيث يبتكرون الأدوية ثم يبتكرون أمراضـها، ويحاولون أَنْسَنة النظام

المتوحّش وتقليم مخالب الرأسمالية عن طريق توسيع مظلة التأمين الصحّي لتشمل كافة تكاليف الأدوية مرتفعة الثمن وكل أنواع العلاجات الكيمياوية والنفسية والتكميلية والغذائية؛ فيمر المريض على هذه العيادات في نفس الوقت حتى يتكامل العلاج، فالمعادلة المتوازنة تقوم على أذرع ثلاث :الدواء، الصحة النفسية، والتغذية السليمة.

وهذه المعادلة رغم اعتراف الأطباء المتخصصين في علاج الأورام بأهميتها، إلا إن بعض الأطباء في مصر لا يعيرونها الأهمية المناسبة لقلة الإمكانيات أو لقلة الوعي، أو لأهداف تجارية مصلحية، فعندما يزداد الوعي وتقلّ الأمراض تتراجع مبيعات الأدوية ومداخيل الأطباء والمستشفيات. لذلك فسيظل الصراع على أشدّه في العالم بين لوبيهات الدواء والنبلاء المبشرين بفلسفات وعلوم الحياة. ويدفع تجار الموت الأموال الطائلة لصناعة الأمراض والحروب حتى تتضخم أرباحهم.

وقد صدمتني طبيبة -لا أتذكر اسمها- في مركز شهير لعلاج الأورام في منطقة مصر الجديدة كنت قد ذهبت إليه في بداية إصابتي بالمرض رغبة مني في تنفيذ بروتوكول العلاج داخله، عندما استخفت بالريجيم الغذائي لمرضى السرطان ووصفته

بالـكلام الفـارغ، وذلك تعليقًا علـى إخباري لها بـأني أتلقى ريجيمًا خاصًا تسـهر عليه الدكتورة إخصائية التغذية لمرضى السرطان، وسـردت لها تفاصـيل الريجيم مثل تناول شربة الميسو بشكل دائم مرتين يوميًا، وهو عبارة عن خليط من الفول الصـويا يضاف إليه الزنجبيـل وتوابل أخـرى، ولم أكد أكمل المعلومـة حين قاطعتني ..وهات يا تسـفيه في الجدوى، ولما ذكرت لها وجود عشرات الكتب العلميـة المؤلفـة في أمريـكا عن غـذاء مرضـى السـرطان منها من ألَّفها أطباء أُصـيبوا بـالأورام، انهالت بالنقد على هذا التوجه بكل تشـدد وشراسة، فهي لا تراه علاجًا أصـلاً، إضافة إلى أنها خافت من احتمال التعويل على تلك المدرسـة والارتكان لعلاجاتها .. ولم أسـتطع أن أقنعها، واكتفيت بأن قلت لها إني حزينة لكفرها بجدوى العلاج التكميلي عن طريق الغذاء والأعشاب.

قـد يكون لدى الطبيـب في أحيان كثيرة قرار بعدم الإقتناع إلا بما درسـه وتعلّمه،ويقف محلك سـر فلا يوسّـع أفقـه، ويمكن أن يكفر بطبيب زميله قدم شـيئًا جديدًا، من باب صـاحب مهنتك عدوك أو كمـا يقول المثل «عدوك ابن كارك» . ووجدت نفس هذا الموقف لدى طبيـب الجراحـة تجاه طـب التغذية أو كما يسـمى الطـب البديل أو التكميلـي . ويذكّـرني هـذا الموقـف بالخـلاف التاريخي الشـهير بـين علماء الرياضـيات والفيزياء والكيميـاء والطبيعة أي العلوم

الصحيحة، وبين علماء الإنسانيات مثل علم الاجتماع والنفس والتاريخ، وهذا الإنكار والتجاهل يعود غالبًا إلى تعقد الظاهرة الإنسانية التي هي موضوع الدراسة، وبالتالي عدم التوصل إلى نتائج متماثلة ومنتظمة، بل كلما زاد تنوع النتائج زاد ثراء العلوم الإنسانية .

ولم تتخذ العلوم الإنسانية مكانتها في الجامعات والمراكز البحثية إلا في وقت متأخر مقارنة بالعلوم الصحيحة. وهذه النزعة التشكيكية في جدوى العلوم «غير الصحيحة» مازالت منتشرة في عالمنا العربي،حتى داخل الأوساط الأكاديمية لدرجة أن بعض العلماء العرب هم جهابذة في الاقتصاد أو الرياضيات أو الفيزياء أو الطب أو... لكنهم لايعترفون بالعلوم النفسية ويسخرون لو علموا إن أحد أقربائهم أو طلبتهم لديه الرغبة في إستشارة طبيب نفساني، وقد لا يبدي نفس الإنكار والتشكيك أو المقاومة إزاء مشعوذين يدّعون العلاج بالقرآن من الحسد أو من الجن والشياطين الذين يتلبّسون العقول الجاهلة والمريضة!!

وموقف الاعتراض على علمية وموضوعية العلوم الإنسانية نشهده مجددًا تجاه ما يسمى بالطب البديل والتكميلي وطب الأعشاب، ولا مناص من أن ينتقل قريبًا ذلك النقد والتشكيك

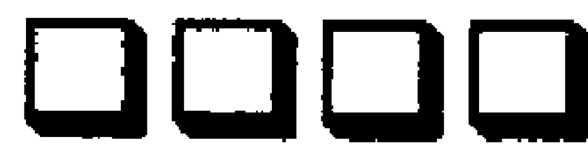
والاعتراض إلى إعتراف مع بدء دراستها في بعض كليات الطب. لتتحول العلاجات التكميلية والطب البديل وطب الأعشاب تدريجيًا إلى فرع من فروع الطب قد يدرس في جميع كليات الطب في العالم، حينئذ قد تلقَى هذه المعرفة ما تستحقه من الإعتراف مع فهم خصوصية موضوعها...هذه أمنية تراود علماء يزداد حماسهم يوما بعد يوم،وتظهر بوادرتحققها مع انتشار الوعي بأهميتها في وسائل الإعلام وزيادة قناعة الأطباء بأن تناول الدواء غير كافٍ، فالغذاء الصحي السليم إضافة إلى الأعشاب التي تحسِّن أداء الجسم مع توفير الظروف النفسية الملائمة، تتعاون جميعًا لتحقيق الشفاء .

وسواء استلزمت الأورام السرطانية تدخلاً حتميًا جراحيًا لاستئصالها،مثل أورام الثدي والرحم وغيرها، أو لم تستلزم ذلك فإنه في كل الحالات لابد من العلاج الكيماوي .

ويعتبر هذا النوع من العلاج اليوم أهم الوسائل لعلاج الأورام، حيث يقوم بتدمير الخلايا السرطانية الموجودة فى الجسم وخصوصا المتبقية بعد عمليات استئصال الأورام، وإيقاف أو إبطاء نمو هذه الخلايا السرطانية لمنع المزيد من انتشار السرطان إلى أجزاء أخرى من الجسم . ولكن العلاج الكيماوي يؤثر أيضًا

على بعض الخلايا السليمة وتشمل الخلايا التي قد تتأثر أكثر من غيرها بالعلاج الكيميائي مثل خلايا النخاع العظمي والفم والمعدة والشعر، ومن مظاهر تلك الآثار الجانبية سقوط الشعر وتكسر الأظافر وتبقع الجلد والبشرة والتهابات اللثة وآلام المعدة وغيرها، إلا إن ذلك يتحسن مع مرور الوقت وتخلص الجسم من تلك المواد حيث تقوم الخلايا السليمة بإصلاح نفسها بعد نهاية العلاج..

وغالبًا ما يستخدم للعلاج «نظام» أو ما يسمى بروتوكول علاجي، ويتكون من أكثر من نوع من تلك العقاقير الكيماوية، ويتحدد ذلك البروتوكول وفقًا لنوع الورم ومرحلته ويُعرَف ذلك بدوره من خلال التحليل الباثولوجي، ويتلقَّى المريض ثلاثة أنواع من العلاج - جميعها أو يتم الاكتفاء بواحدة أو إثنين - ومرة أخرى يتم تحديد ذلك بعد التحليل الباثولوجي،وعادة يكون العلاج الكيماوي هو البداية على أن يتبعه العلاج الإشعاعي، ثم ينتهي بالعلاج الهرموني الذي هو عبارة عن أقراص يتم تناولها لعدد من السنوات يحددها الطبيب المعالج، وقد يُستغنى عن أحدها.



تلقيت أول قرار بالحرمان من اللّبن ومشتقاته عبر الهاتف،من طبيب أقتنع بكل كلمة يقولها وهو شقيقي وسيم، فبمجرد علمه

بمرضي طالبني بضرورة الامتناع فورًا عن تلك الأغذية واكتشفت أن عددًا من الأطباء في تخصصات مختلفة مقتنعون بهذه الحقيقة.

وبالمثل عند اللُجوء إلى إخِصائية التغذية لاتباع الريجيم المناسب لمرضى السرطان كان أول الممنوعات التي شددت عليها أيضًا منع الألبان والأجبان، وعندما سألتها عن الجبن القريش والزبادي وكلاهما مفضلان لدى المرضى جميعًا، ردت بكل حسم واستنكار:

- ..وهل الجبن القريش والزبادي موش من الألبان والا إيه؟!

يجب الإنتباه من أخطاء يرتكبها بعض المرضى يكثرون من تناولِ الألبان والأجبان، ظنًا منهم أن من شأنها تحسين حالتهم الصحيَّة وتُعطيهم القوة لمواجهة المرض ومقاومة انتشاره.

نفس هذه النصائح من تجنب الألبان أوصت إخصائية التغذية بتجنبها لجميع بنات العائلة، مادام هناك استعداد وراثي لدى الإناث لظهور أورام.

هذا الحوار بالضبط نقلته إلى مريضة التقيتها في صالة الانتظار بمركز الدكتور حمدي عبد العظيم للتشخيص المبكر وعلاج الأورام، عندما تبادلنا الحديث حول إصابتنا .. فاكتشفت إنها بعد تسع سنوات من تلقِّيها العلاج الكيماوي والإشعاعي، ظهر السرطان مجددا في مكان آخر، وسيطرت صدمتها من تجدّد

المرض على الحوار رغم اهتمامها الكبير بصحتها. ولكن صدمتي وإرتباكي كانا أشد منها، حيث نزلت عليَّ المعلومة كالزلزال الذي كسر أغصان روحي وسحق وريقاتي.

وازدادت وتيرة الرياح العاصفة بكياني كلما توغلت المرأة في رواية عذاباتها مع تجدد المرض وتكرار البروتوكول المشئوم، غير إني فجأة استوقفتها وسألتها عن طبيعة غذائها طيلة السنوات الماضية فأخذت تحكي كيف تشرب يوميًا لترًا من الحليب «البلدي» الطازج إضافة إلى اليوغورت (الزبادي) والجبن القريش الفلاحي، واستغربت جدًا عندما أعلمتها إن طبيبة التغذية تمنعني تمامًا وتمنع مرضى السرطان من شرب اللبن وتناول منتجاته، كما استغربت أكثر عندما أضفت إن اللُحوم أيضًا هي من الممنوعات، بينما الأسماك هي البروتين الحيواني الوحيد المسموح به، ومعه يمكن تناول بيضة أو اثنتين على الأكثر أسبوعيًا. أما الخبز فممنوع تناوله ليس فقط بسبب الرغبة في تفادي السمنة؛ وإنما لاحتواء الخبز على مادة الجلوتين التي تتحول إلى مواد مسرطنة عند تعرضها للنَار.

وفي صدارة المواد المحبذة في الريجيم الغذائي والتي لابدَ أن تكون دائمة على مائدة مرضى السرطان بشكل خاص الكرفس

والزنجبيل والليمون والبصل والثوم والبقدونس وزيت الزيتون، والجزروالرمان بإعتبارها تحوي مضادات طبيعية ضد الأكسدة.

أما السكر الأبيض المكرر والدقيق الأبيض والملح والمواد الحافظة والملونة، فهي جميعًا السموم المعادية للصحة . ومن أكبر مسببات السرطان تراكم السموم في الجهاز الليمفاوي؛ وخاصة سرطان الثدي بين النساء اللاتي لايتعرقن ولايتحركن ولهن عادات غذائية سيئة؛ حيث يتكون مكان السرطان في الجهاز الليمفاوي في الثدي حسب الشرح العلمي البسيط .

ولو نتفحص فوائد الكرفس فسنجده ساحرا في عملية التمثيل الغذائي منقيًا للدم. وقد أطال إبن البيطار قديمًا في تعداد فوائد الكرفس العلاجية . ومما قال عنه : إن عصير الكرفس ينقي الدم ويعالج الحمى، وورقه يعالج المعدة والكبد ويذيب الحصاة. وتقول الدكتورة هيام في مدحه «لو عرفتم مفعول الكرفس لملأتم به بساتينكم!».

وعن فوائد البصل وهو «أب الخضر» جميعًا، فهي متعددة، أهمها الوقاية من الأورام السرطانية حيث إنه يعدّ من المضادات الحيوية لكثير من الأمراض، وهو مُقوٍّ للشعر ويعدّل مستوى

السكر بالدم كما إنه مفيد لأمراض الجهاز التنفّسي كالربو والالتهابات الرئويّة.

وبالنسبة لفوائد البقدونس فهي كثيرة؛ حيث يحتوي على الكالسيوم أكثر مما يوجد بالحليب مثلا وفيتامين أ، ومُنقٍّ للدم ومُدرّ للبول. أيضًا هو غني بأملاح الحديد والفسفور وفيتامين ج أكثر مما يحتويه البرتقال، كما أنه مفيد للمرضى المصابين بحصوات الكُلى. وقد أسهم البقدونس -أو كما يسميه التوانسة المعدنوس - جنبًا إلى جنب مع الجرجير في علاجي من نقص الكالسيوم وفقر الدم بعد جرعات الكيماوي.

أما بالنسبة للبروكلي فيحتوي على مادة «أندولس»، وهي من مضادات التأكسد التي توقف عمل الخلايا المسبِّبة للسرطان، خصوصًا سرطان الثدي والقولون.

أما الليمون فيتميز بكثرة منافعه فهو يخلِّص الجسم من السُّموم، ويرفع المناعة خاصة إثر جرعات الكيماوي التي تهبط بها، ويحافظ الليمون على الجسم ضد العدوى ويقيه من الإصابة بنزلات البرد كما أنه فاتح للشهية ومفيد للقلب . وهو بشكل عام يعدُّ من أهم مقويات المناعة ضد جميع الأمراض. وأعترف

إني لمأكـن من عشـاق اللَيمون من قبل ذلك ولكنه أصـبح الصـديق المصـاحب لكل الأطعمة. كذلك الجزر هو مُنقٍّ للجسـم من السموم وكنتُ أحرص على شـرب عصير الجزر بعد الانتهاء من كل جرعة كيميائي ،لكن إخصـائية التغذية تحذرُ مرضـى السـكر من شـربه أو تناولـه ، وفيمـا عـدا هؤلاء فإنها توصـي بخلط عصـير الجزر بالكرفس، والذي يعدُ أهم مشروب للمريض بعد خضوعه لجرعات العلاج الكيماوي. أيضًـا زيت الزيتون له فوائد لا تُحصى يأتي في مقدمتها الوقاية من الأورام الخبيثة ، وعامة يخفّض الكولسترول في الدم ومفيد للقلب والشـرايين ويمنع تسـاقط الشـعر ويحسـن نضـارة البشـرة ، وأفضـل زيت زيتون هو الذي يتم عصـره على البـارد بالطريقـة التقليديّة وتكون حموضـته أقل من نسـبة ١٪ .

ويشـدِدُ الريجيـم الغذائي على تجنب الأكل الدسـم من مصـادر الدهـون الحيوانية كالسـمن والزبد والقشـدة، والتي تـؤدي إلى زيـادة الـوزن والدهـون في بعضـ أعضـاء الجسـم .وطبعـا هذه مصـيبة كبرى لعشاق ولائم البط والحمام والديك الرومي والفتة بلحـم الغنم ، والكسكسـي بالعلوشـ والملوخيـة بالعلوش وربما حرمانهم من هذه الأطعمة يضاهي قسوة المرض أو يفوق!

وفي المقابـل يشـجِع الريجيـم علـى اسـتخدام الزيـوت النباتيـة كزيـت الكتان وطبعًا زيت الزيتون لكن نيِّئًا،بمعنى دون تسـخينه

على النار؛ لأن التفاعل مع النار يجعله مؤكسَدًا وبالتالي يتحول إلى مادة ضارة بالصحة. ومن الأفكار الخاطئة المتداولة عن مريض السرطان ضرورة أن يأكل جيدًا وكثيرًا، ومفهوم الجودة في الثقافة الشائعة تتلخص في أكل البروتينات وعلى رأسها اللحوم، والألبان والمواد المشتقة منها كالأجبان وهذا خطر كبير جدًا على مريض السرطان وهذا يكون للأسف بطلب من الطبيب أحيانا، فأكثر ما يفسد على الناس صحتهم أنصاف الأطباء وأنصاف المتعلّمين، أما الكثرة في الأكل فتعني الكميات من كل شيء وهو ما يسبب السمنة؛ لدرجة أن إحدى الأمهات تتخيّل أن سبب إصابة ابنها أو ابنتها بالسرطان يعود إلى قلة الأكل والإهمال في التغذية. وهذه كلها أفكار مغلوطة وعارية تماما عن الصحة. فكلما اقترب مريض السرطان من الخضر الطازجة وابتعد عن البروتينات الحيوانية والكبدة والمنتجات المحفوظة كالسلامي واللانشون والبسطرمة والتونة. أسهم ذلك في تحقيق تغذية سليمة للمريض. ولكن في المقابل يحذر الطبيب المعالج للسرطان من نقص التغذية وتجنب فقر الدم والأنيميا، فمرضى السرطان يتعرضون أكثر من غيرهم لنقص الكالسيوم والفيتامينات بسبب العلاج الكيميائي،حيث لا يستطيع أحد أن يحارب مرضًا شرسًا يهدد حياته وهو يعاني سوء التغذية أو نقصها . فالجسم في حاجة

إلى الغذاء المناسب والمتنوع لحماية الجهاز المناعي، الذي يعتبر بمثابة الجيش الذي يحارب العدو: الخلايا السرطانيّة. عندما نعلم أن الإصابة بالسّرطان تعود أساسا إلى خلل في جهاز المناعة ناتج عن مجموع من المسبّبات، مثل سوء التغذية وتناول أطعمة بها سموم ومؤكسدات ونسبة التلوث العالية في الدم نتيجة العيش في أماكن ملوّثة والتدخين ، يصبح أمرًا حتميًا الابتعاد عن هذه البيئات والأجواء لتفادي تجدد الخلايا الخبيثة . وسعيًا وراء تنفيذ هذا الابتعاد فقد أقدمت على قرار مجنون وهو أنّي تركت شقّتي في مصر الجديدة وأقمت في منزل بمنطقة سكنية جديدة لم تزحف عليها الجيوش البشرية ومازالت طبيعتها بكرًا تبعد عن القاهرة نحو الخمسين كيلومترًا، ونأيت بنفسي وروحي عن العذاب اليومي في العاصمة والضوضاء والتوتر والتلوث الهوائيّ. غير أنه ليس بالضرورة كل من يعيش في ظروف مماثلة يمكن أن ينجو من السرطان ، والعكس صحيح ، لكن من يمرض هو فقط من لديه الاستعداد الوراثيّ وهذه النقطة كانت فيما مضى خلافيّة بين العلماء لكن يثبت مع تقدم الطب أن هذا المرض وراثي غير أن الوراثة لا تعني إن الجدة إذا مرضت فإن الأمّ والإبنة والحفيدة جميعهن سيمرضن بالسرطان!!.. فهو لا ينتقل من الآباء إلى الأبناء بشكل حتمي ومنتظم على مستوى تعاقب الأجيال .

ولعل ما تقدم من معلومات أصبحت أشياء معروفة الآن ولا أضيف جديدا عند ذكرها، لكني أجدّد التأكيد عليها ، لإدراكي لنوعية الهواجس والوساوس التي تنتاب مريض السرطان وأقارب المريض، وقد عايشت جميع تلك الحالات التي تزيد من التوتر وهذا أمر مرفوض تمامًا للمريض.

أقول ذلك وأنا مثال حي على وجود تاريخ مرضي لدى العائلة، فقد ظلمتني جيناتي ، ولا أدري من ظلم جدتي لأمي التي نقلت بدورها جيناتها إلينا، فأصاب المرض شقيقتي قبل أن يصل إليّ . .



إنتاج الأوهام والأفكار المغلوطة أصبحت صناعة وتجارة مزدهرة في أوطاننا، وراجت أكثر بعد استخدام وسائل الاتصال الحديثة كالإنترنت ومواقع التواصل الإجتماعي وكثرة الفضائيات، والمتصدّي لها كمن يناطح طواحين الهواء . ولو بحثنا عن كمّ المواقع والكتب والفتاوي التي تبشّر بالسرّ الباتع للعسل في شفاء السرطان فلن نستطيع أن نحصيها. وأتذكر أنني شخصيًا أحضرت نوعًا من العسل الجبليّ لأختي عندما أصابها المرض بناء على نصيحة من أصدقاء، وهو من فصيلة المعادن الثمينة لأن أسعاره تقوّم بأوزان الذهب !

لكـن هذه الأقوال المتداولة لا دليل قاطعًا عليها ، بل تمثّل خطورة على المرضــى في حــال وجود خلطات عســل يتم تداولهـا دائما عن طريق الإنترنت ، وربما من باب الصدفة أن حالة أو حالتين شُفيتا أثناء تناولهما للعســل مع الحبة السوداء، غير أنّ المؤكد علميًا أن العسل لا يشفي السرطان ، وربما تكون هناك عوامل أخرى قد أدّت إلى الشــفاء. ولذلك تشدد إخصائية التغذية على مرضاها بتجنب العسل نهائيا ، وهذه المعلومة التي التزمت بها شكّلت صدمة للعديد مــن الأصــدقاء الذيــن يزورونـــي للاطمئنـــان عليَّ وينصــحونني بتناول العســل ويدللــون على ذلك بما ورد في القرآن حول الشــفاء بالعســل قــال الله تعالى : «وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْـلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّـجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُــونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْــلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (النحل: ٦٨-٦٩).

نقلت وجهة النظر هذه إلى إخصائية التغذية للحوار حول الإشارة إلــى عبارة شــفاء التي وردت في الآية ولم تــرد عبارة علاج،فردت موضحة :

- ذُكر العســل في القرآن وأنه يشفي من الأمراض صحيح ولكنه يشــفي بعضــ الأمراض فقــط ، وهو ما يجعل النـاســ يعتقدون أن

العسـل ربما يشفي السـرطان أيضـا . لكن حذارِ من العسل بل من السكريّات عموما ، فالسكر «عدو» لدود لمرضى السرطان .

وما تسـعى طبيبة التغذية إلى التوعية به حول مضار السكر هو أمر معروف بالنسبة لجميع المرضى، غير أن التوعية بشكل خاص بمضاره بالنسبة لمرضى السرطان تحديدًا مازالت ضعيفة وتُقاوم بعنف. وما تعلمته في أثناء المرض من عدد من الأبحاث العالمية أن السكر يغذّي الخلايا السرطانيّة بأنواعها، وبالذات سرطان الثدي والبروستات ويمنع امتصاص الجسم للكالسيوم والماغنيسيوم.

ورغم وجود العديد من الأنظمة الغذائية لعلاج مرضى السرطان، إلا إنـه لا أحـد منهـا يسـمح بالأطعمـة العاليـة في الكربوهيدرات والنشويات والسكريّات ، لأن السرطان يتغذى على السّكر.

كما إن تناول السـكر يضـعف نظام المناعة في الجسم كما يخفض نسـبة فيتامـين « هـاء»أو «E» بالجسـم. وكما هو معـروف فهذا الفيتامـين يحسـن التمثيـل الغذائـي ويقلل الأكسـدة في الجسـم، وبـدوري أواظب على تناول قرص منـه يوميا . وإذا كان الإمتناع تماما عن وضـع السـكر في الشـاي والقهوة والمشـروبات الدافئة يشـكل صعوبة كبيرة للمريض، فإن الحلّ في وضع قليل من السكر البني ،أو ما يعرف شعبيًا في مصر بسكر التموين، وهو سكر الفقراء

الذيـن يأنفونــه لأنــه لا يحلّي جيـدًا ويبحثون عن السـكر الأبيض العدو المسـمم للصـحة. وفي أوروبا وأمريكا تدفع شـركات السكر أمـوالاً طائلة حتـى تمحو أثر حملات الدعاية الصـحية المضـادة لتناول السـكر، وتنفق تلك الشركات على بحوث الأطعمة البلايين حتىّ لا ترضـى عن السكر بديلا في صـناعة الأغذية. وتشتري تلك الشـركات قصـب السـكر من فلاحي الدول الفقيرة بأسعار زهيدة لتعيد تصديره في شكل سموم قاتلة بعد أن تقوم بتكريره فيتضاعف الكيلـو الواحـد عـدة مرات من جـراء التكريـر . وما أصـعب ظلم الجاهل لنفسـه حين يفرط في منتجه الصـحي الرخيص ويسـتورد منتجًا غاليا ومضرًا!!

وفي مقابـل التوقف عن اسـتخدام السـكر للمسـاعدة على شـفاء السـرطان فإن تناول الأعشاب ذات المرارة يحفز على قتل الخلايا الخبيثـة ، وتكـون خافضـة للسـكر وقابضـة للأوعيـة مثـل نبات الصـبار،عكس الأغذيـة حلـوة الطعم التـي ترفع السـكر وترخي الأوعية والجسم. وهناك قول مأثوريردده أهل بلدي يصلح في هذه الحالة «مايداوي المرّ كان اللي أمرّ منه». وللصـبار فوائد عديدة، فقـد كشـفت مراكـز متخصصـة بالأبحـاث النباتية التـي أجريت علـى نبـات الصـبار[1] عـن تأثـيره في مقاومـة السـرطان؛ حيث وجـد الباحثـون أنَ له تأثـيرًا كبيرًا في تقوية جهاز مناعة الجسـم

وإنتـاج الخلايا الضـدية التي تقـاوم الخلايا الخبيثـة والأورام . كما إنها تغذي البكتيريا النافعة في الأمعاء وتقضي على المسببات العضوية لمرض السرطان مثل فُطْر الكنديدا.

ويعود استخدام الصبار إلى قدماء المصريين[٢]، فلقد وُجد رسم نبات الصـبار محفورًا على جـدران المعابد الفرعونيـة منذ أربعة آلاف عـام قبل الميلاد ، حيث كانوا يقدسـونه ويعتبرون أن له قوة السـحر على الأجسـاد، حتـى إنه كان يعتـبر من ضـمن النباتات الملكيـة المقصـورة على الفرعـون وأتباعـه. كما أنهم اسـتخدموا خليطًـا مـن نبات الصـبار ونبات المُـرّ في حفظ موتاهـم أو تحنيط أجسادهم .

أما العرب فأدخلوا بدورهم نبات الصـبار وقدّموه إلى الشعوب التي إتجهوا إليها لنشر الإسلام وتوسعة رقعة حكمهم.

وتعرف عدة شـعوب منذ أزمنة غابرة أن نبات الصـبار يشـفي الجلـد وأمراضـه المختلفـة ، لذلك فإن مـن المفيد جدًا اسـتخدامه في عـلاج الحروق الناجمة عن تكرار التعرض لجلسـات الإشـعاع بغرض قتل الخلايا السـرطانية المنتشرة في نسيج الثدي المصاب، وخصوصًـا منطقة تحت الإبط التي تحصـل على نصيب أوفر من الإشـعاع، ممـا يجعلها أكثر ألما مـن باقي أجزاء الثـدي . وتُغطى

الحروق بجل نبات الصبار الطازَج ،من ثلاث إلى خمس مرات في اليوم فيلطّف ويهدّئ الحروق ويقلل من اتساعها .

ولكن الذي لا يعلمه الكثير من الناس أن نبات الصبار ممكن أيضًا تناوله في صورة شراب أو عصير. وقد داومت شخصيًا على شرب عصير الصبار ملعقة يوميًا من ماء النقع ، بعد انتهائي من العلاج الكيميائي واطلاعي على العديد من الأبحاث في مجال طب الأعشاب .ويحتاج شرب نقع الصبار والمرّ إلى عزيمة أجيال مجتمعة وليس عزيمة إنسانة منفردة ..ولا أدري حتى الآن كيف نجحت في شربه سوى أن قسوة التهديد تصنع المستحيل.

وقد إستخدمت أيضًا خلطة مكونة من عصير ورق الصبار بقشره والذي يحوي مادة هلامية، مع الإكليل الأخضر والزعتر البري والأخير معروف بأنه مُنقٍّ للدم ومضاد للفيروسات والبكتيريا والفُطْر الضار في الجسم، وتعمل الخلطة على تقوية الأوكسجين على مستوى الخلية حيث إن الخلية تتنفس وتحتاج للأوكسجين في تكوين الطاقة وحرق الجلوكوز وتوفير الأوكسجين للخلايا لمقاومة مسببات السرطان والتي تعرف بالبيئة اللاهوائية الناتجة عن نقص الأوكسجين للخلايا، وهذا النقص يجعل الخلية تبحث عن تكوين الطاقة من مصدر آخر فتقوم بتخمير الجلوكوز للحصول على الطاقة وهذا سبب مقولة علماء التغذية إن السكَر

يغذِي الخلايا السرطانية ، لذا فإن الأنظمة الغذائية أو الريجيم الغذائي للسرطان ينصح بتجنب السكر. وهناك دراسات عديدة توضح كيف أن «السرطان يعشق السكر» ويغري المريض بتناول الحلوى والسكريات من خلال أعراض حقيقية بالوهن والضعف، فيُهرع القريبون منه بتحضير كوب من ماء وسكر بدافع وهم الشعوربالدوخة [٣] إنها لعبة الصراع من أجل البقاء يراوغ فيها السرطان ليتخفى ويستمر في إنتاج الخلايا الخبيثة، بينما يحارب المريض ليقضي على ذلك الذئب المفترس الجاهز للانقضاض في كل لحظة على فريسته.

وتختلط الأساطير بالأفكار الخاطئة فتضيع الحقيقة العلمية، ويتأخر تحسن صحة مريض السرطان بسبب تلك المقولات الشائعة منها أن المريض لا يمكنه أن يتبع ريجيمًا غذائيًا، والصحيح إن الريجيم يزيد المناعة ولا ينقصها ويساعد على الشفاء من السرطان، بل لابد من اتباع حمية غذائية مناسبة لنوع الأورام وحالة المريض. لكن الريجيم يتطلب هو الآخر إرادة وتصميمًا، وكنت أشعر بإرهاق في بعض الأحيان غير أني اكتشفت أنه ناتج عن الأوهام أكثر مما هو ناتج عن الريجيم. وبالتوازي مع الغذاء الصحي والأعشاب تنصح الدكتورة ريهام بإجراء غسيل المصران، أو ما يُعرف شعبيًا بالحقنة الشرجية مرة

أسـبوعيًا، وهناك خلطات أعشاب لاسـتخدامها خصيصًا في عملية غسـيل الأمعاء . وهي تفيد في إزالة الرواسـب المكدّسة في القولون والتخلّص من الطفيليات والديدان الملتصـقة على جدران وأسطح الأمعاء والتي تفرز سـمومًا مع الوقت تنتقل إلى الدم وتسري معه في مختلف الأعضـاء لتؤدي إلى أمراض ،وفي المقابل يجدّد الغسيل الأنسجة الداخلية للجسـم كافة وأهمّها أنسجة جهاز المناعة ، من هنا يساعد على معالجة عدة أمراض تهاجم المناعة منها الأمراض السرطانيّة ، ويسهل امتصاص المعادن والفيتامينات .

وليس للغسـيل أية مضاربتاتاً ،لكن تعقيم المعدات ضروري ومن المفضّـل أن يكون لـكل مريض أنابيبه الخاصـة. وكنت أتهرب من هذا الغسـيل في البداية ،غير أني لما لمست التحسن العام في صحتي بعد تكرار التجارب أصبحت أقبل عليه بارتياح .

هوامش:

(١) منحـت بـراءة اختراع لشـركة تكسـاس الأمريكية عـام ١٩٩٤ أثبتت إن أحد مشـتقات الصبار ينشط جهاز المناعة، وأن هذا يفيد في علاج السرطان ومضاد لبعض الفيروسات مثل فيروس الإيدز والفيروس المسبب للحصبة..

(٢) دكتور ماكس سكوسـين Max B. Skusen – مدير برنامج التداوي بواسـطة نبات الصـبار،معهد الأبحاث بولاية يوتـاوه الأمريكية ،مؤلف العديد من الكتب في التدواي بالطبيعة، ومنها كتاب «النبات العلاجي عند قدماء المصريين – الصبار».

(٣) دراسـة لفريق بحث بكليـة الطب جامعة ديوك «لماذا تحب الخلايا السـرطانية السـكر كثيرا».

حضن أمي

إلى حضن أمي يحنٌ فؤادي

حـــنين البســاتين للمطر

فأمّي أميرة كل النّـــساء

وأمي ملاك فوق كل البشر

بكل وفاء تصون العهود

وما مثلها بالحنان يجود..

(من أغنية لذكرى)

أحـنّ إلى حضـن أمي في هـذا اللّيل الموحش الـذي تفترس ظلمته غُرَف قلبي وتداهم أشـباحه وسائد وحدتي . لا سبيل إلى الارتماء في حضنها فتبللنا دموع الشوق والفراق!

سأشفق عليها كثيرًا لو تخيلت أنها علمت بمرضي . ضربات الدهر مازالت ماثلة على جبينها وفقدانها ابنتها الوسطى محفور كالوشم على تجاعيد وجهها .

لكن هل ياتُرى أخبرُ شـقيقي الأكبر وسـيم بمرضـي رغم إشفاقي عليه هو الآخرمن وقع المفاجأة، سـأمهّد لنفسـي وأخفّف من وطأة الأمر يابلاغ سندة ، فهي الصديقة قبل زوجة الأخ ، فلربما تشجّعني على إستمرار كتمان هذا الخبر اللّعين، بينما إستبعدت نهائيًا فكرة إبلاغ شقيقتي الصغرى دُرَّة فهي تعيش وسط الهواجس منذ وفاة أختنا إكرام ، فكيف ستتعايش مع هذا الخبر مجددًا ؟!

وسـيم هـو طبيـب نفســاني درس في كليّـة الطب بصـفاقس ثم في عدد من كليات الطب بفرنسـا، ومن صـدف الأقدار أن أحد أبحاثه التحضـيرية للدكتوراه تعلق بالآثار النفسـية لمرضى السرطان . ولأنـه البِكْر بين الأبناء فدائمًا ما يتحمل أعباء نفسـية ثقيلة نيابة عـن كل أفـراد العائلة لعـل أوجعها رحيل شـقيقتنا إكـرام متأثرة بالمرض الخبيـث، ولعلنـا نلجـأ دومًا إليـه باعتبـاره الأخ الأكبر

والطبيب، وننسى مدى تألمه باعتباره الإنسان والأخ والابن.
سندة من جانبها لم تكتفِ بمجرد علمها بمرضي بالتواصل عبر الفيس بوك والتضامن بزرع الثقة في إمكانية العلاج والشفاء، وعجلت بإخبار شقيقي الذي تحرّك سريعاً وقام باتّصالات بزملائه من الجراحين التوانسة المتخصصين في هذا النوع من الأورام. واختار أشهرهم وحدد موعدًا لإجراء العملية ثم اتّصل بي ليعلمني بهذه الخطوات؛ مؤكدا على إنني في حاجة إلى حضن ماما في هذه المرحلة.

تنازعتني الاحتمالات بين أن أُجْري العملية في مصر بجانب زوجي وأولادي وأصدقائي وبين أن أجريها بجانب إخوتي وأصدقائي والأهم في حضن أمّي. وجاء القرار الصعب الذي لا مجال لأن يرضي جميع الأطراف ولابد أن يغضب جزءًا مني ودافعي الوحيد وراء اتّخاذه هو تجنيب والدتي ألم الصدمة، على أمل أن تمضي السحابة مع توديع تقلّبات الربيع فأذهب إلى زيارتها مع حلول الصيف فلا أضطر أبدا إلى إخبارها بمرضي، لكن كما يقول التوانسة «اللي يحسب وحده يفضله»..!

ولما أدركت أن القصة خطيرة ولن تكون عابرة كما تعبر الغيمات سماء الربيع، قرّرتُ في وقت لاحق أن أخبر شقيقي محمد المقيم في

كنـدا والذي نناديه حمَّادي. وقررت أن أخوض التجربة القاسـية، كنـتُ أشـعر بخفقـات قلبـه ،وارتجاف الكلمـات على لسـانه وهو ينصـت إليّ واجمًـا لا حـول لـه ولا قـوة، وكـم أعـذره ..فمفاجآت الاحتضار وقعها أصعب من الموت!.

لم يكـن لدى شـقيقيَ فرصـة لعمل الكثـير سـوى التأثر والحزن وعرض يـد المسـاعدة ، لكنـي كنت قـد خطـوت أشـواطًا مهمًا في إتّخاذ القرارت المصيريّة كافّة، وحتّى المشاعر الإنسانيّة ومشاعر الأخـوّة قد يحول بعد المسـافة عن تدفّقها فيقتصـر ما هو مطلوب منهما تجاهي على التّشجيع والأمنيات والدّعاء. ما أصعب كلمات المؤازرة التي تصطدم بجدار المستحيل، وهي غالبًا ما تتلعثم على الألسنة وتختلط المشاعر فلا ندري هل المؤازرة لي أم لنا جميعًا .

ظللـتُ أفكّـر وأفكّـر طويلاً في وقع خـبر المرض علـى أهلي وعلى أصـدقائي . وكنت أختار فقط من هم الأقوى والأكثر تماسـكًا من أصـدقائي لأروي لهم ما أصابني، وأحرصٍ على إخفاء الأمر تمامًا عن أصدقاء لديهم وساوس وهواجس تقضّ مضاجعهم .

واستمرّت مشـاعري متلاطمة تجاه علاقتي بالمرض وبالناس من حولي .وتؤرّقني قضـية فلسـفية وهي السـخط على قدري، إلى أن قابلت الدكتور حمدي عبد العظيم ،أسـتاذ علاج الأورام المعروف، الذي واجهني من أول وهلة بعبارات ناعمة ولكنها حاسمة قائلاً:

– أنـت راضـية بمـا كتبه الله عليـك ولكنـك زعلانة مما أصـابك، وهـذان أمران مختلفان ولكن لا يتناقضـان أو يتصـادمان، فعندما نحزن على ما أصابنا فهذا لايعني أننا نعترض على إرادة الله .

ثـم طالبني مجـدّدًا بالتعبـير عما يجيش في صـدري من مشـاعر تؤرقني وتسـجنني داخل قضـبان مُحكمة من الحزن والاكتئاب، قائلا:

– احزني ..من حقك أن تحزني !

أجبت والكلمات تخنقني :

– نعم أنا حزينة ..فقط لأني لم أسـتطع أن أغير مصـيري ! كنت أتوقـع في السـنوات الأخيرة إصـابتي بالمرض ،وكنـت معلّقة من جيناتـي كالـوردة التي تسـتعجل قطفهـا ،وكان كابوسـا يطاردني علـى الدوام في أحلامـي. ورأيت نفس هذه الأحداث في خيالي يعني مررت بالتجربة في خيالي قبل أن أعيشـها في الواقع ، وبدأت أجدّف بمركبـي بعيدًا عن الأمـواج العاتية حتى أتفادى تحطّم أشـرعتي على صـخور قدري وحاولت تصحيح خط سيري حتى أنقذ نفسي من المصير المحتوم ..

قضـيت نصـف عمري في بؤرة التوتر واللّهاث وراء الإنجاز ،قبل أن ينفد رصـيد العمر،فجهدي كان مضنيًا ونومي في المقابل قليلا..

كنت أنسحب من سريري على استحياء من زوجي ، وأحاول أن أتحرك في البيت بتؤدة حتى لا ينتبه الأولاد إلى نشاطي الليلي المزعج، وأحيانًا أخجل من تخيل أولادي أني لست على وفاق مع والدهم بسبب هجري لغرفتي في تلك الساعات المتأخرة من الليل!

لكن الحقيقة التي أصبح كل أفراد أسرتي يعرفونها مع مرور السنوات هي أني مصابة بلعنة الفكرة التي ما إن تؤرقني حتى يتملكني الأرق فيخاصمني النوم ، وأداويها بالكتابة فأجلس أمام الكمبيوتر ليلاً لعدة ساعات أبحث عن الخلاص من أوجاع الولادة إلى أن يتسلل إلى نور الصباح . وكثيرًا ما أكتفي بالنُّعاس ،وعلى عكس غالبية البشر، لم أكن أستمتع بالنوم وأنتصب واقفة من السرير بمجرد أن أستيقظ وأفتح عيني ، وأندمج مباشرة في عمل الواجبات المنزلية والصحفية وكأن لديَّ تخوفًا بأن الوقت – بل قل العمر– لن يكفيني لإنهاء المهام التي تنتظرني !.

استوقفني الدكتور حمدي مصحّحًا وكأنه يحاول أن يهزّني فأفيق من جَلْد الذات، وبجديّة صارمة قال :

– الإنسان لا يغيُر قدرا ، ولا يتحكم في جيناته أو إرثه الفسيولوجي و التاريخي والإنساني .

وتضاعفت دموعي أمام مرارة مجابهة الأقدار، وأضفت بكلمات متقطعة من خلف الدموع :

- لقد فشلت في أهم قضية مصيرية .. صحتي! لقد قرأت عن الجينات الوراثية ومدى تحكّمها في الأمراض التي تصيبنا ولكن كان لديَّ وهم بأني أستطيع أن أتفادى ذلك، بفضل نظام حياتي وغذائي سليم، لذلك حرصت على الابتعاد عن الفاست فود وتناول الخضر الطازجة وخاصة الورقيات ومنتجات الشعير والقمح الصلب، والإبتعاد عن السكر والملح والسمن والزبد وكل الدهون الحيوانية والاستعاضة عنها بزيت الزيتون والزيوت النباتية وشرب الشاي الأخضر بالنعناع والأعشاب .ولم ينقذني كل ذلك من مصيري رغم أني كنت أكشف بانتظام عند الطبيب وأجري تحليلات الأورام وأشعة الماموغرام!

- لكن ليه متقوليش إن كل ده له الفضل في إن إحنا لحِقناك ؟!

هكذا ردّ الدكتور بحماسة شديدة ،وصمت قليلا ، ثم تابع :

- تلك المخاوف من الإصابة بالمرض والحذر الكبير سواء بتغيير نمط الحياة أو وتيرة النشاط ، إضافة إلى الوعي الغذائي والصحي السليم والمتابعة الطبية المنتظمة .. كل ذلك سهّل اكتشاف المرض في هذه المرحلة التي مازال يمكن معها العلاج.

حتـى الجراحة واستئصـال الـورم، ربما لم تكن متاحـة لو إنكِ لم تذهبي إلى الطبيب في هذا التوقيت بالذات ،ثم إن تغذيتك السـليمة وإبتعادك عن العناصـر السـالبة وسـلوكك الواعـي ربما هو الذي أخّر ظهور المرض ، فمن أدراكِ ..لو كان سـلوكك مختلفًا لربما كنت ستصابين قبل أختك؟!

أيقظـت هـذه التسـاؤلات الدهشـة في روحـي المتعبة ،فشـعرت بالتخفف من أوجاع جلد الذات وعقاب الضمير،وسـرحت أغتسـل بتلك الدهشة المبهرة وأبحث لها عن أجوبة ،وانتبهت على الدكتور حمدي وهو يقول مجددًا :

– فلنحمـد الله على انه قدَّر ولطف ، ولابـد أن تعتزي بالنجاحات التـي حققتِهـا في حياتك،وأوصـيك خـيرًا بتلامذتـك وطلبتـك مـن الشـباب، لأنّهم يحتاجون منك رسـالة أمل وأنت صـحفية صاحبة قلـم ورأي، ونحن في هذه المرحلة الحساسـة من الثورة المصـرية العظيمة التي تقترب من معانقة حلم بطعم المستحيل .

ثـم عاد الدكتور حمـدي ودائمًا بلغـة أقرب منها للغة الأصـدقاء وأبعـد عـن لغة أسـاتذة علـم النفس؛ ليلخّص الجلسـة مسـتعدًا للانصراف :

– الإنسان يضع خطة اللّعب لمباراة حياته ، لكن بعد ذلك لابد أن يدع المباراة تستجيب معه!.

القدماء الأولون من قبلنا قالوا عِدَّة أمثال تشجع على الرضا أمام المواقف القدرية، منها «إجرى يا ابن آدم جري الوحوش غير نصيبك يا ابن آدم لن تحوش. و«اللى له عمرما تهينوش شده» و«اللى ما تقدرله أصبرله».. يبدو أن استدعاء هذه الأمثال القدرية يجلب الارتياح ويهدئ حيرة البال لمن يواجهون خطوبا ويعجزون عن فعل أي شيء!



استغرقتني أفكار خيّرة كثيرة متداخلة مع بقايا من الهواجس السلبية، وجرفتني جميعها بعيدا جدا عن ذلك الشاطئ الذي تتطاير زخّات أمواجه المنعشة عشية إعلان الصيف عن قدومه، والأطفال يلهون بالزَّبَد المدهش في براءة ويرمون بعضهم البعض بالمياه ويجرون على الرمال الرطبة.

ما أحوجني في هذه الظروف إلى العودة إلى الأهل والارتماء في

أحضـــان الوطن، فلا توجد في العالم وســادة أنعم من حضــن الأم ووردة أجمل من ثغرها كما يقول شكســبير، ويعاودني الحنين إلى رائحة الوطن وإلى الاستئناس بأشقائي وصديقاتي ماجدة وآمنة ويُسْر وفاطمة..

ريحة البلاد يابا.. ورد وياسمين يابا يابا

ريحة الأكباد يا خويا أغلى من العين

ريحة البلاد ملطفها متشبع منها يوم

وصحيح مايعرفها كان اللي عاش محروم..

رحم الله الفنان محمد الجموّسي الذي غنىّ كثيرًا للوطن والأهل والأحبّاء .

لكن كيف الســبيل إلى لقائهم بينما يعذبني مجرد التفكير في مشهد والـديَ ووقـع الخبر عليهمـا وهمـا يتلقيان نبـأ مرضــي..وبماذا ..بالمرض الذي اختطف منهما ابنتهما الشابَة من قبل وقضت وهي في أزهى سنوات شبابها ؟!

إن خبرًا مثل هذا لن يستطيعا تحمُّله وأخاف من إنهيارهما، قلب والدتي الضــعيف لن يقدر على المفاجأة وصحة والدي الواهنة لن تتحمل الصــدمة. لكني ســوف أحرص على تذكُّـر كلماته المغزولة

بجمـال فاتـن كما يغـزل الحرير الذي يصـنع منه رسـومات تزيّن الجُبَّـة والفرملـة والبرنوس والشاشـية التقليديـة [1]، يقـول إن الإرادة تصنع المستحيل وبفضلها تتحقق الكثير من الانتصارات، وأهـم الانتصـارات التـي تدوم أبـدًا و لا تـترك وراءها أسـى أو جراحًا هي انتصاراتنا على أنفسنا.

استيقظت مـن خيالاتي على قرقعة قوية من شـدة ارتطام الموج علـى الرمال، فمشـيت بخطـوات متسـارعة مبتعدة عن الشـاطئ وقد سَـرَت في بدني قُشَـعْريرة منبِّهَة لتحرك نسمات رطبة، وعبرت الشـارع إلـى الرصـيف المقابل الـذي يعجُّ بمحلات صـغيرة تبيع المأكولات الخفيفة وتلتصق فيه الأبدان مدفوعة بأمواج الحبّ.

لم ألحـظ خـلال تجـوّلي في الشـوارع أي تواجد للعلامـات «أم» الصـفراء التي تدل على سلاسـل مطاعم ماكدونالز الأمريكيّة التي اكتسـحت المدن المصـرية ومناطقها السـياحية، بل أغلب المطاعم والكافيهات في لشـبونة هي عبارة عن مشـروعات عائلية صـغيرة تقدّم الأكلات البرتغالية والمشـروبات المتعـارف عليها ويعمل بها عـدد محـدود من العمّـال. فكيف نجـا البرتغاليون مـن المَكْدَلة كما يسـميها عبد الوهاب المسـيري، وكيف لأيّ شعب في الدنيا أن يقرر إنقاذ وعيه من تلك «الكوكلة»- مشـروب الدمار الشّـامل السّـاحر الذي تستحـمّ في بحوره شعوب كوكب الأرض؟

لابدّ أن يُعاقب النظام الكولونيالي المتحضرّ هؤلاء البرتغاليين المتخلّفين الذين يحرمون أنفسهم من أحد منتجات الفردوس الأمريكي التي لا تُقاوم، والتي أصبحت علامتها الصفراء المميزة بحرف «أم» باللاتينية يفوق عددها في بلدان أوروبا عدد الصلبان المعلقة فوق مباني الكنائس، وعدد الأهلّة فوق مساجد الخليج العربي مجتمعًا!!..ما أعجب تلك «الكوكاكولونيالية» الأمريكية التي تسعى لاغتيال الأحلام الصغيرة وتحارب حتى بائع العرقسوس والتمرهندي والسوبيا والخروب والليمون، الذي يجوب شوارع القاهرة ودمشق لترطيب قيظ الصّيف على المارّة!

أنتبه من غلّ المقهورين فجأة على لوحة مدهشة: ملامح غريبة وصوت ضعيف ودافئ لفتاة شابّة في أواخر العشرينيات تجلس على دَرَج مبنى موصد الأبواب، ترفع بيدها ورقة كتبت عليها كلمات قليلة باللّون الأحمر، وبجوار المكان الذي تجلس عليه هناك مطعم صغير يبيع السندوتشات، وبه طاولات قليلة بالداخل يجلس عليها الزبائن يتناولون أكلات سريعة وأمام البعض زجاجات البيرة، والبعض الآخر أمامهم العصائر والآيس كريم أو يرتشفون الأسبرسو. لم أفهم في البداية بماذا تمتمت الفتاة وماذا تعني تلك الكلمات المكتوبة على الورقة التي ترفعها في يدها؛ لكني بقيت أتابع ذلك المشهد بفضول.

خرج شاب من المطعم ومعه صديقته وأقبل على الفتاة وسلمها

كيسًا كرتونيًا بنيّ اللونِ وزجاجة مياه صغيرة ، سرعان ما أخرجت من الكيس سندوتشًا وتبادلت معه بعض الكلمات ، بوجه مبتسم وعينين مفتوحتين ولكنهما تنظران إلى تيه لامحدود.

وتأملت مجددًا الفتاة. سحر غريب يحيطها وأنوثة طاغية تنبعث من ملامحها برغم هيئتها الرثة ونظراتها الزائغة. بينما يبدو جلد رأسها أملسَ لامعًا، يتسلل من تحت قبعة من الصوف الباهت اللون، بشرتها مائلة إلى الشحوب، وهيئتها تنبيء بأنها خارجة للتوِّ من معركة حامية الوطيس.

لم تغب عن عيني تلك المرأة حتى بعدما إبتعدتُ عنها وإتجهتُ للجلوس على طاولة صغيرة في مقهى مجاورة، لاحظ النادل أن نظراتي تتابع المرأة، فبادرني بلكنة إنجليزية عادة ما ينطق بها أبناء أمريكا اللاتينية، وكأنه تضايق من تطفّلي، قائلاً:

– هذه السيدة مريضة وغير قادرة على توفير نفقاتها في ظل ظروفها تلك وهي تحتاج أكلاً وعصيرًا لأن الدواء قاسٍ على جسدها الضعيف وهي غير قادرة على العمل والكسب، فاعتادت الجلوس في هذا الشارع تطلب مساعدة المارة، وهناك غيرها بالعشرات يمرون بنا يوميًا.

شعرت بالخجل من ردِّة فعله الحادة على فضولي المُذنب. وطلبت قهوة أسبرسو لأصرف بسرعة الضيق الذي أربكني، وقد خطفت رائحة البن أنفي، وسحبت نفسا عميقا أملأ رئتي بالهواء الممزوج

بيـود المحيط الأطلنطـي، في نفس الوقت الذي كان النادل يسـحب القهوة من مكنة الأسبرسو في حركة روتينية.

خاطبت نفسي على الفور:

-لابد أن أشعر بالسـعادة والإمتنان لأني أتمتع بأسرة وأصدقاء يقفـون إلى جانبـي ويسـاندونني ويحيطوننـي بمحبتهم وعطفهم ويغمرونني بالعطاء بلا حدود ويشاركونني محنتي؛ فيخاصمون النوم إذا تألمت أو رفضـت الأكل ولا تهدأ أنفسـهم إلا إذا شـعروا براحتي وأغمضـت عيني مستسـلمة للنوم،هـؤلاء هم من يخففون عني مرضـي، ويطبطبـون جراحي، فتهون آلامـي وهم إلى جانبي وتدفئني مشاعرهم في لحظات احتياجي إليها.

مـا أعظم نعمة الحب التي لا يتمتع بها إلا من لهم نفس حظوظي! الرائعـة أحلام مسـتغانمي تقـول، إن الحـبّ وُجِدَ ليبنـي ويُجمّل ويسـند، لا ليهـدّ و يبشّـع و يدمّـر. لم أتوقـف من قبـل عند محطة النعمـة التـي تغمـرني دون أن أدري وحيثمـا قبلـت وجهـي . ربما تعاملت معه وكأنه تحصـيل حاصـل ولكني أكتشـف قيمته في هذه الأوقـات العصـيبة ، في حـين هنـاك من يصـارع المرض والعَوَز والوحـدة .مـا أقسـى المرض والفقـر والغربة حين تجتمـع معًا. إن المرض يشـتد عندما يتحمّله الإنسان وحيدًا لكن عندما يقتسمه

مع أفراد الأسرة والأصدقاء والزملاء يخفّ الحمل كثيرًا على قدر أعداد القسمة.

لابد لي أن أسعد أضعاف سعادة هذه الفتاة الوحيدة بذلك الطعام الذي تعطّف به عليها أشخاص لا تعرفهم وتظل تنتظرهم.. لابد أن أشعر بالأمان الذي غمرني به أهلي وأصدقائي بينما يفتقده آخرون ولابد أن أنقل بعضا من الأمان الذي أنعم به إلى من يفتقده.

وتذكرت عبارة قالتها في بداية مرضي الصديقة العزيزة الدكتورة هدى زكريا أستاذة علم الاجتماع السياسي وصاحبة الفضل في تنوير عقول الكثيرين من أبناء جيلي :

- إبحثي عن الحكمة من وراء الإصابة بالسرطان..فربما لم تتوصلي بعد إليها!

وقد ظللت منذ اكتشافي لمرضي أُخفي عن المقرَّبين من حولي الألم الجسدي والنفسي، فيكفيهم ما يعانوه جرّاء الأخبار السامة السياسية والاقتصادية التي تلت ثورات الربيع العربي، والغموض الذي يُخيّم على المستقبل والذي يربك الخطط الشخصية مع كل طلعة صباح. في أيام الغليان الغريبة هذه لا يحتاج أي شخص للمزيد من الأخبار المزعجة ولا إلى الوجوه العابسة التي «تقطع الخميرة من البيت» كما تقول جدتي!

فلا بد أن أبتسم أو أتصنعها حتى لا أُنكّد على أحبائي .

أحد أصـدقائي أحمد السرسـاوي الكاتب الصحفي بأخبار اليوم عاتبني لأني أخفيت عنه وعن أصدقاء آخرين إصابتي، قائلاً:

– خائفة على الناس كلهم أكثر من خوفك على نفسك!

..بل إن خوفي على أحبتي هو خوف على نفسي أيضًا !

التفكير في الأنا طول الوقت نقمة تسلط على النفس. كان وجودي في المنتصف بين إخوتي الأربعة في عائلة كبيرة العدد نسبيًا يربي فيَّ الإيثار .فنحـبّ ..ولا نرتاح أو يغمض لنا جفـن قبل أن نطمئن علـى مـن نحـبّ . وإذا تعب واحـد منـا أو أقضّ مضـجعه خطب مـا، نهبّ جميعا للمسـاعدة بما لا يخترق خصوصـيته ولا يفشـي أسـراره، وتلـك فضـيلة لا يعرفها إلا مـن تذوق حلاوتهـا .أما من تربّـى على الأنانيّة وتقديم النفس فمتعته قصـيرة لأنه لا يتجاوز ذاته . فمن السهل أن تكون أنانيًا لكن الأصعب العطاء وهو المقياس الحقيقي للحب . وقد ضاعف المرض من جرعات الحب التي غمرني بهـا المحيطون بي وربما تلك حكمة أدركتها مبكـرًا، ودفعتني إليها الدكتورة هدى زكريا التي طلبت مني البحث عن الحكمة والفائدة من وراء المصيبة. صحيح أن المصيبة موجعة جدًا ولكن لابد أنها لا تخلـو من فائدة وعبرة، وهذا ما نجحت هدى في أن تهديه إليَّ في رسائل قصيرة.

هل تُراني قاربت على الوصـول إلى شاطئ الحكمة التي نصحتني بالبحث عنها ؟!



انتبهت في تلك اللحظات إلى أنه مضى عليَّ وقت طويل دون أن أتَصِل بأسرتي في القاهرة وهي بالتأكيد يقتلها القلق على غيابي.

كنت تائهة طيلة الأيام الماضية في محاولة ترتيب المشاعر المتصارعة، وتعديل نشاز أوتار الموسيقى التي تعزفها روحي في كل حالاتها ،في حِدَّتها أو هدوئها، وفي قوتها أو ضعفها. هربت من كل تلك التناقضات إلى تصفّح روايات أحلام مستغانمي وبعضها قرأته عدة مرات ومع ذلك حرصت على جلبه معي من مصر ووضعته بجانب زجاجة العطر في شنطة السفر، فكلاهما عطر ملائكي يغري بارتكاب أكبر خطايا العشق. ربما وراء ذلك بحث تلقائي عن مداواة الجروح، فأحلام مستغانمي هي ملكة الكلمة العطر، العبارات لديها مبلّلة برحيق الزهور، ترتدي أفكارًا سينييه، وتبدو دائمًا في حُلَّة أنيقة زاهية كليلة عرس.

وانتبهت بين سطور روايتها ذاكرة الجسد، التي قرأتها أول مرة عام ١٩٩٨ بمناسبة فوزها بجائزة نجيب محفوظ، إلى أن ملامح

أحبّتي وأصواتهم وضحكاتهم تتراقص مدللة فوق الصفحات وبين السطور وكأنّي لم أغادرهم أبدًا.

أغلقت الكتاب وبحثت عن الموبايل، وسحبته بصعوبة من بين أدوية كثيرة تزدحم بها الحقيبة، وانتبهت إلى أني لم أشحن جهاز الموبايل منذ وصلت إلى لشبونة ولم يبقَ فيه إلا إشارة ضعيفة هي كالحبل السريّ الذي يوصله بالأم، لكنها ستكون كافية لأهدي صوتي لمن أحب.

- آلو.. كومون سافا سمورة..تي مو مونك بوكو ..

تلقائيا تقفز اللّغة الفرنسية إلى لساني أثناء المكالمة مع ابنتي ربما من وحي وجودي خارج الحدود ،ظلت العبارات المتبادلة حميمية متقدة بالأحاسيس، فكثيرًا ما أشعر أن اللغة الفرنسية ألطف اللّغات في التعبير عن المشاعر الحميمة، لدرجة أني تمنيت في تلك اللحظة أن تكون سمر معي وأرتمي في حضنها فكم من ابنة تتجسّد فيها الأمومة رغم طفولتها..! وسمر هي الصديقة الوحيدة التي أمارس معها رياضة عقلية نادرة، ألا وهي التخيل خارج صندوق الحياة الضّيق ، فالمخيّلة تحرر الإنسان من الواقع الضيق الحافل بالمشكلات والمتاعب وتنطلق به الى أفق رحبة وفسيحة، وللتخيل فضل كبير لأنه أسهم في تطور حياة الإنسان، وهو نشاط تحرري

بلا حدود ولا قيود وهو أيضًا رياضة لابد من ممارستها بشكل مستمر لأنها تجعل العقل في لياقة دائمة، وعندما أنطلق في التخيل أشعر بأني أطير بجناحين في أرجاء العالم الواسعة كما أشعر بحلاوة الحياة، وكلما حلقتُ أكثر فأكثر تتلاشى تدريجيًا علاقتي بقدميَّ الواقفين على الأرض وأشعر بحرية لا محدودة !

وصدق الحكيم الذي قال لتلميذه: نمِّ عقلك واشتغل عليه فهو الوحيد الضمانة التي ستغنيك وتجلب لك حب الحياة، فجوهر تقدير الذات يكمن في ثقة المرء في عقله وإقتناعه بأنه جديربالحياة.

أعدت التليفون إلى حقيبة يدي ،كم أعشق هذه الحقيبة البنيّة فقد طالت صداقتنا ومضى وقت دون أن أمنحها راحة..! ويعود ذلك لقصة طريفة.

لقد كنت أحمل هذه الحقيبة منذ أول يوم في الثورة المصرية وهو يوم ٢٥ يناير، ولازمتني إلى يوم إعلان تخلّي مبارك عن السلطة في ١١ فبراير . ومع كل صباح جديد عندما كنت أهمّ بمغادرة المنزل والإلتحاق بميدان التحرير كنت أنظر إليها مليًا وأفكّر في أخذ أغراضي منها ونقلها إلى الحقيبة السوداء أو زميلتها الرمادية، ولكن سرعان ما أتراجع وأعيد الأغراض إلى داخلها في حركة لا إرادية ،هامسة لنفسي: «لن أغيرها الا بعد سقوط مبارك».

إنه أمر مضحك لما أسترجع تلك اللحظات وأعيد تصفّحها، فهناك أشياء صغيرة قد تبدو بلا معنى لكننا نتعلق بها من فرط يأسنا كمن يتعلق بقشة. كم أستغرب تلك العلاقة الشَّرْطية التي أقمتها بين تغيير حقيبة اليد وبين سقوط مبارك ..! والأكثر غرابة اني تعمدت أخذها معي عندما سافرت لتغطية الثورة الليبية ،وعقلي الباطن يقول: «سقط مبارك وأنا بنفس الشنطة وسنذهب سويا إلى ليبيا وسيسقط القذافي !» وعندما حكيت القصة لزملائي المراسلين، اقترحوا أن أسافر بالشنطة إلى اليمن وسوريا حتى يعجل بشار وصالح بالرحيل!

هكذا الإنسان كائن غريب الأطوار، يرتفع بطريقة تفكيره إلى مراتب سامية من الأنساق العلمية والموضوعية، ومع ذلك قد يحتفظ بأشياء صغيرة تبعث في نفسه التفاؤل والارتياح أو التشاؤم والنفور ، وتوصله إلى أنفاق خرافية، من المفترض أن يقطع معها نهائيًا كلما زاد من العلم درجة!

ألم تكن شقيقتي «كرومة »-رحمة الله عليها- تكرر على مسمعي ضرورة ألا يتقيد الإنسان بالتفكير العلمي في كل مناحي حياته؛ وإلا سيتحول كل شيء إلى حسابات دقيقة وتصبح العيشة خشنة مملّة. كانت إنسانة نادرة الوجود. أخت وصديقة أشعر في أحيان

كثيرة إنها تُكْبرني وتقودني وتُسْدي لي النصائح، رغم أني أكبُرها بنحو أربع سنوات ،لكنها تتمتع بشخصية قوية تضفي عليها وقار السنين ،مع عاطفة طاغية وحنوّ غامر.

دخلت الغرفة في فندق ألتس، وفتحت مباشرة النافذة لأستنشق نسمات ليلية تتصارع لتوديع الربيع وتستقبل الصيف وألقي نظرة على خارج النافذة.

ما أجمل الذوق المعماري الكلاسيكي للفندق الواقع على ربوة مكسوّة بقطيفة من الخضرة ومحاط بسياج من أشجار الفلِّين! وددت لو بقيت أملّي نظري بهذا المنظر البديع وقتا أطول لولا أن لسعة خفيفة نفضتني فانسحبت بسرعة للداخل، وتذكرت أني مازلت في مرحلة النقاهة ولابد أن أحافظ على هذا التحسّن خوفًا من الانتكاسة .

فتحت الكمبيوتر وبحثت في ملفات الأغاني، وقلبتها ملفًا ملفًا واستمعت إلى مطالع من أغانٍ عديدة، وما تلبث أن تبدأ حتى أغيِّرها إلى أن عثرت على ذكرى محمد تلك الفنانة الراحلة التي يعشقها بابا رشيد وهو الذي دفعني إلى اكتشافها والاستمتاع بها ثم الغرام بها ،حيث كان والدي مرهف الإحساس،بمجرد أن يستمع إليها وهي تشدو أغنية من أغانيها حتى تلهب مشاعره.

لاحظت مرة أن دموعه تنهمر كمطر الشتاء في غابات زيتون تونس، وهو يتفرج على التلفزيون التونسي الذي يبث إحدى حفلات ذكرى في ليالي مهرجان قرطاج ،إنتبهت وأنصتُّ، فلا يمكن أن تتحرَك مشاعره إلاَ لو كانت معجونة بالفن ،حقيقية وصادقة.

وأصبحت ذكرى صديقتي ورفيقة السفر، أغنياتها لا تفارق سيارتي وجهاز الكمبيوتر، تلبسني حالة فريدة بمجرد انبعاث صوتها النادر المليء بالشجن يضيء حجرات ذاكرتي بأمواج النور ولهفة الحنين..رحمة الله عليها ..كأنها كانت تبكي حياتها القصيرة ونهايتها المفجعة والغامضة. وجدت أغنية طالما أحببتها ودغدغت عقلي ومسحت دموع أحاسيسي. نقرت على قرص التشغيل فانبعث صوت ذكرى وكأنها لن تموت أبدًا:

مش كل حب بينتهي تبقي انتهت بعده الحياه ..

ولا كل قلب بينجرح بيقضي عمره في نار وآه

كل اللي عدى بيتنسي ويفوت قوام ويفوت قوام ويضيع صداه..

ده القلب في جرحه دواه

مابقتش بغرق في البكا على أي شيء سابني وراح ..

مابقتش أخاف لا من زمن ولا من طريق ولا من جراح

كل الدموع كل الجراح مسيرها تاخد وقتها

هابدأ حياتي من جديد وكأني عمري ماعشتها

مين ده اللي يرضي بغربته لو قابلته سكة رجوع؟

مين ده اللي ينسى فرحته دي الفرحة بتنسٍّي الدموع؟

هو الجرح صعب في أوله والليل طويل والشوق هوان..

بس النهار لازم يبان.

أخذت أردد كوبليه الأغنية مع صوت ذكرى:

-هبدأ حياتي من جديد وكأني عمري ما عشتها ... هبدأ حياتي من جديد وكأني عمري ما ..توقفت عند هذا الحد لأن الكلمات تقطعت في حلقي مختلطة بالدموع، وهمست لنفسي :

-آآاااااااه ....آآااااااااه هو النهار ممكن يخلف وعده وميطلعش؟

أفتح بريدي الإليكتروني قبل أن أغادر الغرفة لأتفقَّد الرسائل التي وصلتني ثم أفتح الفيس بوك، لأطمئن على الأصدقاء والأحبة، فهو الإطلالة التي تدفئ الروح بعبير أخبارهم دون صعود طائرة ولا إبحار في مركب الزمن.

قررت اليوم وعلى غير العادة ألا آخذ الكمبيوتر معي لأني لن أستطيع حمله. فقد حدث ما كنت أتفاداه ، انتفخت ذراعي وتورمت أصابعي بعد أن أرهقتُها بالأمس وتناسيت تمامًا تحذير الطبيب بعد العملية الجراحية.

النصيحة الدائمة من الأطباء والمرضى السابقين بألا أرهق يدي بحمل أي ثِقل وألا أقربها من الموقد فأتفادى تعرضها للنار في المطبخ، لأن إزالة الغدد الليمفاوية تؤدي إلى تجمع السوائل الليمفاوية في الذراع، وهي حالة يطلق عليها الأطباء الوَذَمة الليمفاوية.

بحثت عن الجورب الطبي وألبسته اليد بكاملها، فعادة ما كان يخفُّ التَّورمُ والألم عندما أجبسه في الجورب.

ورغم التمارين الخاصة التي كنت أداوم على القيام بها وبصعوبة شديدة منذ عملية الاستئصال، فإني مازلت أشعر بخلل في توازني الجسدي نتيجة عدم التوزيع المناسب للكتلة، كما أن آلامًا في الرقبة والظهر تلازمني ومازال يخيفني مشهد الجلد المتقلص والمتصلب في منطقة صدري وفي عضلات الذراع والكتف رغم مرور عدة أسابيع على العملية. كما إن تضرر الأعصاب أثناء عملية الاستئصال تشعرني بلسعات كهربائية وافتقار للحس في منطقة الصدر والذراع.

ويبدو أن الدكتور علاء كان مفرطًا في التفاؤل عندما أكد إن معظم النساء اللواتي خضعن لهذه العملية يتخلصن من معظم الآلام والمشكلات خلال عدة أسابيع قليلة، ولربما قال ذلك من باب التحفيز للهمَم أوقد أكون لم أُحسن الاستماع فعلى الأرجح قال خلال عدة أشهر.

لكن محاولات اجترار ما جرى وتكرار استعراض السيناريوهات الماضية والقادمة قد يعطل عملية الشفاء، فالدكتور أحمد عكاشة الطبيب النفسي المعروف يذكر قولا مأثورا: «لا تفكر في المفقود حتى لا تفقد الموجود». فلابد أن أحاول التوقف عن اجترار قصة ما فقدته، واستحضار الآلام المترتبة عن هذا التشوه الذي أصابني، حتى لا تجرّف بصماته عقلي وخيالي.

الأخبار في الفيس بوك أنستني هواجسي وصرفتني عن الإحساس بالألم المبرِّح باليد.

أقرأ على الوال مطلع قصيدة يوسف رزوقة الشاعر التونسي بعنوان رسالة إلى حكام يعشقون الكراسي، من وحي ثورات العرب:

هي لا تحبّك، لن تحبّك، وهي تحتك، تستغيث ، ارحل إذن، لا أنت فارسها القديم، ولا الوريث، كلاكما كلب بلا قلب، لذا هي لا تحبّك، لن تحبّك وهي تحتك تستغيث، ولن تحبّ تنازلات منك،

بعـد تردّد، ليحبّها ذاك الوريث، لمَ العناد ؟ أما قرأت اللافتات؟ ألم ترَ الآلاف من عشّـاقها، هبّوا خِفافًا، هائمين بحبّها، وتجمهروا من أجلها؟ أتحبّها؟ أتحبّها حقًّا؟ دع الكرسيّ ذاك، وقل لها: عفوًا، ومُتْ كي لا تراك، فأنت خائنها.

عادت قريحة يوسف رزوقة إلى الإبداع المنتفض، ليمزج بأسلوب قباني بين المرأة المغتصَبَة والوطن الجريح الذي يئن تحت براثن حكامه.

تذكّرني هـذه الأبيـات بقصـيدة القدس عروس عروبتنـا لمظفر النواب، كنت أجيد إلقاءها خلال الأمسـيات الشعرية والفنية التي يقيمهـا الطلبة بالجامعة، وبحماسـة تصـل أحيانًا إلـى الانتحاب على ما وصـلت إليه أحوال العرب في ظل تفريط الحكام وخيانتهم لعروس العروبـة الأرملـة البكـر المغتصـبة فلسطين الحبيبـة. وهـذه القصـيدة ربما هي الأشـهربين أبناء جيلي، وقـد يعود ذلك إلى عنوانها الأصـلي الجـريء «أولاد القحبة»، وأحفظ مقطعًا من القصيدة مازالت الذاكرة تتغنى به عن ظهرقلب:

القدس عروس عروبتكم

فلماذا أدخلتم كل زُنَاة الليل إلى حجرتها

ووقفتم تستمعون وراء الباب لصرخات بكارتها

وسحبتم كل خناجركم

وتنافختم شرفا

وصرختم فيها أن تسكت صونًا للعرض

فما أشرفكم !

أولاد القحبة هل تسكت مغتصبة؟

أولاد القحبة

لست خجولاً حين أصارحكم بحقيقتكم

إن حظيرة خنزير أطهر من أطهركم

تتحرك دكة غسل الموتى أما أنتم

لا تهتز لكم قصبة

الآن أعريكم

في كل عواصم هذا الوطن العربي قتلتم فرحي

في كل زقاق أجد الأزلام أمامي..

الشعراء نبض الأوطان، ولأنهم مرهفو الأحاسيس، فقد حبلت قريحة الشعراء العرب بقصائد عديدة بعد أن كاد بعضهم أن

يصـاب بالعقـم، وأولـدت ثـورات الربيـع العربـي «كوكتيل» من المشاعر المتداخلة فأبكتنا تارة، وأسعدتنا أخرى.

هذا الكوكتيل البديع يتفرد به أيضًا الخال عبد الرحمن الأبنودي، وقد جادت قريحته بقصيدة مطولة عنوانها «لسه النظام مسقطش» تناقلتهـا كل وسـائل الإعلام لدرجـة أن محمود سـعد المذيع ذائع الصـيت خلال السـنوات الأخيرة أرسـل له كامـيرا في المنزل نظرًا لمرضـه وعدم قدرته على الحركة وسجل القصيدة بصوته وبثتها قناة التحرير من خلال برنامج «في الميدان».

والقناة والبرنامج نفسـه مسـتوحيان من ميـدان التحرير ميدان الثورة المصرية، فالثورات تعيد للشعر عرشه، وتصبح القصيدة خبرًا في الصفحات الأولى للصحف، وتقول المقدمة:

أول كلامي..أهني الشعب أبو الثوار

اللي خلق ثورته..تحت الرصاص والنار

اللي فرض كلمته..عالحاكم الجبار

ساقهم طابور للعدالة..للندالة عقاب

فضح جميع اللصوص..ورا شيخهم الكداب

طلع حاميها حراميها..طلع نصاب

الملعونين – لا شماتة– في كل لوح وكتاب

وع العدالة البطيئة..لينا ألف عتاب

فساد بيلضم رئيس بوزير على نواب

اترصُّو كما سور..حجب عن مصرأي نهار.

أغلقت الفيس بوك والهوت مايل، فقد تسربت إلى داخلي هواجس تحذرني من خطورة الاستسلام لكلام الشعراء الذي يطير بنا محلقًا في سماء الأحلام الوردية. قررت على الفور أن أغلق الكمبيوتر حتى لا تستغرقني متعة قد أصحو منها باصطدام مفاجئ في غيمة ملبدة. لبست أبهى الملابس وأخفها وانطلقت حتى لا أضيع فرصة مهمة ربما تكون الأخيرة لأتجول في شوارع لشبونة.

كانت أغنية من الأغاني المميزة جدًا والقديمة للمطرب الفرنسي ميشال ساردو تنبعث من داخل مقهى صغير ينزوي في ركن منها عجوزمستديرالوجه محمرّ الوجنتين. عذوبة الأغنية تصل إلى مسامع كل من يمر من أمام المقهى..إنها أغنية «مرض الحب»، يحفظها أبناء جيلي خاصة الفتيات ،تعيدني بالذاكرة إلى سنوات الدراسة في الإيكول نورمال سوبيريوربسوسة في بداية الثمانينيات عندما كانت صديقتي سارة التي يطلق عليها «البَلدية»– نسبة إلى أصول عائلتها من العاصمة تونس– تدير الشريط في جهاز

التسجيل في غرفتها مع بداية تجمّع الفتيات ليلاً للدراسة. كنا نسكن في عمارات خاصة بإسكان الطلبة، داخل أسوار المدينة الجامعية فنستمع الى مجموعة مميزة من أشهر الأغاني الفرنسية في تلك الأيام ونتهاتف على المرح والحكي والجدل السياسي.

الجو السياسي في الجامعات التونسية بداية الثمانينيات محتدم والعنف حل بديلا للحوار بين اليسار وحركة النهضة. وأمام صعود التيار الإسلامي فإنه يحاول السيطرة على دفة القرار الطلابي. واستمد قوته من دعم السلطة له في السبعينيات بعد لعبة معروفة لعبها محمد الصياح الوزير المقرب لبورقيبة عند توليه إدارة الحزب الاشتراكي الدستوري من ١٩٧٣ إلى ١٩٨٠؛ حيث دعم الأصوليين في مواجهة التيارات اليسارية. والصياح هو صاحب مبادرة إنشاء جهازميليشيات أمنية يسمى«الفيجل»-«vigile»الذي سبق الأمن الجامعي تحت تَعِلّة أن اليساريين استولوا على الجامعة التونسية في السبعينيات. ولم تكن تلك الأحداث ببعيدة عما كان يدور في مصرفي أيام حكم السادات عندما قرَّب قوى الإسلام السياسي وأخرجهم من القمقم، ثم انقلب السحر على الساحر وقامت الجماعة الإسلامية بتصفيته واغتالته في مشهد مَهِيب. ولم نكن كطالبات بعيدات عن الجدل السياسي والفكري الدائر في البلاد وفي العالم العربي في تلك

المرحلة المحتدمة من صـراع الشـعوب العربية في سـبيل استقلال موقفها عن الإستعمار الجديد. وكان الطلبة على إختلاف مشاربهم واتجاهاتهـم يجتمعـون للدراسـة ولكن يقضـون معظـم الوقت في المناقشات الطاحنة.

لقد وصـل بورقيبـة إلى محطة أخيرة. وَهَنت صـحته وتجاذبته زوجته ،وسـيلة بن عمار، تارة وإبنة أخته ،سـعيدة بن ساسـي، تارة أخرى وأصبح يصدر القرارات صباحا ويغيرها مساءًا.

زمـلاء النضـال الطلابي مـن القوى القومية واليسـار الماركسـي سهير ونجيب وشافية وآمنة ومنتصر ورياض وغيرهم لم يوحدنا الهدف المتمثل في التصـدي للتيار الإسـلامي الذي مد أذرعه بشكل واسـع بالجامعة التونسـية لدرجة اسـتعراض القـوة، وهو زهو الضـعفاء، فيمنع فتح المطعم الجامعي في شـهر رمضان مستخدما السلاسـل الحديدية والأسـلحة البيضـاء، ويأمرون المرضـى بأن يسـتتروا ويتناولوا الطعام في غرفهم. وتصدى لدخول الطلبة إلى المطعـم كهنة النهـي عن المعروف والأمـر بالمنكر، أصـحاب أفكار العقاب بالجلد والرجم وقطع اليد والرقاب، وعبثًا نحاول إقناعهم إن الإسلام لا كهنوت فيه ولا رجال دين بل علماء وفقهاء لا يحملون السيوف والعصي بل سلاحهم الكلمة ..

لكـن هيهـات، لقد وصـل العنف حدّ اسـتخدام قياداتهـم مختـار.. رضـا.. وهاشمي، السـكاكين والملاعق والشوك لضرب المعارضين لهم وإمتنعت منذ ذلك التاريخ إدارة المطعم الجامعي عن مد الطلبة بأدوات المائدة خوفًا من إستخدامها في ضرب بعضهم البعض.

وشـكلت الجامعة المكان الساخن لإدارة الصراع بين المجموعات السياسـية التي هي امتداد لتيارات سياسـية نشطة خارج جدران الجامعة.

ورغـم هـذه الأجواء السياسـية السـاخنة والنزعـة نحو تغليب التطـرف الدينـي، إلا إننـا لم نستسـلم أو نتراجـع عـن النشـاط الثقـافي والرقص والغنـاء وإحيـاء الحفـلات بأغاني الشـيخ إمام عيسـى ومرسـيل خليفة وفرقـة الميادين وأولاد المناجم والبحث الموسيقي، بل الذهاب أحيانًا إلى مرقص للاحتفال بعيد ميلاد أحدنا عندما نتقاضـى أول الشهر المنحة الطلابية. ولم تتراجع مساحات الثقافة والفنون في حياتنا الطلابية وعندما يعوزنا المال نستمتع في المبيت الجامعي على طريقتنا بسـماع الأغنيات وإقامة الحفلات. وكان يطلق بعضـنا على الصـديقة سـارة وزيرة الفنون والثقافة الفرنسـية من باب المشاكسـة؛ لأنها جاهزة دومًا بأحدث شـرائط التسجيلات الغنائية!

ولم تكن هذه التسـمية تسعدها، فهي تشعر بأن إنتماءها الوطني والعروبي لا غبار عليـه، لكن لا يمنع ذلك إتقانها اللغات الأجنبية

بمـا في ذلـك الفرنسـية وغرامها بـالأدب والفنون العالميـة. وكانت تشـع بتلـك الثقافـة، وأسـتعين بدورهـا التثقيفـي لأحفـظ بعض الأغاني الغربية التي تعجبني. وأشهر الأغاني الرومانسية «السلو» في جيلي أيامها كانت كلماتها تقول:

طفلتي أرجوك لا ترحلي، أنا أحبك كثيرًا وأرجو أن تعلمي ذلك،

هاي هاي هاي هاي

إني أحتاج إلى حبك إني أنحني على ركبتي

أستجديك أرجوك، أرجوك لا تذهبي..

لم تختلـف حياتنـا الجامعية في تونس كثيرًا عن حياة الشـباب في أماكـن أخـرى من العالم، مشـاعرنا تطير كالفراشـة متنقلة بين الأزهـار تبحـث عن الحـب والبهجة، وثورة الأسـئلة تشـتعل في العقـول، تراكـم الدهشـة وتفـكك الغموض، ولا شـيء يسـلم من عاصـفة السـؤال، «..كل شـيء يبدو كل يوم وكأنهـم يرونه للمرة الأولى».

كان التيار الإسـلامي يتسـلَل إلى الجامعات ويستشـعر القوة في ظل وجود القوى السياسية الطلابية المعادية لتوجهه، ولم يستطع الحـوار أن يفرض لغة للتواصـل، بـل شـكَّل العنف بكل أشـكاله

المظهر الوحيد الذي أسـهم في تنفير العديد من الطلبة من المشاركة في القضـايا العامـة، وكان من الملاحـظ أن الاتجاه الاسـلامي بدأ يحظـى بمسـاندة من البعض نتيجة مَدِّ يـد المسـاعدة إليهم. كان أعضـاء الحركة ينتظـرون الطلبة في محطة القطار عند وصـولهم مـن مدنهم وقراهم إلى المدينة التي سيدرسـون فيهـا. أغلبهم قادم مـن مناطق ريفية مترققة الحـال يحتاجون إلى المسـاعدة المادية والدعـم المعنـوي، وينالونه بالجملة قبـل أن يطلبـوه. أما البنات فطريقهـن معـروف، الشـباب الذين لديهـم قبول وحلاوة اللسـان يتجهون نحو تلك الفاتنات ويبدأ الاستقطاب بادعاء الحب وإتباع سلوكيات العشاق كأول خطوة لاستمالتهن مع الاتجاه الإسلامي، علـى أن يكون الهدف النهائـي هو إدخال الفتاة في هذه الحركة بعد إقامـة حفل يتـم فيه إلباسـها الحجـاب، ثم يذوب ذلـك الحب كما يـذوب الثلـج من فوق قمة الجبل مع بدء فصـل الصـيف، فلم يكن حبا صـادقا بل مؤامرة رخيصة لاسـتقطاب الفتيات. وقلما يحدث تراجـع من الفتاة عـن ذلك المنحى، ربما لأن الأدلجـة تأخذ طابعا عاطفيـا يغلف القلوب الباحثة عـن الطمأنينة بالروحانيات قبل أن تمر إلى مرحلة التكليفات والمهمات السياسية. وقد تعرضت بدوري لمثل تلك المحاولات المسـتميتة من الاسـتقطاب وبنفس الوسـيلة: ادعـاء الحـب والغرام. لكني تعـودت على طرح الأسـئلة الكثيرة

دون حدود، وتلك من الصفات الكريهة لدى قيادات هذه الحركة!

كنت وغيري كثيرون من أبناء جيلي نعشق الانطلاق والحرية وركوب المغامرة وتلك مقومات سريعًا ما تتصادم مع السمع والطاعة. وهكذا كل الخيوط تُنسج حتى تكتمل زربية الوطن، لكنّ حكام الوطن وأعداءَه كانوا يغلقون نوافذ الدهشة ويجهزون أكفان الموتى. بدأت قرارات التضييق على النشاط السياسي داخل أروقة الجامعة وحظر الأنشطة المحفِّزة على السؤال والمعرفة، أما إذا كان النشاط عن القضية الفلسطينية فالأمر يستدعي موافقات من مجلس الكلية، واجتماع مجلس الكلية أصعب من انعقاد مجلس الأمن!

أذكر ذات مرة أن إدارة الكلية رفضت استضافة معرض فلسطيني وندوة حول تهويد القدس بمناسبة يوم الأرض ٣٠مارس والمتحدث الرئيس بها سهيل سليمان، وهو صديق عزيز من الطلبة الفلسطينيين القليلين الذي يمثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في تونس ويدرس الطب بكلية الطب بصفاقس، وانفتحت المواجهات مع المسئولين في الكلية الذين يجربون كل أنواع التعنت وكسر الإرادات بالتهديد والوعيد، لكنني لم أستسلم، بل دفعني الحماس والتحدي إلى تجاهل تلك التضييقات وأشرفت على تنظيم الندوة

والمعرض واستضافة المتحدثين الفلسطينيين. وبالفعل لم يستسلم الناشطون «الوطنيون الديمقراطيون-الوطد» والقوميون وعدد من القوى اليسارية الأخرى إلى المحاولات المستميتة لتسطيح عقل الطالب، بل كانوا يقيمون الأنشطة المختلفة رغم العقوبات التي تُسلط عليهم بعد ذلك. سهيل كان خطيبا مفوهًا وأديبًا تقطر الكلمات وطنية على لسانه، وكانت لديه حكمة يستحضرها عند مشاهدة الاعتداءات الإسرائيلية على أهله في الأراضي الفلسطينية تقول: «الضربات القوية تهشم الزجاج فقط لكنها تصقل الحديد».



الضحك في وجه الموت!

سأحطم الحجر، وأنفذ بين ثنايا الصخور وأفيض على الأرض وأملؤها نغمًا، سأنتقل من قمة إلى قمة، ومن تلّ إلى تلّ، وأغوص في وادٍ وواد، سأضحك بملء صدري وأجعل الزمن يسير في ركابي..

طاغور

لا بديـل عـن تنفيذ بروتوكول العلاج بشـهادة الطبيب الفرنسـي ...وأطباء مصـريّين إخترت من بينهم الدكتور حمدي عبد العظيم للإشـراف علـى مراحـل العـلاج . والبروتوكـول هـو المصـطلح المتـداول علـى ألسـنة أطبـاء الأورام والمقصـود بـه مجموعـة العلاجـات والأدوية التـي تُنفذ وفقًا لمرحلة زمنيـة معينة. ولعلها تسـمية مستترة تخفي كل المتناقضـات التي تحطم أعتى القوانين والبروتوكولات!

والسـرطان بأنواعـه التـي تتعـدى المائـة نـوع لـه مجموعة من بروتوكـولات العـلاج المتعارف عليهـا على مسـتوى أطباء العالم تتحدد وفقا لتحليل الأنسـجة أو ما يسمى تحليل باثولوجي، الذي يُجـرى على الـورم بعد استئصـاله، ويتضـمن البروتوكول عادة جلسـات العـلاج الكيمائـي والإشـعاعي ثـم الهرمـوني، وفي بعض الأحيـان يتم الاكتفاء بواحد من هـذه العلاجات أو أكثر، وقد حدد الطبيب الفرنسي البروتوكول بالنسبة لي. لكن الدكتور حمدي عبد العظيـم قرر بعد طلب تقرير إضـافي من طبيـب التحاليل (الدكتور إليّا) أن يغير عُقارًا من العقاقير المستخدمة في العلاج الكيماوي أو كما يطلق عليه «الكيمو» اختصارا للكلمة الإنجليزية كيموثيرَبي وهو المرحلة الأولى من العلاج بالنسبة لحالتي.

وشغلتني ليلَ نهار الآثار الجانبية للعقاقير وبماذا يشعر المريض خلال العلاج الكيماوى، وقد طرحت الأسئلة على صديقتي في الكفاح ضد المرض إبتسام التي يعود لها الفضل في تماسكي وتجاوزي لأصعب اللحظات ، فمن خلال تجربتها التي بدأت مع المرض في ٢٠٠٧ استطاعت أن تنير لي مسيرتي مع السرطان وتحذف من أمامي العثرات وتختصر طرقًا طويلة ومشاعر شديدة القسوة. أجابت سومة بلغة الخبير والمجرّب الذي يتلمّس صدق الطبيب مع رحمة الملائكة:

- في العادة هناك ألم بسيط مصاحب لحقن عقاقير الكيماوي، التي تسبب إحساسًا بالحِكَّة والحرقة عند الحقن في الوريد ودوخة وغثيان وخمول في الجسم، ورغبة في دخول متكرر للحمام مع إسهال وقيء أحيانًا. لكن العلم يتطور والأدوية الجديدة خففت كثيرًا من مخاطر حدوث هذه الآثار الجانبية فأصبح هناك مضادات للغثيان والتقيؤ وتوضع مع الجرعة لتجاوز الأعراض، وفى الأحوال سيكون الطبيب وطاقم التمريض بجانبك لإبلاغهم عن أي شيء تشعرين به. كما إنني لن أتركك أبدًا وسأصاحبك في كل الجلسات. وهذا ما تم بالفعل. كانت سومة تصاحبني هي وزوجي إلى المستشفى في موعد كل جرعة جديدة، ولم تتركني حتى عندما كانت تفاجئها ظروف عائلية تستدعي سفرها إلى

مسقط رأسها كفر مويس التابعة لمركز بنها، حيث كان زوجها قد قرر ترشيح نفسه في الانتخابات البرلمانية. وحامد محام حر قضى قرابة ثلاثة عقود في العمل بدولة الكويت دون أن تنقطع صلاته بالوطن فظلَ قياديًا في حزب الكرامة الناصري، ولم يبخل على الحزب وأنشطته بأي مساندة أو تمويل فهو مثال لنكران الذات. ونفس الشيء أيضًا في بلدته كفر مويس حيث يحظى بحب وتقدير الناس فلم يبخل يومًا على أحد بمساعدة أو دعم مالي أو معنوي، كما استطاع أن يحظى بشعبية كبيرة في القرى والمراكز المجاورة ومد يد العون لأبناء الوطن من العاملين في الكويت ولم يتردد في نجدتهم عندما يتعرض أحدهم لمشكلة معينة. وكانت إبتسام تُستَدعَى لتأدية واجبات إلى جانب زوجها في هذه الظروف، حتى إن مها صديقتنا المشتركة أطلقت عليها زوجة سيادة النائب منذ أن علمنا رغبة حامد بترشيح نفسه. وكانت سومة في قمة الانشغال مع حامد في الدائرة طيلة الشهور التسعة التي سبقت الانتخابات، لكنها كانت تقطع زياراتها إلى البلد وتعود على وجه السرعة في موعد الجرعة.

وقبل البدء في تنفيذ بروتوكول العلاج وتناول أول جرعات الكيمائي عقد الدكتور وسام الطبيب المتابع لحالتي في مركز القاهرة للتشخيص المبكر للأورام أول جلسة لشرح مختلف الخطوات التي

يمر بها المريض، وحدد عدد الجلسات العلاجية التي يفصل بينها عادة فترات راحة حددها بثلاثة أسابيع، وقبل الجرعة بيوم واحد يستلزم القيام بعدد من التحاليل، كما يستلزم أخذ نوع من العلاج بالحقن لرفع مناعة الجسم. والجلسة الواحدة تستغرق من ثلاث إلى أربع ساعات.

وأعرب الطبيب عن أمنيته بألا تحدث أية أعراض تستدعي المبيت بالمستشفى، ونصحني بأن أستعد لتمضية عدة ساعات في العيادة ووعد من جهته ببذل كل الجهد لتوفير سبل الراحة.

ثم سألني عن تاريخي المَرَضيّ وإن كنت أتناول بعض أنواع الأدوية التي قد تتعارض مع العلاج الكيميائي، مشددًا على إنه من الضروري أن يعلم أسماء كل الأدوية التي أتعاطاها بما في ذلك الفيتامينات وأدوية البرد وأدوية الحساسية والمسكنات وحتى الأعشاب، وأسباب استخدامها وعدد مرات الاستخدام حتى يتمكن من معرفة إن كان هناك تعارض بين تلك الأدوية والعلاج الكيميائي وما إذا كان علي التوقف عنها حتى نهاية العلاج.

وطمأنني في الأخير بأن العلاج الكيميائي لن يصيبني بالتعب، وكتب عددًا من التحاليل المطلوبة قبل البدء في تنفيذ بروتوكول العلاج.

ولم يُسْهب الدكتور وسام كثيرًا في توضيح الآثار السلبية المصاحبة للجرعات، وإنما قلَل من تلك التأثيرات على العادات اليومية مؤكدًا إن المرضى الذين يتلقون علاجًا كيمياوئيًا يعيشون حياة طبيعية ويتابعون أعمالهم ويرعون عائلاتهم ويذهبون لقضاء شؤون حياتهم وأداء نشاطهم الاجتماعي . ولكنه استدرك ليوضح قائلاً:

- أعلم إن معظم الأطباء يشجعون مرضاهم على أن يكونوا نشيطين قدر الإمكان، يتلقون العلاج الكيميائي بوصفهم مرضى خارجيين، وليسوا مقيمين، ولكني أفضل أن يخضع مريضي لراحة تامة وأن يعمد إلى تخفيف النشاطات اليومية، والحصول على إجازة من العمل لتوفير الظروف الملائمة لتحقيق الاستجابة المأمولة من العلاج ، نظرًا لأن مناعة المريض تكون ضعيفة وتعلو كريات الدم البيضاء على حساب الكريات الحمراء. وصمت الدكتور وسام لبرهة ثم نظر إليَّ متسائلاً إن كان لديَّ أي استفسار. فأجبت :

- أعلم إن للعلاج الكيميائي بعض المخاطر والتي تكون صعبة ومزعجة للغاية..

ولم أسترسل في السؤال، التقط الدكتور وسام طرف الحديث،

وأكمل بالعبارة مبتدئا بالديباجة التي اعتدت على سماعها حتى كرهتها:

- اطمئنـي موش عايـزك تقلقي خالص، فالبعض فقط هم من يتعرضون للآثار الجانبية للكيمو ولكن معظم الناس لا يشعرون بشيء على الإطلاق. وستقتصر الآثار على تساقط الشعر في الجسم وخاصة في الرأس، وهناك بونيه ثلجي ممكن ارتداؤه أثناء الجرعة وهو يحدُّ من تساقط الشعر عند البعض لكن ليس ذا فاعلية بنسبة ١٠٠٪ لدى جميع الحالات، وعمومًا الشعر سوف يعاود النمو مجددا بعد انتهاء العلاج وبشكل أجمل.

قالها وهو يبتسم، ثم أضاف:

-لا يمكن الجزم بالصعوبات والآثار الجانبية التي قد تحدث لكل مريض فذلك يعتمد على كيفية تقبُّل الجسم لجرعات الكيماوي. والضعف العام أو فقر الدم له حل ..فقد نعطي دمًا للمريض، لكن مهما تكن تلك الصعوبات فلا يجب التوقف عن العلاج والمهم إن تلك الآثار الجانبية سوف تزول بمجرد الانتهاء من العلاج فالخلايا السليمة تستطيع إصلاح نفسها. ومن المهم الإكثار من شرب السوائل وخاصة الماء والعصائر الطازجة وفي مقدمتها العنب والتوت والجزر بالكرفس للتخلص من السموم؛ وأيضًا

من المهم أكل كميات قليلة من الطعام الصحي وبعدد مرات كثيرة.
كان الدكتور وسام على الدوام حريصًا على التعامل بودٍّ ورُقيٍّ وبإيجابية في كل المرّات التي زرته في العيادة وفي المستشفى وأسرني بدماثة خلقه وإنسانيته؛ حيث يحرص على الاتصال بنفسه للإطمئنان على حالتي خلال الأيام التالية للجرعات، ويقترح بعض الأدوية أو تعديل نظام الحقن الخاصة بالمناعة إذا ما كان الإعياء كبيرًا. وقد استطاع أن يُنْسيني السؤال المهم الذي شغلني بعض الوقت عن سر غياب صاحب المركز الدكتور حمدي، والذي يقصده المرضى ويدفعون له أموالاً طائلة للعلاج دون أن يلتقوه إلا مرة واحدة ربما لا تتكرر أبدًا.



دخلنا غرفة مركز علاج الأورام الساعة الثالثة بعد الظهر، وعبرت سومة عن التفاؤل والارتياح لديكور ومفروشات تلك الغرفة التي تصادف أن أغطيتها وستائرها الفستقية المبهجة، ذات اللون المفضل لديَّ.

دخلت ثلاث ممرضات إلى الغرفة، إحداهن توَلَّت رش المخَدّر فوق البورت كيس، والثانية انشغلت بتحضير الحامل والمحاليل، بينما الثالثة كانت تفتح أمبولاً وتحقنه في زجاجة المحلول الملحي.

عبَّرت لي الممرضة الأولى عن توقعها بأن تكون الجلسة سهلة بفضل وجود البورت كيس في صدري الأيمن لتوصيل العقاقير إلى الصدر الأيسر، مكان العملية الجراحية، لأنه سيجنِّبني ألم البحث عن الوريد ووخز الإبرة ثم احتمالات الالتهاب.

شعرت بالامتنان في تلك اللحظة للدكتور أحمد سمير، فهو صاحب النصيحة بأن يتم تركيب بورت كيس متزامنًا مع عملية الاستئصال. لقد مر الدكتور أحمد بأزمة مماثلة حيث أُصيبت زوجته الشابة الجميلة بالمرض نفسه، ونظرًا للصداقة التي تجمع زوجي به، فقد تابع بكثير من التأثر والمؤازرة جميع المراحل التي مرت بها الزوجة العزيزة. وما كادت أن تنتهي من علاجها حتى بدأت بدوري نفس الرحلة مع المرض الخبيث. وأفادتنا جميعًا تلك الخبرة التي تعلمناها من خلال زوجة الطبيب أحمد سمير.

تلهيت بمطالعة عدد من المجلات الأجنبية التي كنت قد جلبتها معي من رحلتي العلاجية في باريس، والتي تنشر متابعات عن محاكمة الشرطية نادية حمدي المتهمة بضرب البوعزيزي أيقونة الثورة التونسية وملهمها، وهناك حوار مع الشرطية تدافع فيه عن نفسها وتتهم النظام المخلوع بأنه أرادها أن تكون كبش فداء لسياساته المستبدة. وفي الوقت الذي كان الدكتور وسام يطلب

مني أن أسترخي وآخذ نَفَسًا عميقًا، كان قد أتمّ تركيب الإبرة في البورت كيس، وبقيت آثار الوخزة تؤلمني، وبدأ سريان المحلول في دمي.

مع ذلك تابعت المطالعة، بينما دسَت إبتسام في فمي قطعة لبان بلدي حتي تبعد عني الإحساس بالغثيان والتقيؤ. وسرعان ما شعرت بالنعاس، فأغمضت عيني استسلامًا لذلك الثقل الذي أطبق على رأسي.

ظننتني سأستطيع أن أعايش أول تجربة ديمقراطية للانتخابات التونسية في أرض الوطن، مادامت اللجنة العليا المستقلة للإشراف على الانتخابات قد انتصرت لفكرة تأجيل موعدها لاختيار المجلس الوطني التأسيسي الذي سيوكل له وضع الدستور إلى ١٦ أكتوبر، على عكس رغبة الحكومة المؤقتة التي أوصت بالحفاظ على تاريخ ٢٤ يوليو، وشهر أكتوبر بعيد نسبيًا ويحمل لي الأمل على أكُفّ مخضبة بماء الزهر والورد. سأكون بالتأكيد قد أنهيت بروتوكول العلاج وتحسنت حالتي ومن ثم سأستطيع السفر ولقاء الأهل والأصدقاء ولن يعرفوا شيئًا عن هذه الأزمة، فسوف تذهب كل هذه الآثار وأستعيد طبيعتي وينمو شعري من جديد، كما إن الأوضاع في تونس ستتحسن ويهدأ الصراع الحالي ويسود الوفاق وتكون رحلة إعادة اكتشاف لمسقط رأسي.

أظـن أن تأجيل الانتخابات هو لصــالحي الشخصــي وليس لأي طرف آخر!

كانــت آخر ما ســمعته تلك الهمســات التي تدور بين ســومة وبين طارق، وهما يرتشـفان القهوة ويحفزانني على تلبية دعوة مماثلة علــى فنجــان قهوة تركــي. أجبــت بتحريــك رأســي مومئــة بعدم الرغبــة في القهوة، فكأن لوحًا من الحجر الصــخري قد ســقط على بــدني ورحت في غفوة. انتبهت بعد وقــت على قرع الباب وخطوات الممرضة جاءت تتفقد انسياب المحلول. فتحت عيني وطلبت دخول الحمّام . فســاعدتني الممرضــة علــى التحرك بالحامــل والزجاجة المعلقة به، وبدأت أشــعر آنذاك بدوخة وباحتقان في الحلق وتورم في الرقبة ووجع في الأذنين. ألقيت نظرة متســرعة على المرآة وأنا أهمُّ بالخروج من الحمام والعودة إلى السرير، فهالني ذلك التورم في الصــدغ والإحمرار في الوجنتــين، والإنتفاخ في أنفي الذي ذكَّرني بالتورم الذي صاحَب حملي بابني محمد في الشهور الأخيرة.

وتكــرر دخول الحمــام بعد ذلك مــرارًا خلال نفس الجلســة، رغم عملــي بنصــيحة تلك الســيدة التونســية صــديقة الصــدفة ،آمنة بــن يــدر بأن أصــوم طوال يوم الجرعــة وأكتفي ببعضــ الماء عند الضرورة.

ومــع اقــتراب الزجاجة الرابعة من الكيماوي علــى الانتهاء، كان

احمرار قد غطَى كامل صـدري مع ارتفاع بسيط في درجة الحرارة وميل إلى التقيُّؤِ والتعرَّق.

وألقى الدكتور وسـام نظـرة دون تعليق، وطلب منـي أخذ نفس عميق وبالتزامن كان قد انتزع الإبرة من البورتوكيس. ثم سـحب طـارق معه إلى المكتب وكتب الروشـتة وقائمة طويلة من الأدوية مع شرح مفصل لكيفية تناولها ومواعيدها.

انتظـرت طارق لبعض الوقت حتى يسـدد المبلـغ المطلوب مقابل الجلسة ثم يشتري الأدوية من الصيدلية بأسفل العمارة، وتسليت بمتابعة طوابير المرضـى الذين يقفون في انتظار الأسانسـير الذي يقلُّهـم إلى عيادات الأطبـاء الذين تمتلئ بهم هذه العمارة. ثم دلف طارق إلى داخل السـيارة وتبعتـه ولم يتكلم طوال طريق العودة إلى المنزل؛ غير أن التفاتاته مع ابتسـامة مطمئنة كانت هي الكلمة الطيبة بغير حروف تبدد المخاوف وتزرع السَّكينة.



أفتحُ عيني بصـعوبة، رأسـي ثقيل والأنوار المضـاءة في الغرفة تزعجني. هممت بأن أنادي طارق أو أحد أبنائي ليطفئ النور الذي يضـايقني ولكن الكلمات احتبست. أطرافي باردة وتتملكني رعشة

ثـم تنتابنــي حالة من التَعـرُّقِ، تنســاب قطرات العرق من رأســي مـرورًا برقبتي ثم تلتصــق بظهري وتبتلّ ملابســي والغطاء تحتي وكأنَي أســبح في بركة من المياه. يهرع طـارق إلى الترمومتر ليتفقد حرارتي بينما تشـتد الرعشة بي وتصطك أسناني، ويتسرب الوهن إلى كل جسمي وأفقد القدرة على السيطرة عليه.

أصبح منظر السرير غريبًا بعد أن جلب طارق المزيد من الأغطية الصــوفية والبطاطين ليُدثرَني فيخفِّفُ البرد والرعشة، بينما تعدت درجة الحرارة الخارجية الخمس والثلاثين درجة مع اشتداد قيظ الصــيف، وفي المقابل يتصــبب عرقًا كل من يدخل إلى غرفتي ليلقي نظرة للإطمئنان عليَّ، فيهرع عائدا إلى الصالة لينعم بجو التكييف المنعش.

لم يكـن الألم ليهـدأ ، وكنت إلــى حد تلك اللّحظـات أتخيَّلُ واهمة إن الأورام الســرطانية هي المسـبب الحقيقي للآلام التي يشعر بها المريضـ، غـير أني أكتشـفت أن العلاج الكيماوي هو المســبب للألم الفضيع في هذه المرحلة، فهو لا يُبْقي ولا يَذَر ويضـيع أي قدرة على التركيز، حيث تتضــاءل الأمنيات للحد الذي تصــبح فيه الإغفاءة أقصــى ما أحلم به. فالإجهاد والضعف العام، والغثيان والشعور بالدَّوار إضــافة إلى صـعوبة التنفس وسرعة ضــربات القلب، كل

ذلك يحرمني من سرقة غفوة لبضع دقائق. والألم الأكثر شدة هو الصداع الحاد والذي يصيبني بحالة هستيرية تُفْقدني أعصابي بالتزامن مع نوبات حارة وهبَّات ساخنة.

لم تمضِ ساعة حتى جاء طارق ليناولني أدوية بعضها لتخفيف آلام الصداع وخفض الحرارة وثانية مضادة للالتهابات في المعدة، وثالثة لاحتقان الحلق والسمع ورابعة لمداواة التقرحات في الفم واللَثة، فالعقاقير الكيماوية تسبب التهابات شديدة في الفم وألما في الفك وفقدانًا مؤقتًا لحاسة التذوق، وانتفاخًا في الرقبة والوجه واليدين والرجلين. ومع استمرار التقرّحات الشديدة أخبر طارق الطبيب فوصف له علاجًا مناسبًا هو عبارة عن مضمضة يتم بلعها، رغم مرارة طعمها فقد كنت أرحب بها بشكل كبير وكأني أتناول آيس كريم بعد يوم صيام!

آلام مبرِّحة عاودت مهاجمة عضلاتي وأعصابي وأصابني خدر في اليدين والقدمين ووخز عند المشي، وإنعدام في التوازن، وصعوبة في التحرك بمفردي حتى لو أردت الذهاب إلى الحمام، زد على ذلك الطَنين الذي يلازم أذني . لم يكن الطبيب قد حدثني عن تلك الأعراض، لذلك اضطرَ طارق إلى الاتصال بالطبيب في ساعة متأخرة من الليل.

كان ليل يمضي وراءه نهار دون أن أدرك جيدًا كم يمرٌّ من الوقت

وأنا مُمددة في السرير فاقدة للزمن ولسخونة الحياة. كل الزائرين يؤكدون إن التعب الشديد سيزول في الجرعة الموالية كنوع من التفاؤل والتحفيز النفسي؛ غير أن الجسد يستمر يتهاوى مع محاولة التفكير في جرعة جديدة. كانوا يحاولون تسليتي بالأحاديث عن الاضطرابات المشتعلة في الميادين والشوارع، واحتدام المعارك وخيانات الإخوان للثوار وعقدهم لاتفاقات سرية مع المجلس العسكري، والأهم مع الأمريكان كما يبدو من الإشارات المتجاوبة مع الإخوان التي ترسل بها إسرائيل للرأي العام الدولي. وغالبًا ما كنت أغفو على وقع تلك الأحاديث.

وبمجرد أن أفتح عيني وأشعر بتحسن طفيف أعرف أنه قد مرأكثر من أسبوعين منذ أن أخذت جرعة الكيماوي. فأحاول أن أجرب الجلوس قليلاً وأسند رأسي بمجموعة من المخدات وأفتح اللاب توب ثم الفيس بوك متشوقة لأتأكد أني مازلت على قيد الحياة ، فأنا أعلم أن جميع الأصدقاء يطمئنون على حالتي بمجرد أن يجدوا أثراً لمروري على الفيس بوك ، الذي يمثل أسهل وسيلة لمعرفة ما يدور في العالم الخارجي من أحداث بعيدًا عن جدران الغرفة.

أجد عصام كتب نكتة مررها على الوال: «واحدة وحشة بتقول

لجوزها ياراجل صلَّح شباك المطبخ لجارنا يشوفني . قالها : شافك وقال هيصلحه على حسابه!».

رغم أني سمعت النكتة من قبل عشرات المرات لكنها حركت الإبتسامة على فمي . وتخيلت عصام وهو يروي النكتة ونفس الابتسامة على مُحيَّاه، ثم يقهقه بصوته الأجش ضاحكًا بكل طفولة.

قد تكون مجرد ابتسامة لكنها تمدني بشعور جديد يدفعني إلى تفقُّد مايحدث على الشاطئ الآخر من الوطن. أستعرض عددًا من تعليقات الأصدقاء التوانسة في مواقع التواصل الاجتماعي على الوضع المحتدم هناك. سخونة الحوارات تنبئ بانفجار سياسي قريب. فأنصار حركة النهضة الإسلامية يستعرضون قوتهم على أبواب حملة انتخابية للمجلس التأسيسي. ويزداد في المقابل المتخوفون من خوض النهضة لتجربة إعتلاء السلطة. فتعبر رجاء بن سلامة الأستاذة الجامعية عن مخاوفها، قائلة:

- لا أتمنى ذلك لأن التجارب بينت أن الحركات الدينية تحمل خطابًا مزدوجًا فهي تموت حبًا في الديمقراطية لتصعد إلى سُدَّة الحكم ثم تغير رأيها.

«هناء بنت تونس» تعلق أيضًا بحروف لاتينية أفك طلاسمها بصعوبة:

- شوفوا اللي صار في الجزائر والسودان وإيران، منتصورش يسلم التوانسة رقبتهم ومصيرهم لحركة دينية...فالتوانسة مؤمنون بربي ومينتظروش فتاوى الشيوخ!

تعود رجاء للتعليق :

- لا يُعقل أن يصبح الصراع اليوم حول تعدد الزوجات وختان المرأة واللائكية وشرب الخمر ولبس المايوه...وموش هذا إللي تستناه تونس منكم بعد الثورة المجيدة؟!

هل يتحقق سيناريو الفزاعة الذي أخافتنا الأنظمة المخلوعة به ليطيب لهم المقام في السلطة ؟!

كان الكثير من الناشطين السياسيين والحقوقيين لا يتعاطفون مع الإخوانجية عندما انقلب ضدهم النظام وأدخلهم المعتقلات، لأنهم يرددون نفس تلك المبررات عن الإخوانجية بأنهم دعاة سلطة ويتشوقون لاعتلاء كرسي الحكم، وسوف ينسون كل ما يسوقونه عن الحريات والديمقراطية. فهل تُراهم صادقين أم سيتنكرون فعلاً لهذه المبادئ.

تقول بنت الخضراء في صفحتها: نريد فتوى محكمة من حكامنا الجدد النهضويين، بحيث تحدد بالضبط حجم اللحية المطلوبة للمرحلة القادمة، وهل تكون خفيفة أنيقة كلِحَى الفنانين والمفلسين

أم مطلـوب أن نتركهـا علـى الغارب بـلا تهذيب ولا تشـذيب كذقن شـيوخ قناة الناس والحكمة، وهم أبعـد عن الناس والحكمة، وما حكـم ارتداء ربطـة العنق والعياذ بالله وهل يجـوز ارتداء الربطة الحريرية.. أم من الأحوط أن تكون من صـوف الإبل، وهل نرخيها أم نحبكهـا حول العنـق، أم نمتنع عنها نهائيًا أسـوة بالإخوة فى إيران..؟..رجـاء أن تحدد الفتوى رأيًـا قاطعًا وفوريًا، لأننا ننوي التوبة والمشي بجوار الحائط!

لم يمضِ إلاَ وقت قصير على تناول المسكّن لكن نوبات الألم تعاود افتراسـي . غليان في الرأس وكأنما تُسـلَّط عليه نارٌ حارقة. أحاول تناسـى هذا الإحسـاس، وأمسِكُ بالورقة التي وضـعتها صديقتي ماجـدة الشـلّي منذ قليل تحت المخدة وأقـرأ الدعاء المكتوب بخط اليـد على رأس الورقـة: «إلهي ، أَذهِب البأس رب الناس، اشـفني وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقمًا، إلهي أذهب البأس رب الناس، بيدك الشفاء ، لا كاشف له إلا أنت، يارب العالمين آمين،إلهي ، إني أسـألك من عظيم لطفك وكرمك وسـترك الجميل أن تشفيني وتمدني بالصحة والعافية، إلهي أنا لا ملجأ ولا مَنْجًى منك إلا إليك، إنك على كل شيء قدير».

ثم دعاء آخر في أسفل الورقة:«سبحان الله يا فارج الهمّ وياكاشف

الغم فرّج همي ويسِّـر أمري وإرحم ضـعفي وقلة حيلتي وارزقني من حيث لا أحتسب يارب العالمين».

إنسـابت دموعـي مـع الأدعيـة وبلّلت مخدتـي.. لم تكـن الدموع قريبة من مقلتي قبل المرض، بل كانت على العكس عصيّة في غالبية المواقـف التـي أحتاجهـا تمتنع عني فيـزداد توتري. لكـن الدموع أصـبحت الآن تسبق الكلمات وتغسـل عناقيد الأسى دون أن تبدد ولو قليلاً ذلك الشعور بالتصدع الذي يهز أرجائي. ويتضاعف كلما زادت مخاوفي على أوطان تقف ثوراتها في منتصف الطريق.

أدير قنـوات التلفزيـون بالريمـوت كنـترول وأنـا ممـدّدة في السرير. كان طارق محقًا عندما فكر في اقتناء تلفزيون لغرفة نومنا بعدما كنا رافضـين لنقل الصـخب الإعلامي في المسـاحة الحميمة والهادئة. لكن الجهاز الفوضـوي أصـبح صـديقي الـذي يلازمني في محنتـي خلال الأربع والعشـرين سـاعة يبدد جـزءًا من التعب والألم والقلـق والأرق، مـن خـلال التجول بين القنـوات وينقلني إلـى تلك الغابـة من الإعلام المتخبط. المراسـلون أصـبحوا رفقاء الدرب ألهث معهم وهم يحملـون الأخبار الملعونة التي تلتف حول عنقي تخنقني وتقيد بدني بالأصـفاد. أشاهد قناة التحرير وبرامج محمود سعد وإبراهيم عيسى وأحيانًا عمرو الليثي وفي قناة السي

بي سـي الجديدة تستعيد لميس الحديدي عرشها، وكانت المفاجأة الصحفيّة دعاء سلطان زوجة الزميل الصحفي إبراهيم منصور التـي أصـبحت مذيعـة في برنامجها توك شـوز تكشـف به مؤشـر أخلاقيـات الإعلام وتلوّن المذيعين والمتحوّلين، الذين عرَّت الثورة عـورات الإنتهازيين منهم والحقيقة الوحيـدة التي تجلَت هي أننا غرقنا في انتهازية إعلامية صـارخة وسـرقة عقول المشـاهدين. لا يصـلني صـدق كامل لا غبار عليه إلا من يوسف الحسيني وباسم يوسـف في قناة نجيب ساويرس أون تي في. فهل سيصمدان طويلاً مع صاحبها.

أتذكـر تلـك القوائـم التـي كانـت تـوزع داخليًـا في التلفزيـون، ومصـدرها قطاع الأخبار الذي أصـبح يشـرف على كل النشـرات الإخبارية وعدد كبير من البرامج منذ تولٍي عبـد اللطيف المناوي رئاسـة القطـاع، وقد إستبشـر الكثـيرون بتولي المنـاوي للقطاع ، فهو شـاب مهذب وخبرته الصـحفية ربما تفيد العمـل التلفزيوني، لكن ما صـنعه من تطوير في الصـورة النهائية التي تصل للمشاهد وإحتضـانه للعديـد من الشـباب بالتدريب والتشـجيع،غطى عليه الكثـير من قصـص الفسـاد الذي انتفعت به شـلل صـغيرة التفت حولـه كما يلتـف الثعبـان على جسـد فريسـته. وضـاعت حقوق غالبيـة العاملـين من أبنـاء التلفزيون وزاد التفـاوت بين الدخول،

بين من يتقاضى مئات الآلاف من الجنيهات وبين من يتقاضى عدة جنيهات. وهذه تركة قديمة منذ عهد صفوت الشريف،وسار العمل في مجمله ضمن التوجيهات التي تصل إلى المناوي من الوزير أنس الفقي على نشرات الأخبار وبرامج المتابعة وبرامج الهواء، أو هكذا الانطباع دائمًا الذي يحرص الفقي أن يصل إلى الرأي العام والوسط الإعلامي بأن المناوي في هذا الموقع لأنه خير مَنْ يحسن إنتاج التعليمات دون جلبة ويقوم بتنفيذها في يُسْر ولم يكن يذكر محاسنه أو خصاله أو حتى يذكر تاريخه الصحفي حيث كان مسئولاً عن مكتب جريدة الشرق الأوسط ويحظى بعلاقات عربية وخاصة خليجية جيدة . أما البرامج المسجّلة فهي تخضع لمشاهدة الرقابة وبالتالي فلا ضرورة إلى تعليمات أو تدخل من الفقي لفرض قوائم الضيوف عليها؛ لأنه إذا ثبت خروجها عن المطلوب فتعود الحلقة إلى المخرج لعمل المونتاج والحذف اللاّزم أو حتى إلغاء الحلقة إذا كان الضيف مرفوضًا أو تجاوز الخطوط الحمراء، وهذا كان يتم عند وجود بعض الأسماء المرفوضة تمامًا من الفقي، مثل جميع الشخصيات المنتمية إلى جماعة الإخوان المسلمين ، يُضاف إلى قائمة الممنوعين من نشطاء حركة كفاية و٦ أبريل وعدد من منظمات حقوق الإنسان وبعض الشخصيات الأخرى، مثل النائب حمدين صباحي وأيمن نور وجورج إسحاق وأمين عام

الجامعــة العربية الســابق عمرو موســى ،والأخــير تحديدا، كنت أستغرب رفض اقتراحاتي المتكررة لاستضافته في برنامج حواري داخل التلفزيون، مما جعلني أصدق الإشاعات القائلة بأنه منذ علا نجمه بين الناس وغنى له شعبولًا أصبح غير مرغوب فيه ويُخشى اتساع شعبيته. وفي المقابل فإن القائمة مكونة من عشرات الأسماء المسموح لهم بالظهور في التلفزيون وفقًا لتخصصات متعددة والاستعانة بهم تكون مأمونة الجانب، حيث غالبا ما يتم التنسيق معهم مسبقا إما مِن قبل أجهزة وزارة الداخلية أو المخابرات العامة أو وزارة الإعلام نفسها فقد تردد على ألسنة العاملين أن إعداد تلك القوائم تم بتوجيه من أنس الفقي وزير الإعلام السابق وربما داخل لجنة السياسات بالحزب الوطني . تم ذلك بمناسبة انتخابات الرئاسة في ٢٠٠٥ ثم أصبحت تُستخدم في المناسبات السياسية الأخرى، كانتخابات مجلسَي الشعب والشورى والفتن الطائفية والأحداث الإرهابية والتي كشفت الثورة بعد ذلك ووثائق أمن الدولة إنها من صنع أجهزة وزارة الداخلية. أتذكر من بين الأسماء المذكورة تلك الشخصية اليسارية التي أكلت على كل الموائد ويرأس تحرير مطبوعة تصدر عن وزارة الثقافة، ولواء سابقًا كان يعمل بالمخابرات ومسئولًا عن ملف السودان والتوصية باستخدامه في قضايا الأمن القومي حتى أصبحنا نشاهده يخرج

من هذه القناة ليدخل إلى أخرى وليس لديه أي مانع في ذلك. وأول مرة تم استخدام هذا اللواء في واقعة المباراة الشهيرة بين مصر والجزائر في الخرطوم، والتي ظهر فيها علاء مبارك بشكل واضح وركب موجة العاطفة الكروية لدى الناس. كما إن أحد المحامين الذي انتُخب نقيبًا لفترة معينة يحظى بدوره بالتوصية؛ وكذلك رئيس حزب معارض رئيس تحرير صحيفة أسبوعية معارضة لم يكن يتأخر عن تسريب المعلومات الأمنية عندما يطلب منه. وهذه شكلت مفاجأة بالنسبة لي وكذلك للزملاء المعدين ظنًّا منًّا أنهما يُحسبان على القوى السياسية المعارضة للنظام غيرإن الحقيقة إن الكثير ممن كانوا يدَّعون معارضة النظام كانوا يعشقون ارتداء بدلة الرقص وإحياء حفلات النفاق في ملهى رموز النظام السابق، وربما كان هؤلاء أقرب للنظام من شخصيات تنتمي إلى الحزب الوطني نفسه وتحسب على النظام. فقد لاحظت مثلاً كيف يكره العديد من رموز النظام ومنهم الفقي رئيس تحرير الأهرام أسامة سرايا، ولم أفهم كيف وصل إلى ذلك المنصب وسط تلك المواقف المضادة له ممن هم أقرب المقربين لمتخذي القرار. ولما تحدثت مع أحد الصحفيين الشباب الذين يتابعون نشاط الحزب الوطني شرح لي كيف أن سرايا من أكثر الذين يوجهون نقدًا للحزب الوطني ولجنة السياسات، ووصفه بالشرس في طريقته النقدية، واصفًا سِرَّ قوته بأن «الريس فقط هو الذي يحبه»!

تلقيت مرة مكالمة من ضـابط برتبة عميد -لا أعرفه شخصـيًا ولا أعرف كيف وصل إلى تليفوني- يوصيني خيرًا بسيادة الضيف الذي كان سيحل ضيفًا على برنامج اتكلم مع لميس، كما اتصل ضابط آخر بزميلي الصـحفي وليد عبـد الرحمن لتمرير نفس التوصـية. ومما رسخ هذا الموقف في ذهني وجعلني لا أنساه أن وزير الإعلام نفسه إتصل عند بدء الهواء ليعطي بعض التوجيهات، وكان يبدو غاضبًا من شراسة لميس في الحوار مع الضيف..ولم نتعود من الفقي على الاتصـال إلا عندما يحظى الضـيف بأهمية خاصـة لديه أو عندما يلامس النقاش الخطوط الحمراء ونتجاوز السـقف. والطريف إن عددًا من هؤلاء الشخصـيات الذين يحظون بالتوصـية من الوزير كانوا ينهمرون كالمياه مـن حنفية البرامج، ويتم تقديمهم للمتفرج على أنهم ينتمون لصفوف المعارضة!

وقـد اسـتَمرُّوا في الظهـور حتى بعـد الثورة في البرامـج بقنوات التلفزيـون المصـري والقنوات الخاصـة وكأنما لا وجـود لثورة، وكلمـا شـاهدتهم أقول في نفسـي: لم يبقَ إلا أنس الفقي، فلماذا لا يظهر هو الآخر بينما كل أصدقائه ورجاله مازالوا يملئون الشاشة ويعود له الفضـل في تلميعهم!! كيف يشـعر يا تُرى وهو في سـجنه عندما يتذكر أنهم كانوا يبوسـون الأيـادي عندما كان وزيرًا والآن يشتمونه حتى يستمروا في المشهد؟!

حدث موقف غريب مرة في صيف ٢٠١٠عندما كنت أشرف على برنامج رمضاني ، وكنا قد سجلنا إحدى الحلقات مع الدكتور مصطفى الفقي، فوجئت وأنا داخل استوديو المونتاج بزميلي أمير المشرف على طاقم الإنتاج يطلب نسخة من الحلقة الخاصة بالفقي بدون مونتاج وتحوي كل ما قاله الفقي..وتبدو عليه الحيرة لأن مكتب الوزير هو من يطلبها..شعرت بمؤامرة تُحاك ضد مصطفى الفقي، فقد تحدث بتلقائية بعد أن أنهى حواره بكلام يتضمن نقدًا للرئيس مبارك وسخرية من القادة الذين يلتصقون بالكراسي بغرا ولا يريدون أن يتركوها، وانتقد التلميح بعملية التوريث قائلاً إن مصر دولة عظيمة ولا يمكن انتقال السلطة بهذه الطريقة كما في الأنظمة الملَكية. المهم أن الدكتورمصطفى الفقي أثار إعجاب الكثيرين داخل الاستوديو بجرأته.

تساءلت: كيف وصلت تلك القصة إلى وزيرالإعلام؟ ومن يحاول التقرب منه على حساب مصطفى الفقي المعروف عنه لسانه الفلتان ؟! لابد من أن يكون« الجاسوس» الذي فعلها يعلم بالخلاف الذي يسود في تلك الفترة بين «الفقيين». ولم تصل للاثنين هذه المعلومات، فقد نسي أنس بعد فترة الأمرولم يطلب التسجيل من جديد ، كما لم يكن يصحّ إبلاغ الدكتور مصطفى بالقصة من باب الحفاظ على أسرار العمل، أما وقد أصبح يوصم اليوم بأنه «فِلّ»

كبـير من فلول النظام الســابق، ويُشــتم في المكلمـات الثورية فكان لابدّ من الإفراج عن تلك التفاصيل!.

ســارت السياســة الإعلامية بعد الثورة بنفس الكتالوج السابق، فالأوامـر تصـدر لكن مـن المجلـس العسـكري ودون أن ينطق أو يتكلـم، فالمجلـس لا يحتــاج أن ينطق فقبـل أن يفعلهـا يكون هناك العشـرات من المريدين داخـل المبنى وخارجه قد قـد قرءُوا خيال المشـير ومسـاعديه بل تلصصـوا علـى أحلامهم أيضًـا، لتنفيذ ما يرغبون فيه وتســتمر الطاعة التي ســادت أيـام أنس الفقي وقبلهم أيضًـا أيام صـفوت الشـريف حيث تظـلّ أجنحة الحريـة رهينة إجتهاد الإعلاميين كلٌّ حســب بســالته، وإن كانت هناك نقطة فارقة في هـذه العلاقة لابد من أن تُذكر في معرض الحديث عن أنس الفقي وزير الإعلام السابق ومســاعده الأول عبد اللطيف المناوي رئيس قطاع الأخبارالســابق مثلما يشهد بذلك عدد من العاملين والمقربين مـن الرجلـين الذين رووا لي خــلال زيارتهم للاطمئنان عليَّ، قصـــة رفـض المنــاوي لضــغوط الفقــي بإذاعة بيــان إقالة المشــير محمد حســين طنطاوي، وزير الدفاع من منصـــبه وتكليــف قائد الحرس الجمهوري، قبـل إذاعة خطاب التنحي بنحو أربعــة أيام. وأكدوا أنهم شهود على هذه الكواليس التاريخية وأكدوا إن المناوي، الذي كان يوصــف برجل الفقي الأول، تمرد عليــه ورفض تنفيذ الأوامر

وانحاز للمؤسسة العسكرية في اللّحظات الفاصلة وتلقى الأوامر مباشرة من قيادات الجيش، وحاول إقناع الفقي بضرورة الضغط على مبارك للإنسحاب حقنا للدماء.

كان اقترابي من تلك الأجواء وخوضي تلك التجربة مع الإعلام الحكومي في مرحلة تبنّى فيها النظام دَمَقْرَطة خجولة، مع بدء التحضير لانتخابات رئاسية في ٢٠٠٥ وإجراء التعديلات الدستورية تحركها لجنة السياسات ومجموعة التوريث لجمال مبارك فيما كانت الصورة تبدو للمتفرّجين، على حد وصف دبلوماسي عربي، في إطار ضيق هو «حق النباح» الذي يعطي الإعلام هامشًا من الحرية ليس أكثر، وفي تلك المرحلة من الانفتاح الإعلامي كان النظام قد شاخ -وليس رأس السلطة فقط- وأضحى مريضًا واهنًا وكشف الرأي العام داخليًا وخارجيًا أن المسرح يتم تجهيزه للتوريث وبدأت تزداد الأصوات الرافضة لهذا الاتجاه يومًا بعد آخر.

وقد التقطت فرصة التحضير لحوار مع جمال مبارك في أول ظهور له في تلفزيون الدولة، فخضت التجربة بكل فضول وكلمات لميس ترنّ في أذني: «لابد أن نخوض التجربة لمعرفة المطبخ السياسي وكيفية اتخاذ القرار وأن نصنع إعلاما حقيقيا يخاطب الناس ويكونون هم الأبطال للبرامج التلفزيونية وندفع سقف الحرية

بشجاعة بحيث نناقش كل الموضوعات حتى التي تبدو ممنوعة ولا نبقى نتفرج دون فعل حقيقي» . ولا أخفي إننا كنا نشترك في حلم عتيد وهو أن الصحفي الشاطرهو الذي يجري وراء الخبر ولقاء أي مسؤول كبير، وهو الذي يستطيع أن يقول كل شيء مهما كانت القيود وشدة السنسرة ويقدر على دفع سقف الحرية. ويصف عماد الدين أديب مؤسس مجموعة جودنيوز ورئيس تحرير جريدة العالم اليوم التي أعمل بها يصف الصحفي بأنه مثل الأطباء والمسعفين من رجال الصليب الأحمر أو الهلال الأحمر يعملون في كل الظروف مهما كانت سيئة للوصول إلى موقع الحدث من أجل عملية الإنقاذ. ولعله استمر على هذا النهج «مسعفًا» إعلاميا بهدوء مع كل من يعتلي السلطة.

وتحولت الآمال الطموحة التي خضنا بها التجربة الإعلامية في البداية مع تلفزيون الدولة إلى كابوس. فالمفاجأة في خضم العمل في البرامج كشفت أن مكتب الوزير كان يزوره إعلاميو القطاع الخاص أكثر من إعلاميي قنوات تلفزيون الدولة . لاح لي يومًا بعد يوم الوهم الكبير وانطفأت تدريجيًا من داخلي شذوة المغامرة؛ ما جعلني أنسحب مبكرًا في ٢٠١٠ وقبل البدء في الانتخابات الكارثية، التي عجلت بسقوط الحزب الوطني في بئر عميقة حفرها أحمد عز بقلة احتراف وغرور غشيم.

لم يكن هناك مطبخ سياسي بالمعنى المؤسسي مثلما درسنا في

مـادة العلـوم السياسـية ومثلما كنـت أتخيل ومثلمـا كانت لميس تتخيل، كما إنه لم تكن هناك حرية إعلام أو نية صادقة لذلك وإنما بعض الإعلاميين الذيـن لا ينفكون يحاولون اقتناص الفرص، كما إكتشفت أن الأمر يمر كله من خلال «دكانة» العائلة الحاكمة ومعها الشـلة التي تسـترزق الامتيازات والأملاك والأراضي والعمولات بالمخالفة للقانون. وكل المستشارين والمعاونين لجمال ووالدته هم بمثابـة السـكرتارية التنفيذية الذين تُعطل عقولهـم حتى لو كانوا أصحاب كفاءة، ويُؤمَرون فيطيعون وليسوا عقولاً استشارية كما يُخيل للبعض.

كان قـد لفت نظـري أثناء التحضـير للحوار مع جمـال مبارك إن مدير مكتبه آنذاك هو السفير كريم حجاج، وهو دبلوماسي في بداية طريـق النجاح، شـديد الـذكاء والتميـز، تربى في بيت دبلوماسـي حيث والده من قبله هو ابن وزارة الخارجية السفير أحمد حجاج، والتعامـل مـع كريم حجاج اتّسـم بالمرونـة والكياسـة، لدرجة أني تساءلت مرّة:

- لمـاذا يحتكر جمـال مبارك فرصـة اعتلاء منصّـة الحكم لمجرد أنـه ابـن الرئيس ؟! ولمَ لا يكـون من حقّ شـباب آخرين أن تكون لهـم نفـس الفرصـة للترَشـح لرئاسـة الجمهوريـة، أو أن يكونـوا قيادات مسـتقبلية تتـدرب في مطبخ القرار السياسـي للخروج إلى معترك الحياة السياسـية لاحقًا، فهناك شـباب من الدبلوماسيّين

والسياسيين الذين لهم مواهب الإدارة وكريزما القيادة مثل السفير حسام زكي والسفير هشام يوسف وعدد آخرمن سفراء مصر في الخارج المتميزين وأعرف بعضهم، مثل الدكتور وليد عبد الناصر والسفير هشام بدر وغيرهم والذين يفوقون في قدراتهم وذكائهم جمال مبارك ومن يتحلقون حوله ،غير أن أولئك الكوادر ليسوا أبناء الرئيس!

لقد كان النظام يطلق رصاصات الرحمة مبكرًا على أي شخص لديه كريزما عندما يبرز على الساحة السياسية، ولدينا أمثلة كثيرة علىعملية الحرق المبكر حيث اغتيلت سمعة العديد من المعارضين وتمت محاولات مستميتة لتشويههم ولُفّقت لهم التهم وأُدخِلوا السجن، وكل ذلك من أجل إفساح المجال للوريث، فقد تم تشويه سمعة الدكتور البرادعي مثلاً بالدعاية التي شككت في وطنيته واتهمته بالتواطؤ مع أمريكا لتمهيد الطريق لغزو العراق، وحاولت أيضًا المس من كرامة أسرته لا لشيء سوى إنه وقف ضد سيناريو توريث الحكم لجمال مبارك. مبارك اتخذ قرار الاغتيال المعنوي وحملات تشويه السمعة لمعارض بارز،وهو على سلم الطائرة في طريقه إلى رحلة إأفريقية، عندما قال لأقرب مساعديه: «موش عايز أشوف الواد ده لما أرجع !»

إن منظومة الفساد في مصر تحولت تدريجيًا إلى حلقة مغلقة تصب في حساب جمال وشلته أكبرالمستفيدين، وهم الذين

يجهزون مشروعات القوانين والقرارات ويعلمون بها قبل صدورها ويتكسبون الملايين من هذه المعلومات. وكما هو الحال في البزنس، فإن المذيع الشهير الذى يتلقى يوميًا تعليمات من الأمن ومن الوزير قبل التصوير هو جزء من منظومة فساد متكاملة فيها القاضي الفاسد الذى تُملى عليه الأحكام بالتليفون، وفيها أيضًا وكيل النيابة الذى يفسد بيده أدلة الإتهام بناء على التوصية والضابط الجلاد الذى يعتقل وينتزع الاعترافات بالتعذيب ويظلم عشرات الأبرياء دفاعًا عن النظام، وأستاذ الجامعة الذي يقبل أن يتحول سكرتيرًا «للهانم »والسفير الذي يقبل أن يكون خادمًا في بلاط الوريث. وحتى يستمرالفساد ولا يستيقظ ضمير الفاسدين فإن النظام يجزل لهم العطاء حتى تُعمي أعينهم الإمتيازات والمخصصات المالية والترقيات ويرفلون في الرفاهية؛ فيصبحون كلاب النظام بدرجة الامتياز ويتفانون في الدفاع عنه؛ لأنه دفاع عن أنفسهم وعن امتيازاتهم.



الميدان

عيني رأت عصفور ووياه ابنه
بيحدفه في الريح ويأخده ف حضنه
نوبتين وتالت نوبه -عجبي عليهم-
كانوا سوا بيرفرفروا ويغنوا
عجبي !

((صلاح جاهين))

كانت شمس يوم جديد تتصارع مع خيوط الظلام والأدخنة المتصاعدة وتتسلّل تدريجيًا فتنشر ضوءها على الميدان الذي شهد ولادة الرضيعة وقد أصبحت في اليوم العاشر من مولدها، عندما هرولت في الطريق الضيق تسبقني الكاميرا، مسرعة الخطى لالتقاط أول مشاهد الليلة الدامية. في المستشفى الذي افترش الأزقّة الخلفية لساحة التحرير، كانت الدماء لم تجف بعد والجروح لم تضمّد، ويعرّي ضوء النهار الخسائر التي أسفر عنها هجوم مرتزقة طوال الليل على المعتصمين في الميدان. مازال الدّخان متصاعدًا من سيّارتين تحترقان بالقرب من المتحف المصري إحداهما للجيش، وتتطاير ألسنة اللهب من منزل قديم مكوّن من طابقين على الجانب الآخر من الرّصيف امتدت إليه النيران من شجرة اشتبكت أغصانها بزجاجة مولوتوف سقطت عليها من سطح منزل مجاور فاشتعل اللهب فيها وانتقل إلى البلكونات والنوافذ، بينما تحولت ساحة الميدان إلى فوضى عارمة تذكّرني بشوارع غزة بعد الهجوم الإسرائيلي بالطائرات على المدنيين العزل. الحفر في الشوارع كالجُبِّ العميق قادرة على ابتلاع إنسان، والأحجار والهراوات والأسلاك والقضبان المعدنية وفوراغ القنابل تغطي الأرصفة والأرضيات التي أنتُزعت طبقاتها السطحية.

لقد استمر اطلاق النار حتى ساعات الفجر الأولى من جهة المتحف

وميدان عبد المنعم رياض وغطّت الدماء الإسفلت وكامل الطريق المؤدي إلى المستشفى الميداني، بينما يصطف عدد من سيارات الإسعاف بجانب سور الجامعة الأمريكية بعد أن وصلت إلى المكان لنقل الحالات الخطيرة من المصابين إلى المستشفيات لتتلقى العلاج. ولا أحد يدري لماذا تتأخر سيارات الإسعاف عن نجدة الأطباء الذين يئسوا من الاتصال بها دون جدوى، حتى إنهم اضطرّوا إلى طلب المساعدة من الأهالي أمام تساقط المزيد من الجرحى من خلال مُكبّرات الصوت في المساجد بعد صلاة الفجر. كنت أتابع معركة الإجهاز على الشباب المرابطين في التحرير من مكتب الأسوشيتدبرس بالدور السابع في عمارة مجاورة لفندق الهيلتون تطل على ميدان التحرير وتكشف الشوارع المؤدية إليه كافة، وقد تنبه أولئك الرجال الذين اعتلوا سطح الهيلتون إلى عيوننا التي تراقبهم فصوَبوا بنادق القنص تجاهنا. أيقنت خلال الساعات الماضية إن الإجهاز على الثورة يتجه نحو إشعال النار في أغصانها الخضراء اليانعة، وعندما يموت أكبر عدد من تلك الأشجار الباسقة يذبل الباقي.

الشباب يتساقطون كورق الشجر! وقد يخاف الباقون على حياتهم ويفرون أو يُقبض عليهم فتسيطر الشرطة من جديد على ساحة الاعتصام بعد أن تكون أصداء الترويع قد وصلت

إلـى الأهالي فيخافون بدورهم على أولادهم وتتحقق الفتنة. وكلما إستمعت إلى أصوات الشباب تتعالى «الله أكبر الله أكبر» تستدعي الأطقم الطبية لإنقاذ زملائهم، تسيطر عليَّ نوبات البكاء وأتأكد أن المخطط الجهنمي يُنفذ بكل وحشية وأن شمس الربيع كاذبة.

وصـلت بصـعوبة إلـى الشـارع الخلفـي للمحـالِّ التي تهشـمت واجهاتها والمطلة على شـارع محمد محمـود والجامعة الأمريكية. اعترض طريقـي ثلاثة من المسـعفين. رجوني ألا أصـوّر الجرحى الذيـن كانـت جماجمهـم مازالـت تنزف وتغطـي وجوههـم الدماء وتشـوه ملامحهم، بينما يتّجهون إلى سـيارة الإسـعاف يحملون جثـة شـاب فارق الحيـاة وقد ظهر مخـه خـارج عظمـة الجمجمة. كتمـت شـهقة انفلتـت من بـين أنفاسـي المتقطعـة وأخفيـت عيني بيـدي، لكن ما إن تنبهت إلى أني فزت بصـور نـادرة حتى فوجئت بيد شـاب تداهم الكاميرا وتخفي عدسـتها. ولوِّح بيده الأخرى في اسـتعطاف مؤثروأخذ يرجوني ويحلّفني بـكل عزيز لديَّ أن أتوقّف عن التصوير، ثم لاحقني زميل له قائلاً:

- يا أستاذة، ميرضكيش أن التلفزيونات تنقل هزيمتنا على أيدي البلطجية «أولاد ال...»وتخلِّي أمهاتنا يموتوا من الخوف علينا أو أهالينا ينقلبوا ضدنا؟!

تركتهم يستكملون نقل المصابين وغالبيتهم في حالة متأخرة وانتقلت إلى داخل المستشفى على وعد مني بعدم التركيز على الكارثة، وأنا غير مُصَدقَة لهذا النبل والطهارة والمعنويات الرشيدة الصامدة في الوقت الذي إستغنت السّماء عن نجومها وبدأت النسور تحلق فوق الميدان، والحروب تُشن ضدهم بضراوة وتقتّل فيهم بكل وحشية وتَشفٍ، بينما يترفعون عن نيل أبسط حقوقهم في الإنصاف من الإعلام.

وجدت ساحة المستشفى الميداني قد قُسمت إلى أقسام طبية مختلفة من عظام وعيون وجراحة، بينما ينهمك الأطباء في إنقاذ جريح تندفع من رأسه الدماء كما تندفع المياه من بطن الجبل، وبجانبهم شاب آخر يرقد على الإسفلت جثة هامدة والدم يغطي صدره وبطنه وساقه.. وبالقرب منه اتكأ شابان على جدار يبكيان بصوت مزمجر، ويتطاير الغضب كالشرر من عيونهما. وعلى مقربة منهما توجد قماشة كُتبت عليها عدة شعارات ملطخة بالدم تفصل بين تلك الجثة وبين جريح ملقى على الأرض تنهمك طبيبة شابة في خياطة جرح عميق في رأسه بينما يصدر منه أنين كالنحيب من شدة الألم، ووجدت فرصة لسؤال الطبيبة عن عدد الجرحى والضحايا الذين لقوا مصرعهم، فأجابت:

- العدد كبير تعدى الألف وتجاوز قدرتنا على التعامل معهم؛ لأن هذه العيادة للطوارئ ولا تتوافر بها أي إمكانات للعمليات، وهناك إصابات خطيرة بجروح قطعية في الرأس وكسور في قاع الجمجمة وإصابات في العيون وحروق متفاوتة الدرجات. وقدمنا للجرحى الإسعافات الأوَّلية لأن سيارات الإسعاف لم تستطع الدخول إلى الميدان أثناء الإشتباكات التي استمرت من الساعة الواحدة وإلى بعد الفجر، وفور وصول سيارات الإسعاف منذ قليل تم نقلهم إلى المستشفيات القريبة.

اكتفينا بتلك الصور من ذلك الموقع الميداني وهُرعنا لنلتقط صورًا أخرى ولقاءات من موقع آخر، وقادتنا أرجلنا إلى العيادة المقامة بمسجد عمر مكرم والتي أشار علينا بالتوجه إليها شاب يدعى عبدالرحمن من الملتحقين بالميدان ليلتها ويبدو عليه الحذر، وتطوع لمصاحبتنا متحدثًا باقتضاب عن الإجراءات لتأمين الميدان بعد تلك الليلة الدامية،ومقترحا أن ننتظر قليلاً لحين وصول الدكتور محمد البلتاجي للحصول على تصريحات دقيقة عن آخر حصيلة للخسائر-وطبعًا فهمت أنه يقصد القيادي في جماعة الإخوان المسلمين- ولم أُجِب بالقبول أو بالرفض ولكني أوضحت أن الوقت إذا سمح فسوف ننتظر. والتقيت بطبيبة في العيادة هي الدكتورة منى مينا التي أوضحت أن عدد الشهداء والجرحى

يتجـاوز ما أعلنته وزارة الصـحة التـي قالت إنهم سـتمائة وأحد عشـر، في حين أن العدد الذي أحصـته الفرَق الطبية في مستشفيات الميدان لحد الآن يتجاوز الألف والخمسـمائة شخص. وطلبت من الدكتورة منى أن تصف لنا ما شاهدته، فأجابت :

– عدد من الأشـخاص اعتلوا أسطح المباني في ميدان التحرير ليلاً وألقوا كرات نارية على المحتجين ورشقوهم بقنابل حارقة وبآلات حادة واصـطادوا العيـون والرؤوس ببندقيـات القنص، وحدثت إشـتباكات في أحـد مداخل ميـدان التحرير بالقرب مـن عيادة عمر مكـرم بين بلطجية ومتظاهرين، وسـقط الكثير من الجرحى نتيجة إصابات في الوجه بقضبان معدنية وبأسلحة بيضاء.

أنهينـا الجولـة في التحريـر على عجل ولم نشـاهد أية شخصـية قياديـة مـن الأحزاب والقـوى السياسـية التي انشـغلت بالمؤتمر الصحفي الذي يعقده رئيس الوزراء الجديد أحمد شفيق.

سـألني طفـل يبدو من المشـردين لا يتجاوز العاشـرة بينما كنت أستعد لامتطاء السـيارة التي تنتظرنا بجانب كوبري قصر النيل، قال بصوت متلعثم :

–هو البيه الضاباط فين ..جوه الميدان ولاّ بره ؟

فأجبته مشيرة بإصبعي:

– بره الميدان !

فتهلّلت أســاريره وانطلق مهرولاً إلى الداخل، متجاوزًا الأســلاك الشائكة التي تغلق مدخل الميدان من جهة كوبري قصر النيل.

انطلقت السيارة وقررنا أن نتجه إلى التصوير في أحد المستشفيات؛ لنســتكمل الريبورتــاج ونتعــرف علــى حقيقة الخســائر البشــرية هنــاك. وفي الطريــق حاولت أن أفتــح الكمبيوتر المحمول وأتصــل بالإنترنــت؛ لأتابع آخــر الأخبار التي بثتها الــوكالات العالمية عن أحداث الليلــة البارحة غير أني فوجئت بتعطيل الإنترنت. وبلغنــي الســائق أنــه علــم في تلــك اللحظــات أن مكتبنا تعرضــ لهجوم من بلطجية حاولوا تكســير معدات الإرســال الفضائي الموجودة فوق ســطح العمارة، وضــحك معلقًــا أن البلطجية لا يعرفــون القراءة لذلــك لم يفهموا كلمــات اللافتة الكبيرة المكتوبــة بالإنجليزية علــى باب الشقة والتي تدل علينا؛ فاضطروا إلى طرق أبواب كل الشقق في العمارة فلم يرشــدهم أحد عن المكتب وصــعدوا للسطح لتكسير معدات البث!.

كان واضــحًا خلال الأيام الماضية أن حملة منظمة يقودها النظام المهدد بالسقوط واستخدم فيها الإعلام المحلي للهجوم على وسائل الإعلام الأجنبيــة كافة، وهناك محاولات متعمدة للتحريض ضــد المتظاهرين ولمزيد من التشــدد معهم.. أحد المحلّلين المكتوب تحت اسمه خبير أمني ،لم يتورع عن المطالبة صراحة بإبادة المعتصمين في التحرير!.

نجحت في الدخول إلى مستشفى القصر العيني بسلاسة وبدون أن أودعَ بطاقتي الإعلامية في مدخل البوابة الرئيسة. لم يكن شيئًا معتادًا لكنّ الفوضى لأول مرة خدمتني في إخفاء هويتي. أسرعت الخطى في اتجاه سهم يشير إلى مبنى الإدارة، توقفت أمام مكتب المدير. دفعت الباب بلا تردد بعد أن أخذت نفسًا عميقًا، فوجدتني داخل صالة انتظار كبيرة تغُصُّ بالموظفين والزائرين، والفوضى الظاهرة توحي بأن أحداث الليلة السابقة العاصفة لم تخفّ تداعياتها بعدُ. توسمت خيرًا في المدير بأن يتعاون مع الإعلام فأرسلت إليه بطاقتي من خلال السكرتيرة، ولم يمضِ إلا بعض دقائق حتى وجدت أمامي طبيبًا شابًا يدعوني إلى الانتقال إلى غرفة اجتماعات صغيرة مجاورة. دخل وأغلق الباب ورائي وشعرت بأنه يستعد إلى الحوار كما يستعد لإجراء عملية جراحية صعبة. عرَّفني بنفسه مبديًا استعدادًا لا محدودًا للحديث عما حدث في القصر العيني في الليلة المشئومة مشترطا عدم تصوير اللقاء؛ لأن هناك أوامر بعدم إعطاء تصريحات للإعلام. لم أستعجل الحصول على كل شيء بل تمهلت وأنا أتأمل وجهه المرهق الذي بدا عليه أنه لم يَذُق طعم النوم منذ وقت، وأومأت له برأسي لتشجيعه على الكلام وتركت له فرصة للإطمئنان أولاً، فلكل حوار تكتيكه الخاص، قبل أن أطرح المزيد من الاستفسارات.

وصف الأجواء التي يعمل فيها الأطباء والممرضون على امتداد

عدة أيام بالقاسية، حيث استدعت المستشفى أطقمه كافة ولاحظ أن بعض الأطباء جاؤوا من تلقاء أنفسهم بعد توارد الأخبار عن سقوط الجرحى في الميدان، كما حضر المئات من المواطنين متطوعين عند إعلان الحاجة إلى متبرعين بالدم. كما هب أهالي المرضى إلى الدفاع عن المستشفى ضد هجوم بعض البلطجية الذين كانوا يحملون العصيَّ والشوم والأسلحة البيضاء وحاولوا الاستيلاء على أدوية ومعدات بالقصر العيني، وتراجعوا ثم هربوا بعد التصدي لهم بنجاح.

وسألته عن حصيلة الوفيات والجرحى ونوعيتها، فرد:

-هناك قرابة مائتين وسبعين تلقوا العلاج لكن لم يتم حصر دقيق بكل الجرحى والحالات التي وصلتنا متوفاةً، والحالات الموجودة الآن أغلبها خطيرة في أقسام الجراحة العامة والعظام والرمد، أما الحالات المستقرة فقد عالجناهم وانصرفوا.

وتابع في سرد العديد من القصص الإنسانية عن استقبال شباب الجرحى والمشاعر الجارفة التي عمل في كنفها الجميع من أجل إنقاذ المتوافدين من الميدان .

سرحت بخيالي أبحث عن كيفية توثيق هذه المعلومات ولكني انتبهت عند جملة مهمة، حيث أكد إن عددًا كبيرًا من الحالات يرقد في قسم الجراحة والرمد.

حاولـت إقناعـه في اسـتماتة بضـرورة الحديـث أمـام الكاميرا، وعندما وجد ألاً مفر من زحلقتي اقترح ترشـيح أطباء في الأقســام التي تتولى رعاية حالات الجرحى مثل الدكتور محمد شهاب والمدير الإداري للمستشـفى نبيل أبو العلا ، وذلك هو الحل المناسب الذي كنت أسعى إلى الوصول إليه .

انطلقت بسـرعة الصـاروخ ومعي الكاميرامان شـامة والمسـاعد الفنـي أحمد إلى المدير الإداري الـذي أكد على وجود مؤامرة على القصـر العينـي، وأن الأطباء والموظفـين والعاملين تصـدوا كَيدٍ واحدة لها بشـكل تلقائي ،فكانوا ينظفون الأرضـيات ويحرسـون المرضـى ويقفـون علـى البوابـات، وفي داخل غـرف العمليات كان الأطباء والممرضـون يقومون بأدوارهم ويقتسـم أكثر من مريض طاولة العمليات نظرًا لكثرة أعداد المصـابين. كانت ملحمة أظهرت الانتماء وحب الوطن دون أوامر من أحد ودون رغبة من أحد لترك الواجب والعودة إلى بيته. الأسـتاذ نبيل حصر كلامه على وصف المشـاعر الإيجابية للأطقم الطبية. وعرفت من أحد مسـاعديه بعد ذلك إن الدكتور أشرف حاتم مدير عام المستشفيات والدكتور محمد علي حمودة رئيس قسـم الحالات الحرجة التقيا صـباحًا بقيادات المستشـفى مـن الأطباء والموظفين وشـرحا لهـم المؤامرة الكبيرة التي يخطط لها أعداء مصـر، الذين يوزعون على مأجورين أموالاً

وأسلحة لنشر الفوضى وترويع الناس واقتحام المستشفيات. هناك شابان لم يفارقاني في هذه المهمة وهما خالد يسري وياسر حسنين، رويا الأحداث في حماسة شديدة مرددين لكل الكلمات التي خطبها فيهم الدكتور حاتم، ولذلك فهما مستعدان للتضحية بروحهما فداء لمصر، وتمنيا أن تهدأ الأوضاع ويكشف الناس حقيقة هذا الانقلاب. خرمت الكلمة أذني وحاولت إخفاء الضيق وطلبت من أحدهما مساعدتي في الوصول إلى قسم الجراحة، بينما ظل خيالي يستكمل صورة الانقلاب التي نطق بها الرجلان.

الدكتور نبيل القاضي والدكتور سراج زكريا كانا منشغلين في متابعة الحالات الحرجة في القسم. ليس بمقدور أي جريح الحديث للكاميرا نتيجة الإعياء الشديد فغالبيتهم فاقدون للوعي: إيهاب ثابت الشاعر الغنائي والموسيقي لم يتجاوز الثلاثين مصاب بإصابات بالغة في الرأس وتبدو عليه علامات الإعياء، يتحلق حوله ذووه يتضرعون إلى الله لإنقاذه. اقتربت من صديقه ويُدعى وليد صدِّيق الذي حكى عن كيفية إطلاق النارعلى إيهاب. وعلى السرير المقابل لإيهاب يرقد طارق حسين عبد المجيد، أربعون عامًا، مصاب بثلاث طلقات نارية. أما محمد فريد، ذو الثلاثة والثلاثين ربيعًا، فيشير والده فريد محمود إلى أنه مصاب بطعنتين في القلب. كانت الصور بشعة وآثار النزف على الأغطية تنبئ بأن الكارثة مفزعة.

علـى الجانـب الآخر مـن الغرفة وقفت أسـتجوب شـيخين يقفان بجانب ابنهما. ملابسـهما تدل على أنهما من الفلاحين وهما في حالة رثـة يسـيطرعليهما خوف وإشـفاق علـى ابنهما المتوصـل بجهاز للتنفس الصـناعي وجهاز لتشـغيل القلب وجسده مليء بالجروح المضمدة والخراطيم، قال الأب:

- جينا من محافظة الشـرقية وبقينا نبحـث عنه أربعة أيام، إلى أن اتصـل بنا شاب قال إنه معاه محمول ابني وبطاقته وقال إنه في القصر العيني متصاب إصابة خفيفة.. بس لما جينا وشفناه عرفنا إن عنده سبعتاشر طلقة في جسـمه.. الدكاترة بيحاولوا ينقذوه.. وربنا كريم.

تملَّكتني رعشـة لسـماع هذا الكَمِّ من الرصـاص الذي دخل جسم الشاب، وأكملت الأم وهي تبكي في أسًى وتعيد نفس الكلمات:

- محمـود حبيبي خرج يوم التلات ومرجعش ودورنا عليه، إبني بيموت يا بنتي، قلتلهم يسـفروه بـره ، خودو مني عيني واعملولو اللازم، الدكاترة قالوا لي إدعي له معندناش حاجة نعملها .. حسبي الله ونعم الوكيل..

وتدخـل في نوبـة نواح، فلـذة كبدها تذوي أمامها كالشـمعة التي تنطفئ تدريجيًا.

أما محمود عبد الواحد فهو مصاب برصاصة في الرئة، وهو من مركز المنيا ووصفت لي الممرضة حالته وقالت شكله غلبان قوي، ولم يكن بجواره أحد من أهله أو أصدقائه.

ثم انتقلت إلى قسم الرمد حيث يرقد العديد من المصابين بطلقات في الأعين، وسألت الدكتور أدهم أحد شباب الأطباء الذي يشرف على الرعاية:

- لماذا إصابات الأعين كثيرة لهذه الدرجة؟ وهل يعكس ذلك قصدية وإستهداف؟

أجاب باقتضاب يدل على أن هناك من سبقني إليه وقام باللازم، قال:

- لا أستطيع أن أحكم الآن فهناك تحقيقات وتقارير طبية ستوضح كل التفاصيل.

سجلنا مع خمسة جرحى في نفس الغرفة، قالوا إن الأطباء رفضوا استخراج الطلقات لخطورة ذلك على عصب العين. واتهم أحمد عبد المنعم وهو طبيب شاب من النشطاء السياسيين مصاب في عينه اليمنى بخرطوش باستهداف شباب الثورة والقتل العمد لهم من طرف عناصر من الداخلية، وأشار إلى أنهم ألقوا القبض على أربعة عشر من البلطجية واكتشفوا أنهم يحملون كارنيهات

تــدل على أنهم من رجال الشــرطة الســرية وقاموا بتســليمهم إلى القوات المسلحة، وأضاف:

- القناصون نَشــنُوا على عيون الشباب وتعمدوا إحداث الضرر الفادح، بحيث يموت على الفور من تكون إصــابته قاتلة ويُصــاب بالعجز الدائم من يتم إنقاذ حياته.

أضاف أحمد في حزن مُتخفٍ وراء حماس ثوري أن الأطباء أكدوا فقده البصر!.

عاطف جريح آخر مصــاب في عينه فاجأني بانهياره النفســي ولكن ليس بســبب مــا أصــابه، وإنما لما أصــاب صــديقه. قــال في هياج وغضب:

-صاحبي مينا مات قدام ضباط الجيش، محاولوش يحوشو عنه ..موش حسيب حقه.. قولوا للعالم كله موش حسيب حق مينا!!

كتمت تأثري لكن لم أستطع التمالك وارتعشت يدي وهي ممدودة أمام عاطف بالميكروفون وهممت بالخروج من المستشفى، وطلبت من عاطف رقم تليفونه، ونويت أن أتابع قصــة صــديقه مينا، هذا الشــهيد القبطي الذي اختلطت دماؤه مع دماء شــهداء من الشباب المسلمين. فأعطاني عاطف رقمه ورقم تليفون والد مينا، قائلاً إنه لم يغادر الميدان منذ علمه بفقد ابنه، وأن أصدقاءه أبلغوه أنه تحول

إلى عرضحلجي الثورة يتولى كتابة اللافتات والشعارات التي تعبر عن مطالب الثورة .

حنـان الممرضـة همسـت لي مُظْهرة تعاطف الأمهـات؛ معبرة عن حاجة «العيال» للسـفرللعلاج في الخارج وأن مصر«مش حتعملهم حاجة»..كررتها مرتين، ثم أخبرتني عن وجود بارقة أمل تتمثل في مدام هبة السـويدي، وصفتها بفاعلة خير وهي حضرت لتسأل عن عدد من «العيال»الذين فقدوا عيونهم وهي التي ستتكفل بمصاريف سفرهم وعلاجهم في الخارج.

قطعـت تلك الهمسـات رنـات الموبايل فهممت بالردّ مسـرعة حتى أمنع الحرج من جراء الموسـيقى المنبعثة مـن التليفون، فوجدتها «شـروق»إبنة أول شـهيد سـقط في مدينـة السـويس تبلغني أنهم حصلوا على تقرير الطب الشرعي بعد التشريح.

كنـت قـد زرت العائلـة في منزلها أول أمس وسـجلت مـع الأرملة «أم شـروق» زوجة الشـهيد سـلامة عبد العزيز وإخوته. سـلامة استُشـهد وعمره ثمانية وثلاثون عامًا بعد إصـابته بسـبع عشـرة طلقـة في الكُلَى والكبد والدماغ.. لم يبق شـيء من جسـده دون أن تقطعه الرصاصـات وكأنه إرهابي عتيد. شـروق ابنة الشهيد ذات الإثني عشـرة ربيعا كانت تستعجل المساعدة التي وعدتُهم بها فلا

يوجـد قرش واحـد في البيت، والمحافظ يطردهم كلمـا ذهبوا إليه، فمن أين ستشـتري الأرملة الحليب للرضيعة ذات الأشهر الستة، وكيف سـتوفر نفقات مدارس البنتين الأخرتين وكيف ستشـتري عـلاج الجدة التي تعيش معهم في بيت صـغير بعطفة الغزال بحي الكويت!

خرجت متعجلة العودة إلى المكتب لعمل المونتاج لإرسال التقرير إلى القناة، وشـرد خيـالي لبرهة حين اعترضـ طريقي موظف من إدارة المستشـفى ووجه لي أسـئلة متلاحقة واشـتممت على الفور رائحة التحريات الأمنية من شكله ونظراته غير المريحة، فضممت حقيبتي إلى حضني جيدًا خوفًا على شرائط التسجيل التي وضعتها فيها. وأدركت علـى الفور أنني لابد أن أتخلص من الموقف ببعض الدهاء !.



أفقت على صوت باب الغرفة يُفتَح ويدخل الدكتور وسام صحبة الممرضـة الضـاحكة سـامية. لا أدري كم من الوقت اسـتمرت تلك الغفوة لكن وجود الدكتور وسام ينبهني إلى إن الزجاجة الأخيرة في الجرعـة قاربت علـى الانتهاء. قدماي لا تسـتطيعان حملي إلى الحمـام. خيالات تلعب بمقلتيَّ تحركهما بلا هدف، وتلوح صـورة

بنات الشهيد السويسي سلامة عبد العزيز وهن متلحفات بسواد يكاد يلامس طرفة عيني.

أسلمت جسدي إلى السرير بينما كان يصلني صوت الدكتور وسام بقفشاته التي تضفي جوًا مرحًا على الغرفة، من خلال تعليقاته المتشفية في الزمالك الذي خسر مباراته أمام الأهلي والتي قسمت المستشفى كله إلى معسكرين تشتد بينهما المعارك، وفي أفضل الأحوال المزاح والسخرية على المغلوب فيها دومًا الزملكاوية الذين من فرط ما يخسرون المباريات والدوري في آخر المراحل يجنون سخرية الأهلاوية وعطف الباقين!.

وتحول الحوار فجأة إلى دفة الأوضاع بعد الثورة حيث اشتعل الملعب بين الأُلتراس وقوات الشرطة، فقد توجه عدد من الألتراس إلى ميدان التحرير بعد أن ألقت الشرطة القبض على أصدقائهم. ولا يبدو أن الطاقم الطبي كان مرتاحًا لما يجري. وصفت الممرضة جرأة بعض الشباب بالوقاحة فهم لا يخيفهم شيء منذ الثورة بمَنْ في ذلك رجال الشرطة، ولا يحترمون الكبير ويطيحون بكل سلطة ويتجاسرون على المجلس العسكري،وأضافت:

- ثورة إيه..وثوار إيه.. بصراحة منتهى قلة الأدب مع ضباط الشرطة اللي مصدقنا نزلوا الشارع تاني، وبعد ما أفسدوا العلاقة

مـع الشـرطة بـدأوا في التطاول على الجيش وكل شـوية «يسـقط يسقط حكم العسكر» وبعد كده الولد يوقف لأمه ولوالده ويعلمهم الأدب..إحنـا كده بنعلـم أولادنا إنه ملهومشـ كبير..وكفاية بقه. مينفعش يتطاولوا على المشير اللي في مقام والدهم أو جدهم !

انتقـاد الممرضـة للثـورة والزهـق منها نلمس اتسـاع مـداه بين الناسـ العاديـين في الفترة الأخـيرة الذين أصـبحوا يخافون من انتقال التمرد من الشـباب في الميادين إلى البيوت والعائلات. ولكن الممرضـة سـامية الأصـغر سـنًا أظهـرت عدم رضـاها عـن موقف زميلتهـا معترضـة علـى تصـوير الرئيس أو المشـير علـى إنه أب أو في مقـام الأب؛ موضـحة أنـه يعكس إلى أي مدى نعاني مشـكلة ضـخمة مستمرة ليس من أيام حسـني مبارك فقط وإنما منذ قدماء المصـريين وهي فرعنـة الحاكم، والتعامل معه علـى أنه «زي بابا أوعلى الأصح زي جدو» وكل كلمة أمامها ميصـحش.

التقط طارق طرف الحديث ليضـيف إلى هذا المفهوم للعلاقة بين الحاكـم والمحكوم بعدًا آخر يؤدي بـدوره إلى مفهوم آخر للوطن، فهـو «عزبة بابا أو عزبة جدو مبارك ومن ثم عزبة إبنه بالتالي هذا الشعب عبيد شغالين عند بابا وإبنه».

تابعت الحوار دون رغبة حقيقية في الإنصـات، فالدُّوَار في رأسي

يخلُّ بتوازني، ولم أصدق أني نجحت في الوصول إلى السيارة!. جلست في الكرسي الخلفي وارتطم جسمي عليه. وبدأ ذلك الغثيان المتواصل. لابد أن أشغل بالي بأي شيء آخر غير تداعيات الجرعة. هذا هو الأسلوب الأمثل الذي يتّبعه الإخصائيّون النفسّيون لعلاج اشتداد الآلام عند المريض بعد أن يتناول كميّة كبيرة من المسكّنات تهدّ جملاً كما يقول المثل.

أحاول أن ألهي نفسي بالموبايل، أتفحص تويتر وأقرأ تويتاية من لؤي إيجبت الذي يسمي نفسه «واحد فلول»، ويضع صورة مبارك على حسابه: «لما شفيق لبس بلوفر أصبحت ثورة مضادة، ولما المشير لبس بدلة أصبحت دكتاتورية ولما علياء المهدي قلعت هدومها ملط أصبحت حرية» .

ويأتي الرد بتويتاية من «أحمد صفر صفرسبعة» يقول: «هدوم صنعت التاريخ: بدلة المشير، ترينج المخلوع، بلوفر شفيق، بُرنس العادلي وجلابية الراجل بتاع ماتش الزمالك».

وتويتاية تحت حساب إيجبشن مودي- نوسكاف تعلق: «يلبس بدلة يلبس بوكسر، يسقط حكم العسكر».

أما عمنا جلال عامر فيدون تويتاية تلخص المشهد السياسي الحالي: «موش ناقصنا غير إن اللواء عمر سليمان يطلع يقول

قرر الرئيس محمد حسني مبارك التراجع عن قرار التنحي، والله الموفق والمستعان».

الحالة الثورية محتدمة وأنصارها يتناقصون أمام ازدياد التشرذم في صفوف النخبة السياسية، وأتابع تعليقات عديدة ضاقت ذرعًا بالانتهازيين الذين يملئون الشاشات ويتحدثون باسم الثورة وتركوا الميدان للبلطجية والباعة الجائلين، فيما تزداد معاناة الناس الغلابة مع صعوبة لقمة العيش وكثرة تعطل المواصلات والغلاء والتضخم الذي يأكل القروش القليلة التي يتقاضونها آخر الشهر.

أما معاناتي فتستمرُّ هي الأخرى بعد كل جرعة لمدة أسبوعين على الأقل، تموت خلالها الخلايا فتموت معها الرغبة في الحياة، وكلما حاولت أن أستجمع بقايا قوة وعزيمة لأقبض على ومضات النور المختبئة وراء اللّيل، لا أجد غير الظلمة الحالكة. ومادام العزم قد وَهَن فليس أمامي غير التعب أصنع منه سياطًا، فأقاوم التعب بالتعب، ألم يَقُل الشاعرالعباسي أبو نواس: «وداوني بالتي كانت هي الداء»[1].

أنتظر حتى الخميس الثالث في معركة حامية الوطيس من المقاومة والصبر لأستعجل استعادة نبض الحياة فتسطع النجوم في السماء مرة أخرى وأستحم على ضوئها الناعم.

تدثّرت بظل القمر وقررت أن أبدأ في مدوَّنتي الجديدة. اخترت لها اسم فكرة الذي زار خيالي في تلك اللحظة. أنا أفكر إذن أنا مازلت موجودة! وبعد أن سجلت الاسم ووضعت أول مشاركة، غازلني عنوان جديد للمدونة. تمنيت أن أسميها «تحفونة» فهو وصف تونسي فيه دلال يُطلق على أي شيء مؤنث جميل..فقررت أن أدمج الاسمين معًا بحيث يصبح «فكرة تحفونة». ارتحت للمحة الإيجابية التي يتضمنها الاسم مع الدمج بين الجزئين التونسي والمصري الراسخين في عصارات فكري. في الصحافة تعلمت أن الخبر لابد أن يقدم الملمح السلبي، أما علم النفس والموارد البشرية فقد تعلّمت منهما كيف أجعل رسالة الكتابة في مقالاتي إيجابية. الدكتور محمد شعلان أستاذ جراحة الأورام بالمعهد القومي للأورام ورئيس المؤسسة المصرية لمكافحة سرطان الثدي أوصاني في بداية أزمتي بتلوين كلماتي باللون الوردي، وهو لون الأمل، مثلما تلون حملات التوعية التي تقوم بها جمعيته الهرم الأكبر باللون الوردي لتحوّله من مجرد مقبرة تاريخية مبهرة إلى رمز للأمل لدى الناجيات والطامحات لهزيمة المرض، فرغم أن السرطان وحش كاسر لكنه يوحد الناس من شتى أنحاء العالم حول تحدي مكافحته.

أتصفح المدونات العربية التي تحظى بأكثر تعليقات ، وهي

مليئة بالجرأة وتكسير الحواجز والتابوهات لكن كثيرًا منها قاتم، حيث تسيطر الأوضاع السياسية على معظم توجهات المدونات العربية الشهيرة. في مدونة أولاد الغولة أقرأ هذا التعليق حول قضية التهافت على الفوز بالمناصب في تشكيل الحكومة: «السر بسيط للحصول على المناصب..بالمناسبة لم تتغير الطريقة من عهد بن علي إلى بعد الثورة فالسر في «التبندير»- يعني مسح الجوخ والتقرب والنفاق- وهكذا يصبح أمرًا عاديًا جدًا أن يقول كل بندير «أنا بندير ولد بندير نحب نولي وزير»، والطموحات لا تقصي أحدًا، فقط الشروط أن تعرف التبندير والدربوكة والزكرة وكلها آلات موسيقية تعزف على الأوتار العاطفية!!».

أديرُ الريموت وأبحث عن الجديد من الانكسارات التي لا تستقيل من حياتنا. أجد إعادة لحلقة من برنامج يسري فودة «آخر الكلام»، الذي انسحب مؤخرًا من البرنامج بعدما تردد عن وجود ضغوط من المجلس العسكري. لا أدري للدقة هل الضغوط على فودة من المجلس مباشرة أم ربما من رئيس القناة نجيب ساويرس الذي يبدو أنه يواجه ضغوطات متتالية ويريد أن يتحاشى غضب المشير. سجل فودة نجاحات لفتت الأنظار إليه في هذه السنة، ولدي أكثر من سبب لعدم تفويت أي فرصة للفرجة على البرنامج فمصطفى المرصفاوي أحد أبنائي الذين أفتخر بهم هو مدير تحرير

البرنامج؛ لذلك لابدّ أن أتابعه على الدوام وأشجع واحدا من أبناء هذا الجيل الواعد.

تستوقفني أغنية الشيخ إمام يا مصر قومي التي يذيعها العديد من البرامج بشكل متكرر منذ الثورة ولا أستطيع مقاومتها فتسري رعشة في جسدي، وبحماسة وبهجة طفولية أستمع إليها ولا أغيِّر المؤشر لأتفقد سريعًا ما يجري في البرامج الأخرى قبل أن ينتهي الفاصل:

يا مصر قومي وشدي الحيل
كل اللي تتمنيه عندي
لا القهر يطويني ولا الليل
آمان آمان بيرم أفندي...

يسعد صباحك يا جنينة
يسعد صباح اللي رواكي
يا خضره من زرع إيدينا
شربت من بحر هواكي

شربت من كاس محبوبي
وعشقت نيل أسمر نوبي

وغسلت فيه بدني وتوبي
وكتبت اسمه على زندي
آمان آمان بيرم أفندي

يا مصر قومي وشدي الحيل
كل اللي تتمنيه عندي
لا القهر يطويني ولا الليل
آمان آمان بيرم أفندي

نفس هذه الأغنية اتخذها محمود سعد وإبراهيم عيسى مقدمة موسيقية «جينيريك» لبرنامج في الميدان على قناة التحرير. الحلقة الليلة دارت بالكامل عن استمرار البلطجة والفوضى العارمة وغياب الشرطة وحالة الهلع التي عادت لتنتشر في مناطق عديدة مثلما كان الوضع بعد الثورة مباشرة. تلقى محمود سعد استغاثات على الهواء من الفيوم والقاهرة الجديدة والأقصر. أبرز ما يميز مدرسة سعد هي جلوس المذيع في مقاعد المتفرجين والحديث بلسانهم وتبنِي مواقفهم بنفس عفويتهم وبساطتهم. لذلك يدخل قلوب الناس بسهولة. لكن بعض النقاد يصفون الأسلوب بالبعد عن الاحتراف وينتظرون بتحفز ليثبتوا فشل بعض الإعلاميين، الذين كسبوا من وجود الممنوعات في عهد حسني

مبارك؛ حيث كانوا يمررون رأي الشـارع ومواجعه وعندما سقط النظـام وممنوعاته لم يجدوا ما يتميزون به. ولكن هل صـحيح إن الممنوعات قد انتهت بسقوط النظام ؟!

وعلـى قناة السـي بي سـي تتوالـى الاتصـالات بلميس وخيري تسـتغيث من حالة الفوضى العارمة، وتعبر عن تأففها من الثورة التـي أوقفت ميـدان التحرير وشـوارع العاصـمة وقطعت الطرق وأوقفت السكة الحديدية في المحافظات وتطالب بفض الاعتصامات والعودة إلى الإنتاج الذي تعطّل بسبب تلك الوقفات.

الناس الكنبـة وهم الأغلبيـة الصـامتة، ينتابهم التوتـر والقلق الشديد ويريدون بعد ما نجحت الثورة في إسقاط مبارك، أن يُغلق هذا الملف بسرعة و«سلام عليكم وكل واحد يروّح بيته وشغله».

وفي الثورات التي قامت عبر التاريخ تبدو سيناريوهات الفوضى أمـرًا متعمّدا ونسـخة مكررة طبق الأصـل في البلـدان التي جربت الثـورات؛ حيث يتـم التخطيط لموجات من الهلع لنشـر القلق لدى العائـلات وخاصـة في صـفوف حـزب الكنبـة. تخرج العصـابات للسلب والنهب وحرق المنشآت والاعتداءات والبلطجة مع اختفاء متعمد لقوات الشرطة. ويسارع بلطجية ليندسوا بين المتظاهرين ويعطلوا المرافق، وتتابع وسائل الإعلام الفوضى التي انتقلت إلى الإقتصـاد الذي شـارَف على الإفلاس، فالعديد من المصانع أغلقت أبوابها والاسـتثمارات العربية والأجنبية بـدأت في الهروب بينما

تجاوز التضخم كل الحدود وودعت الشوارع المصرية الأمن والأمان. لكنَ الإعلام يتحول إلى دائرة الاتهام بتضخيم تأثيرات الأزمة وربط كل المشكلات في أذهان البسطاء بالثورة؛ حتى يترسخ في أذهان الناس أن البلد على شفا المجاعة والإفلاس والفوضى بسبب الثورة. لا يمكن أن تغفل عيون المراقبين في شتى أنحاء العالم عن عدة مؤشرات لها أكثر من مغزى، منها أن بقاء المجلس العسكري وقتا أطول في حكم البلاد سوف يحول دون قدوم الاستثمار الأجنبي، وعودة السياحة إلى معدلاتها، وسوف يؤخر تنفيذ الإصلاحات وإعادة الأمن إلى البلاد. فالحمل ثقيل على المجلس العسكري الذي فشل في تأمين مباراة كرة قدم؛ فكيف يقدر على إدارة بلد وهو لا يجيد إلا الإدارة العسكرية ولم يَعْتَد على الحياة السياسية! ثم إن المجموعات التي كانت تنعم داخل السلطة بامتيازات خيالية تستغل هي الأخرى الوضع لتحريك ميليشيات خاصة بها تستميت للدفاع عن مصالحها وتدفع الأموال للمأجورين حتى يعيثوا في البلاد فسادًا، ولن يستسلموا أبدًا فكيف سيتركوننا ننعم بالحرية والكرامة وهم يقبعون في السجون وكل تلك الأموال التي غنموها لن يتمتعوا بها؟!

في كل الثورات هناك البعض الآخر من تجار المصائب يستغلّون الأحداث ويجنون ثروات ويوطدون سلطاتهم تحت ستار الفوضى

التي لا مصلحة لهم في إخمادها. وعاشت تونس ومصر أوضاعًا متشابهة خلال الشهور السابقة. وكانت تصلني أصداء تونس بين الفينة والأخرى من أشقائي وأصدقائي عن حوادث عنف لقي خلالها عدد من المواطنين حتفهم نتيجة السرقة والمداهمة على يد بلطجية. أما في مصر، فالخطف وطلب الفدية هما آخر ابتكار للبلطجية.

تعاودني هبّات السخونة وأبدأ في مقاومة نوبات العاصفة التي تقتلع أعصابي وأنا أشاهد برنامج «في الميدان»، في انتظار الفقرة التي ستظهر فيها سمر التي بدأت العمل كمراسلة لقناة التحرير منذ شهرين بعد عودتها مباشرة من تغطية الثورة الليبية. القلق عليها يعتصرني خوفًا من أن يصيبها أي مكروه، فالوضع ملتهبٌ مجددًا في الميدان مع الاستعداد لمليونية الجمعة، ومع توافد أشخاص يصفهم الإعلام الرسمي وبعض القنوات الخاصة وبيانات المجلس العسكري «بالمندسّين » وسط الثوار. تقضي سمر ساعات طويلة ضاغطة على أعصابي وسط المتظاهرين وتغطي آخر الأخبار عن ثوار التحرير للقناة.

ظهور سمر التلفزيوني أجمل هدية لطّفت حياتي وعطّرتها في هذا العام الضاغط على عمري، بل لعلّه نقطة الضوء الوحيدة التي

تبعث على التفاؤل وسط الأحداث المحزنة التي تلاحقني وحالة الكآبة التي تحاصرني. فسمر هي أهم إستثمار إنساني بذلتُ الكثير من الجهود للاهتمام بنشأتها وتوفير فرص التعليم الأمثل، في وقت لم تكن الظروف في الأسرة مناسبة للرعاية كامل الوقت نتيجة عملي لمدة طويلة ووجود عائلتي بالكامل بعيدة عني في تونس وعائلة زوجي في مدينة أخرى وهي الإسماعيلية، وعادة ما تقدم الأم، وأفراد أسرة الزوجين عمومًا يد العون في تربية الأحفاد وهذا لم يكن متاحًا لنا، بإستثناء خالة زوجي رضا المقيمة بالقرب منا في حي العباسية. وكانت بمثابة الجدة التي تحتضن سمر بعد عودتها من الحضانة والمدرسة في بعض الأحيان لحين عودتنا المتأخرة من العمل.

وظهور «سَمُّورة» في الشاشة هو تتويج للأسرة ولكل من ساعد في رعايتها. فما أجمل النجاح بعد طول تعب، وتبدو سمر في الشاشة متألّقة رغم صغر سنها وطفولتها الواعدة - فهي في العشرين من عمرها وربما زملاؤها مازالوا في صفوف الدراسة- وكما علق أحد أساتذتها في الإعلام، فإنها محظوظة لأنها نالت فرصتها كمذيعة في برنامج تلفزيوني قبل سن الأربعين!

وتبدو الكاميرا المتركزة على ميدان التحرير كاشفة من علوّ كافٍ

مجموعات الشـباب الذين لم يغادروا الميدان منذ الجمعة الفارطة ويسـتعدون للجمعة القادمة. وتشرح سـمر مطالب المليونية بناء على حديثها مع شباب ائتلافات الثورة ، وفي مقدمتها التعجيل بحل مشـاكل جرحى الثورة وتفعيل صـندوق رعاية الشـهداء بصرف التعويضـات التي لا يوجد أي سـبب مقنع في عدم صرف الحكومة لها لحد الآن. وتستضـيف ندى القصـاص الناشطة في حركة كفاية ومن المناضلات ضـد حكم مبارك منذ سنوات عديدة وكانت ضمن المبادريـن بالخروج في ثـورة ٢٥ يناير ولم تترك ميـدان التحرير، وتطالب ندى بالتعجيل في محاكمة رجال النظام السـابق وبجعلها محاكمـات علنية وبالتوقف فـورًا عن إقامة المحاكمات العسـكرية للمدنيـين. وتتفـق مع عـدد من ائتلافات شـباب الثـورة في توجيه إنتقادات شـديدة إلى المجلس العسكري؛ لأنه تمت إحالة أكثر من خمسـة آلاف مدني إلى المحاكمات العسـكرية منذ سـقوط مبارك في الحادي عشر من فبراير ٢٠١١ ، وتشدد :

– بعضـ المعتقلـين تم القبض عليهم في مظاهرات سـلمية بميدان التحريـر، والبعضـ الآخـر هـم نشـطاء ومدونـون تم اختطافهم وتحويلهـم إلى النيابة العسـكرية بتهـم تتعلق بالـرأي والتعبير بسـبب مـا كتبوه علـى مواقـع التواصـل الاجتماعـي الفيس بوك وتويتر.

وتتساءل ندى في استنكار للمفارقة الحالية:

-هل يُعقل أن يُحاكم الرئيس المخلوع وكبار مسئولي النظام السابق الذين أفسدوا ثلاثين سنة من عمر الشعب المصري أمام المحاكم المدنية بتهم هزيلة، بينما يحاكم من خلّصونا من أعتى الدكتاتوريات في العالم أمام القضاء العسكري ؟!.

انتهت فقرة البث من الميدان مع سمر ويأخذ محمود سعد خيط الحديث ليعيد طرح السؤال حول المعتقلين الذين يحاكمون أمام القضاء العسكري، مطالبًا في نفس الوقت بضرورة إطلاق سراح جميع شباب الثورة الذين قدموا للبلد شيئًا عظيمًا وهو خلع حسني مبارك وعودة الكرامة للشعب المصري، وهم أنفسهم الذين يشوههم المجلس العسكري والإعلام الرسمي ويدعي أنهم مخربون لمؤسسات الدولة بينما هم من حموا المتحف المصري في مواجهة محاولات اقتحامه ونهبه.

جرعة النقد التي توجهها ندى القصاص ربما لا تحتملها غير قناة التحرير في الوقت الحالي؛ فهي القناة المنحازة للثورة وكثيرًا ما توجه انتقادات إلى المجلس العسكري والحكومة ولابد أنهم يتلقون ملاحظات وتمارس عليهم ضغوط ، وهذا ما يستشف من بين الأسطر، فهل يا ترى سيستمر محمود وإبراهيم وبقية الأطقم على نفس النهج أم أن نفسَهم سيكون قصيرًا وستتغير مع الضغوط سياسة قناة الثورة، أوسيتصدى عشرات الفلول

بالملايين الجاهزة لتفكيك هذه «اللمّة» التي تأتي على غير هوى المجلس العسكري؟!

لا أدري هل ازداد ألمي بعد الهدنة القصيرة وأضحى فجأة غير محتمل في تلك اللحظات بفعل تلك الأخبار عن إصرار المجلس العسكري على تقديم المزيد من المدنيّين إلى المحاكم العسكرية؟! هل الثورة التي ابتهجنا بها وأعتقتنا من الظلم والعسف تكاد تلفظ انفاسها؟ هل هي خيبة أمل في المجلس العسكري الذي كان يراه عموم الناس الطرف النبيل في معادلة الثورة والذي رجّح كفّة الميدان أم أن الثورة تُسرق من طرف انتهازيِّي اللحظة الأخيرة الذين نزلوا الميادين بعد أن تأكدوا من تداعي النظام السابق وسقوطه، فسارعوا لعقد الصفقات والإجهاز على السلطة وتحقيق حلم الجلوس على كرسي الحكم بعد أن راودهم قرابة القرن؟ هل نَفِدَ صبر الناس ولم يعد لديهم القدرة على الإستمرار والصمود؟ ربما هناك أكثر من عذر للناس الذين ضاقوا ذرعا بسرقة أحلامهم وتعطل أشغالهم ووقف الحال الذي أصبح السمة الجديدة لحياتهم. لكن لماذا كانوا يحتملون نظام مبارك كل تلك العقود دون أن يملوا أو يضجروا؟!

الدماء تغلي في عروقي والسخونة تكاد تفجر دماغي: لماذا يقدم شباب الثورة دماءهم الزكية من أجل استرداد كرامة المصريين بينما آخرون يحكمون؟.. ولماذا يستمر نظام مبارك في تسيير

شـؤون البـلاد وبنفس عقلية البطش والتعنت، ألم يسـقط رجال النظـام.. انظـروا حولكم سـترون رجال مبـارك مازالـوا يتقلدون المناصـب، ونفس طبقة كبـار الموظفين والمسـئولين مسـتمرة في التحكـم بمقاليد القرار داخل البنك المركزي والبنوك وسـوق المال وكبرى الشـركات العامة والوزارات والمحليـات والأحياء وقطاع التجـارة ، وهذه الطبقة تدافع عن اسـتمرارها والمسـألة حياة أو مـوت وليس مجرد حفاظ على مصـالحها الخاصـة. يبقى أن هذا الوضـع الذي يعطي ظهره للثوار فلا نراهم يشـاركون في حكومات الثـورة ولا يستشـارون أو يؤخذ بمطالبهم هو وضـع غريب جدا وغيرمسبوق في أي الثورات التي قامت في العالم .

ضـغطت كل تلك التسـاؤلات على رأسي ، ولم يعد هناك من منقذ إلا أن تصـرَ مليونيـة الغـد على تحقيـق المطالب الملحّـة وتتوقّف الحكومة عن التباطؤ والتلكّؤ المعتاد .

الدكتور أحمد عكاشـة أسـتاذ الطب النفسـي له تفسـيره المبتكر والطريف لهذه الأسـئلة فيشـبّه أسـلوب عمـل الحكومة والمجلس العسـكري بأنـه نفس أسـلوب التلميـذ البليد الذي يظل يسـقط في الإمتحان، ويتكرر فشـله كلما خاض الامتحان، دون أن ينتبه إلى حتميـة تغيير طريقة المذاكـرة إذا كانت لديـه الرغبة الحقيقية في النجاح.

فكرت في تلك الحظة بأني قد أكون بحاجة إلى زيارة العيادة النفسية ،وأسررت لسمر بذلك ،فردت على عجل: «مصر كلها عايزة تروح العيادة النفسية !» .

أرهقتني الأسئلة وغياب الأجوبة، وغموض المستقبل. تناولت الأدوية وأخذت مسكنًا قويًا علّه يفلح معي في تهدئة حالتي ثم أغلقت عيني مستسلمة لغفوة عابرة والروح تصرخ في الأعماق: « يا مصر قومي وشدي الحيل.. يا مصر قومي وشدي الحيل .. يا ألفة قومي وشدي الحيل.. كل اللي تتمناه عندك!!» .

الهوامش

(١) استخدم عدد من الشعراء هذا البيت حيث يقول أبو نواس :

دَع عَنكَ لَومي فَإِنَّ اللَومَ إِغراءُ ... وَداوِني بِالَّتي كانَت هِيَ الداءُ

صَفراءُ لا تَنزَلُ الأَحزانُ ساحَتَها ... لَو مَسَّها حَجَرٌ مَسَّتهُ سَرّاءُ

وجاء بعده في القرن الرابع الهجري إبن نباتة المصري واستخدم نفس التعبير :

وحسبٌ قلبي إن كان الصدود رضًى ... فداوني بالتي كانت هي الداء

وهاكَ يا ساكنًا قلبي كؤوس طلاً ... لو مسَّها حجرٌ مسَّته سراء

وأيضًا يقول حسين عبد الباقي الموصلي:

هات الصبوح وسارع فالأخلاء ... من شدة السكر أموات وأحياء

ألم أقل لك إن حار الأطباء ... دع عنك لومي فإنّ اللوم إغراء

وداوني بالتي كانت هي الداء

يوميّات الثورة

توهمت أن الأرض ثابتة وأن الجنة هاجرت سماءنا حتى ظهر النبلاء فمنحونا الحياة بموتهم

تواصلت لقاءاتي مع شبان كثيرين تعرفت إلى أغلبهم في ميدان التحرير خلال الثورة . في البداية التعارف يمتدّ على استحياء خلال أيام ١٨و١٩ و٢٠ يناير، والحديث بالهمس أحيانا عشان المندسّين ، ولكن بعد ٢٥ يناير أصبح كل شيء منزوع الخوف. كنا نتبادل طاقة الأمل ونشجع بعضنا البعض وتعلمت أقول زي الشباب «إشطة عليك ..بجد روعة ».. و«فكك منه» وبعد شوية أصبحنا نجرؤ على السؤال اللي فيه حرص وصداقة وقرب وحميمية أكثر:

- هو انت جيعان؟.. معاك فلوس؟ ..عايز كروت شحن؟ ..أجيب لك هدوم وأنا جاية من البيت الصبح..

هكذا توطدت العلاقة مع شباب الميدان إلى أن أصبح بعضهم يعطي رقم تليفوني لوالدته مرة.. ولخطيبته مرة أخرى، ولوالده الذي يعمل خارج الوطن مرة ثالثة، وطبعًا هناك تليفونات ليلية كثيرة لا أرد عليها. والمشكلة إن بعضهم قادمون من المحافظات ولا يقطنون القاهرة وعندما يقلق عليهم أهاليهم يتصلون بي.. وميبطلوش يتصلوا لحد ما يطمئنوا وأنا طبعًا كنت أقوم بالواجب.. وهاتك يا كذب..

- هو فين، مبيردش ليه على التليفون ؟

- ..أصله نائم في البيت عشان كان سهران يذاكر مع صاحبه.

- .. بيروح الميدان وتشوفيه ؟

- طبعًا..لا ..لا بيروح يوم واحد في الأسبوع «الجمعة»!

- طيب أمال مبيردش ليه على تليفونه ؟

- تليفونه خالص شحن...

كنت أشارك الأهالي خوفهم على أبنائهم بل تحملت مسؤولية إضافية للحفاظ عليهم وعلى حياتهم. عندما طلب مِنِي أحمد الباز، أصغر زملائي الصحفيين وأحد زهور التحرير أن أتسترعلى غيابه لدى والدته عندما تتصل بي فأطمئنها بأنه يعمل معي في الوكالة، رجوته في توسّل:

- أتمنى أن تقدر جيدا أني سأفقد مصداقيّتي أمام أهاليكم وخايفة أكون بتشجيعي لكم أدمركم وأخون ثقة أهاليكم ،فحافظ على حياتك لأنه لو جرى لك أي مكروه فلن أسامح نفسي طول عمري على تشجيعك!

أحمد هو أحد تمائم الثورة حيث لم يترك الميدان خلال ثمانية عشرة يومًا إلا ليذهب إلى منزل أسرته ويغير ملابسه ويعود. كان يصور مع زملائه إنتهاكات الأمن واعتداءات البلطجية ثم

ينشرها على شبكة الإنترنت واليوتيوب والفضائيات فيكشف القمع والتصفية الجسدية، وتعرض للتنكيل والضرب ولكن اعتزازه بنفسه أقل بكثير من فخره بالشهداء. الثوار الحقيقيون متواضعون نبلاء لا يحلمون بمجد شخصي أو مصلحة ذاتية ولا بكماليات أو رفاهية بل مجرد أن يستطيعوا المشي في شوارع المحروسة دون أن يخجلوا من ملابسهم الجديدة وهيئتهم المهندمة أمام كرامة الفقراء المهانة وأقدام أطفالهم العارية وملابسهم الرثة التي لا تكاد تستر عوراتهم. الفقر في الوطن يوجع القلب.

عندما فُرض حظر التجوال واشتدت الاعتداءات ضد الشباب وأوقفتنا الشرطة العسكرية عدة مرات وفتشونا بشكل مستفزّ وعنيف وقرءُوا أوراقي سطرًا سطرًا واستمعوا إلى شرائط الكاسيت التي كانت في حوزة أحمد، أدركت ساعتها أن أصدقاء اللّحظات الأولى قد ينقلبون إلى أعداء وبعد أن أفرجوا عنا، اقترحت على أحمد أن يصحبني إلى المنزل، خوفًا من أن ينفردوا به مرة أخرى في طريق العودة إلى بيته. فرحّب بذلك قائلاً بكل طفولة: «أنا فرحان عشان بجانب حضرتك وحنام في غرفة محمد».

أحمد قام ليلة الأربعاء بتصوير تحركات عصابات تواجدت بجانب المحالّ المجاورة لفندق رمسيس هيلتون ووراء عمارة

ماسبيرو؛ لإعداد زجاجات المولوتوف ووضعها في جوالات خيش وتوزيعها في المناطق المحيطة بميدان عبد المنعم رياض ومداخل ميدان التحرير. كان هناك قائد لتلك العصابات تولّى إعطاء كلّ قائد عصابة مبالغ مالية كبيرة «متأستكة»، وبكل براءة توجّه أحمد صباح اليوم التالي إلى الشؤون المعنوية في الجيش وسلّم تلك الفيديوهات للضباط ، ولم يكن حماسه بعد العودة من هذا المشوار بمثل حماسه عند تصميمه على الذهاب إليهم لتسليم تلك التسجيلات!

في كل فرصة تُتاح خلال اللحظات الصعبة التي مرت علينا مع توالي المليونيات كان أحمد يمطرني شكرًا على مساندتي له، وكنا ننهي أعمالنا من موضوعات وتقارير ونلتقي على إحدى المقاهي المنتشرة بالقرب من البورصة، أو بجانب عمر مكرم في الميدان والنقاش الذي يسيطرعلى عقولنا هو كيفية تحويل الحلم إلى حقيقة، وقد إنبثقت أفكار مبتكرة ونبيلة بمبادرة من الصديق فتحي عزام وزوجته السورية «ثورة» وابنته الحبيبة رنيم والتي اكتشفنا فيها قدرة على القيادة رغم صغر سنها. عقل رنيم كغيرها من شباب جيلها لا يقدر على فهم معضلة مستعصية وهي أن من هم فوق السبعين يخططون لمستقبلنا، بينما من هم تحت الثلاثين يكتبون وصيتهم بإعتبار أنهم مشروعات موت جاهزون للاستشهاد في أي وقت.

كنت مع أصـدقائي في سـن رنيم، ربما في سنة ثالثة ثانوي، نغني للموت مـع أولاد المناجم عندما نجتمع أمام ليسـيه مجيدة بوليلة في صـفاقس قبل أن ندخل إلى الفصـول. أقسى ما في هذا المشهد أن خيالنا ونحن صـبية يحتله خوف الموت وحزن مبكّر دفين وتصـدح أصـواتنا بكلمـات يتغناهـا عمـال المناجـم في الدواميس: «يا قارئ الجريدة وصـحّاح الأوزان أنا بـلادي بعيدة وماعنديش أوطان كي تشـوف المناجم والموت اللّي هاجم يتنطّر ويداهم من غير اسـتئذان وعرقنا وخلاّنا صـاعد كي الدخّان راسـم وسـط سـمانا صورة من الأحزان..». خيال الحركة العمالية اليسارية حزين، يؤمن بالأممية بـلا حدود ولا هويّات قطرية ويخضـبون جراحهم من عذابات عمال المناجم وهم الفئة الأكثر استغلالاً في الطبقة العمّالية.

لكن خيـال رنيم وجيلها أكثر بهجة وإشـراقًا منـا؛ لأنهم واثقون مـن القبضـ على تفاصـيل حلمهـم. كانـت تتولـى إدارة الحلقات النقاشـيّة مـع أطياف من البشـر لا تجمعنا بهم صـداقة قديمة أو تاريخ ومواقف سـابقة سـوى أننا كنا نلتقي في المظاهرات بالميدان فنشجع بعضنا البعض بإستلهام الروح النضالية المشتركة وحب الوطـن والأمل في بكرة. وأطلقنا على تلـك المجموعة التي ازدادت أعداد المنضـمين إليها مع كل جمعة ومليونية جديدة «الناس اللي في البيـوت» وذلك بعد اسـتطلاع رأي من خـلال الفايس بوك حول

أفضل الأسماء التي تعبر عن هويّة المجموعة، وكان من ينضمّ إلى المجموعة يحرص على طرح أسـئلة استشرافيّة: هل ستترشحون إلـى مجلس الشـعب ؟.. فنجيـب بالنفي! فيليـه السـؤال الموالي: هل ستؤسسـون حزبًـا جديدًا؟.. فتكـون الإجابة بالنفي أيضًـا!.. وتسـتمرّ الأسئلة التي تعكس إلى أي مدى تحول العمل العام عبر عقود إلى مصـالح متوحشـة. غير أن الصـديق عزام لا يسـتغرب منه العطاء بدون مصـلحة أو من أجل الوطن، ولذلك فصـداقتهما تُدْخل البهجة عليَّ على الدوام، لأن صـداقة الصبا والشباب تنهل مـن نبـع الإخلاص والبراءة ومقاصـدها المحبة مـن أجل المحبة. نفس هذه الصـداقة بملامح البراءة والإخلاص عادت الى الميادين في تلك اللحظات الثورية التي أدهشت العالم . لعل الفرصة لم تُتَح لي بالشكل الكافي طيلة الشهور الماضية بعد الثورة لتوضيح حقيقة مهمـة، وهي أن أحمد الباز وزملاءَه الشـباب نبع من العطاء بدون انتظار مكافأة أو كلمة شكر وأنهم هم من يستحقون مني الشكر لأنهم منحـوني الكثير والكثـير دون دراية منهم، وفي مقدمـة ذلك العطاء القـدرة على الحلم والتمسـك بالأمـل والذي لم يكن يقبـل التنازل أو القسـمة والتضـحية بشـيء منه، حيث كانـوا يعرفون طريقهم وهدفهم جيدًا، ويكفي أنهم لم يتراجعوا عن التظاهر والاعتصام في التحرير بعد خطاب مبارك في ذلك اليوم المشـهود الثلاثاء الثاني من

فبراير وقد سكت دهرًا ثم ظهر للناس ليعلن أنه لن يترشح لفترة رئاسية سادسة في الانتخابات المتوقعة في سبتمبر، كما دعا إلى تغيير المادتين ٧٦و٧٧ من الدستور المصري الخاصتين بشروط الترشح للرئاسة وتحديد مدتها. لقد كان لهؤلاء الشباب بصيرة أفضل من بصيرة غالبية السياسيّين الذين سارعوا بالدعوة إلى قبول الاقتراح والانتظار حتى سبتمبر، وخيالهم غير مصدق أن هذا حدث من مبارك، بينما خيال الشباب أبعد من ذلك التصور بأشواط كثيرة.

ولقد كان لهؤلاء الشباب النبلاء الفضل في أن أسترجع الثقة في حتمية انتصار الثورة في لحظات التأزم التي تبدو قاتمة وبلا أمل يُرجى. كانوا بمثابة البوصلة التي وجهت إليها مؤشري دائما وأبدا، وقد تعرفت من خلال أحمد إلى مجموعة من الشباب ينحتون في الصخر لتحقيق ذواتهم هم وقود الثورة وهم على درجة كبيرة من الوعي، منهم تميم ، وشيماء، وعبد الله ، ومحمد وغيرهم. ورغم اختلاف مشاربهم الثقافيّة والسياسيّة إلا أن جميعهم يشترك في الرغبة الصادقة لتغيير مصر؛ لأنهم يرون أنفسهم جديرين بهذا الحلم الكبير. وقد اعترفت لهم بأنهم أفضل مني ومن جيلي الذي سقط أغلب رموزه السياسيّين وتلوّنوا بجميع الألوان الأيديولوجية كما شهدوا من قبل سقوط الأساتذة الذين من

المفترض أن يكونوا قدوة ، فالمعارضــة شـابها هي الأخرى الفساد مثلما شاب رجال النظام الفاسدين.

ويتميــز أحمد بحساســيّته الشــديدة وأخلاقه الرفيعة وتشـبثه بمبادئــه، وهو نقــيّ ويكره النفــاق والتلون ودائمًا ما يســجل على صفحته بالفيس بوك مشاعر تصور صدمته من قلة الإخلاص ومن خيانة بعض من يتخذهم أصدقاء فيستغلون تلك المشاعر الصادقة لتحقيق هدف أو مصــلحة . ويضــع صورة تعبيرية لرواية أرض النفاق ليوسف السباعي على حسابه الخاص على موقع التواصل الاجتماعــي، ومؤخــرًا غــيَّر صــورته في البروفايل لتحمل شــعارًا يشــبه شــعار حزب الإخوان الجديد ،ومن ابتكاره ســماه: «حزب المصــلحة والندالة – نحمل العار لمصــر» وكتــب تعليقًا تحت هذا الشــعار: «اللــي باع إخوانــه في الميدان بكره يبيعهــم في البرلمان».
ومــن الحِكَم المأثورة التي كتبها على الوال قول رواه البخاري عن الرسول عليه الصــلاة والسلام: «آية المنافق ثلاث إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان». وبرومانســية شديدة معهودة منــه ،كتب أحمد في صــفحته «دعوني وشــأني إني ذاهب إلى مجالس الطيبين»، مضيفًا:

دعوني وشأني

دعوني أترك عالمكم هذا

عالم الكره، عالم الحقد والشرّ

عالم البغض والأنانيّة والغرور والتكبّر

اتركوني في عالمي هذا

سأصنعه لنفسي

وأستطيع أن أتخيل مدى الضيق والإحباط الذي يعتري أحمد في هذه الأوقات خاصة بعد اعتداءات قوات الجيش في موقعة محمد محمود ثم في معركة مجلس الشعب التي أُصيب خلالها بحجر مدبب في رأسه، ونتج عن الإصابة ثماني غرز إضافة إلى الكدمات في كامل جسده بعد الضرب بالعصيّ والركل بالأرجل وكان بصحبة تميم الهلالي الذي هو من أقرب الأصدقاء إليه جنبًا إلى جنب مع صلاح الدين علوي، وهؤلاء هم من خيرة شباب مصر الواعد الذي يمتلك الخيال والإرادة لصنع المستقبل الأفضل ولم يقتصر جهدهم لإنجاح الثورة المصرية، بل تطوعوا لجمع الأدوية والمواد التموينية مع اندلاع الثورة الليبية وذهب الدكتور تميم مرتين إلى بنغازي مع فرق الإغاثة.

ومع توالي الأحداث الدامية طيلة الأشهر السابقة فإن الفجوة بين

شباب الثورة والمجلس العسكري تزداد اتساعا مع الأيام، وتتعقد هذه العلاقة مع ارتفاع عدد الشهداء والجرحى. وما يشغلني أحيانا كيف يمكن أن يؤدي أحمد وأمثاله الخدمة العسكرية قريبًا بعد أن ساءت علاقتهم بالقوات المسلحة التي ضربهم رجالها وسحلوهم وقتلوا زملاءهم وعروا أجساد زميلاتهم!

وبفضل هؤلاء الأولاد والبنات في ميدان التحرير بدأت أتعلم معارف كانت تنقصني، منها كيفية التصدي لهجوم قوات تفريق المظاهرات ، وتعرفت أيضًا على اللغة الشبابية ومفرداتها، ورغم كثرة الانتقادات التي يوجهها المجتمع لهذه اللغة فإني على العكس من ذلك أعتبرها بمثابة القطار الذي لابد أن أستقله ليوصلني إلى محطة المستقبل وعنوانها هذا الجيل من الشباب . والحقيقة أنهم ابتكروا لغتهم الخاصة بتعبيرات وجمل مختزلة لكل المواقف الحياتية ولم يهملوا شيئًا، فمثلاً عند التعبير عن اللامبالاة والزهق كان أحمد وأصدقاؤه من الشباب يقولون: كَبَّر..أو كبّر الجي وروَّق الدِّي، وعند الضيق من شخص يستخدمون عبارة: فُكَّك بقا منه ياعم وروق كدا،وعند الشعور بالملل ونفاد الصبر يقول الواحد منهم لصديقه: أوعى تهيِّس مني، أما عند وجود موقف سلبي من شيء معين لدى الشباب فيقولون: نفض خالص وأديها الطرشة. وعند الضيق من عدم الفهم يقول

الشـاب لزميله: أنت بصـراحة غبـي آخر حاجـة، وفي حالة فقدان التركيـز يقول له: إيـه دا إنت ضـايع النهاردة خالص، ولو غاب عن الأنظار أحد الأصدقاء لفترة ثم ظهر فيقول له أصـحابه : إيه يامان مش ظاهر ليه على الشاشة..وللتعبير عن الموافقة أو الرضا أو الاستحسـان يُقـال: إشـطة يامـان إشـطة يا مان، أو بصـراحة دا كلام جامـد آخـر حاجـة، أو بيس يـا مـان. وبلتثنـي وأبلتثك! لكـن لـو فيه اتهـام بالكذب في الـكلام يقول الشـاب لصـديقه: أنت هتنتش عليًّا!

وحدثت طفرات سـريعة في الوعي السياسـي لدى شـباب الثورة الذين كان لديهم يقين بأن إسقاط النظام أمر واقع وليس مستحيلاً ولم يشـكّوا في ذلك ربمـا على عكس غيرهم من القـوى الإجتماعيّة والـرأي العـام الـذي تم تعبئته ضـدهم. وتفسـر سـمر ابنتي هذا الاختـلاف في وجهـات النظـر بـين الشـباب والمجلس العسـكري والحكومـة بأنـه يعود إلى الفـروق بين الأجيـال لدرجة التطاحن والمواجهـة وعـدم إعـتراف أي طـرف بالآخـر، ففرق العمـر لعام واحد في عرف هذا الجيل الشـاب هو بمثابة عشـر سنوات في عرف الجيل السابق. لذلك ترى سمر إن هناك احتدامًا للصراع بين جيلها والأجيال السـابقة؛ لدرجة أنها تشـير إلى اسـتحالة التوصل إلى إتفاق بين جيل الثورة الشـاب والجيل الذي تنتمي إليه الحكومات

المتعاقبة وقيادات المجلس العسكري. وهوما لم يفهمه الأخيرأو ظل يتجاهله عن قصد أو عن تهوين بعدم إشراك شباب الثورة في الحكومات المتتالية، التي تشكلت في مرات ثلاث منذ قيام الثورة من العواجيز يعني من نسبة الأربعة في المائة في المجتمع في المقابل يستمر تجاهل الشباب وهم الأغلبية، والأهم صنّاع الحلم. وقد أسس العديد من هؤلاء الشباب بعد الثورة إئتلافات أو انضمّوا لائتلافات أسسها زملاء لهم، ومن كثرتها يسخر أصدقائي الثوار من أنفسهم قائلين إن الائتلافات أصبحت كأنهم يعملون «جمعية» ومين يقبضها الأول والدعوة عامة :

- يا شباب لو حد عاوز ينضم للائتلاف ده، يبقى هيقبض الأول، والأولوية بعد كده للي هيدخل بأكتر من نفر!

وظلت تهمة التشتت وعدم توحيد الصفوف تلاحق ائتلافات الثوار لكني إكتشفت أنهم يقاومون عن عمد التوحد في إتحاد أو ائتلاف واحد، لسببين: الأول لإدراكهم أنهم بمجرد عمل هذا الاتحاد سينقض عليه الأعداء ليشتروا قياداته أو يضربوها.. والثاني أنهم يؤمنون بأن وقود الثورة هو التعدد في الاتجاهات والآراء والأطياف وهذا يُكْسبها ثراء.

نسيت أن أقول إن كل واحد من أصدقائي الرِّوْشِين دول له «نك

نايم» ،يعني اسم مستعار متعارف به بين الأصحاب،وهذا التكتيك أرهق أمن الدولة والمخابرات العسكرية التي تراقب الساحة والفضاء الافتراضي بينما كانت اللغة الشبابية في المقابل وسيلة سهلة للتعامل بين الثوار فيما بينهم . ومن الأسماء: سمسم الجن واسمه الأصلي سامي، والكنج أو الملك وهو عاطف، و أفكاس هو هاني ومهستر هو أحمد صبري وبلوتوث هو مصطفى وررومانسي بس منسي هو أحمد عسل والزعيم وبس هو خالد ..وشوشو هي شيماء وبرنساس هي أسماء، ومواجع هي سارة .. وغير ذلك من الأسماء المستعارة وقس على ذلك شؤون الحياة والعمل والوسائل المستخدمة من المواصلات والكمبيوتر والموبايل.

والجامعة والأمن.. كل ذلك يطلق عليه الشباب تسميات رمزية يعرفونها فيما بينهم حتى لا يعرفها سواهم.

دار جدل طريف بيني وبين أحمد محيي، وهو شاب في سن الثامنة عشرة ويدرس في سنة أولى إعلام وطرحت عليه سؤالاً يحيرني:

- إزاي اللغة الخاصة دي إنتشرت بين الشباب في مصر بل والطريف أني اكتشفت لما يتحاور شباب الثورة التونسية مع شباب الثورة المصرية يتحدثون نفس اللغة ويتواصلون بتلك المفردات وكأنهم أصدقاء يعيشون مع بعضهم البعض على أرض واحدة؟!

- عشان الكلام سهل نوعًا ما وعشان الكلام دا يختصر أفكارًا كتيرة وإحنا في عصر الاختصار والسرعة وقربتنا اللغة دي من بعض بصورة أسرع وأسهل وكمان عشان مهم أن يكون بينًا لغة خاصة بنتكلم بيها ونفهمها إحنا بس . كل دى أسباب خلت اللغة دي تنتشر بينا بالصورة دي وسهل أن أي شاب عربي يفهم الكلمات دي ويستخدمها عشان بنفكر بطريقة شبه بعض .

هكذا أجاب أحمد محيي الذي كتب أيضًا على صفحته بالفيس بوك حول هذه القضية، قائلاً: «الناس اللى بتعترض عليًا وعلى الشباب اللى زيى اللى بيتكلموا بنفس طريقتى وبألفاظي (كل زمان وله آذان) ».

مفيش شك أول مفتاح للتواصل مع الشباب والدخول في خيالهم هو التحدث بلغتهم ولغة الخطاب تلك هي بمثابة الكتالوج أو الدليل الخاص بالشباب المتظاهرين فى الميدان. وبالمناسبة وجوه كتيرة جدا بل الغالبية منهم ملهاش أي علاقة بالميديا ولا يظهرون في التلفزيون ولا ينشطون مع ٦ أبريل ولا هم ينشطون مع حركة كفاية ولا الإخوان ولا الإشتراكي الثوري، ولا السلف، يعني من الآخر شباب زي الورد متسيِّس آه بس موش متحزب. لكن بدأت الوجوه تختلف تدريجيًا في الجمعات المليونية اللاحقة لتنحِّي مبارك لحد لما بقوا شايلين سِنَج!.

وكنت أتصـرف تجاه هذه القوى بحذر في البداية خاصـة وسـط حملة التشويه المتكررة، وعلى لسان الخبراء العسكريين اللواءات السـابقين من وجود مخدرات وانحرافات أخلاقية في قلب الميدان، لكن بعد التعامل المسـتمر معهم، أدركت أن الخطة الإعلامية التي ينفذها المجلس العسكري والاستشارات «الإخوانية» التي يتلقاها بالمقاس لا تختلف كثيرًا عن خطة النظام السـابق وهي تشـويه الثوار وشـق صـفوفهم، ربما اعتقد المجلس أن الثورة هي مجرد انتفاضـة خلّصـته من ملف التوريث البغيض ويمكـن احتواؤها، لذلك فلا غرابة أن خلافات بدأت تظهر في صفوف الشباب:

- ننزل الميدان ولا ما ننزلش، الانتخابات أولاً أم الدّستور، نحاكم مبارك ولا نسامحه، «شـرف» هيقدرولا بيتلعـب بيه ولاً معندوش صـلاحيات زي ما بيتسـرب للإعلام، الإخوان أم السـلف، الشعب والجيش إيد واحدة ولا إيد وقفا ؟! .

في كل صـباح سـؤال جديد.. شكلها هتتحول لثورة مضادة، حتى بعض الذين كانوا في صـفوف الثوّار بدءُوا ينقلبون عليهم. وهكذا بعـد أن تركـت الميدان مرغمـة أصـبحت الآن أتابـع الأحداث من خـلال التلفزيـون والفيس بوك وتويتر، وأحيانـًا من خلال المواقع الإليكترونية للصـحف، يعني أصبحت كنبة كبيرة مثلي مثل بقية المنتمين لهذا الحزب الذين الواسع العضوية. ناشدتهم في عدد من

مقالاتي التحلّي بالصبر والمشاركة الإيجابية في الثورة على الأقل بمواصلة الصمت وترك الشباب في تصميمهم على مطالب الثورة، وها أنذا أجد نفسي في حيرة مماثلة لحيرتهم. لقد خسرت مصر وقتًا طويلاً، فهل لو لم نتعجل ونضغط على الشباب لترك التحرير بعد الحادي عشر من فبراير كان الأمر اختلف الآن؟ لو نظرنا إلى توأم الثورة المصرية، الثورة التونسية، لوجدنا أنها سارت في طريق حددته الهيئة العليا لحماية الثورة منذ البداية، وصممّ الشباب على المطالب رغم الموجات المناهضة للثورة وتأليب الرأي العام ضد الثائرين ودعوات الناس العاديين: «كفاية إعتصامات ويلاً نرجع للعمل والإنتاج والمدارس».

لكن الثوار لم يتزحزحوا من الشارع رغم الضغوط واحتدام المواجهة والاعتداءات من قوات الأمن بالضرب والقتل للمعتصمين في القصبة ١ والقصبة ٢، واستطاعوا أن يحققوا الهدف بتغيير الحكومة ثلاث مرات وفرضوا تنفيذ مطلب تطهير عدد من مؤسسات الدولة من طبقة ارتبطت مصالحها بالنظام وشابها الفساد خاصة المؤسسة الأمنية.. إلى أن تحققت الأهداف الرئيسة، وهي إنتخاب المجلس الوطني التأسيسي الذي يصيغ الدستور الجديد ثم يعيّن الحكومة الجديدة والرئيس الجديد، وقد أشرفت هيئة مستقلة على الإنتخابات ولم تتم الاستعانة بالقضاء الذي كان الثوّار يطالبون بتطهيره هو الآخر من وجوه

باعت ضمائرها في السابق. لكن هل سوف تُسرق الثورة التونسية كما حدث لتوأمها الثورة المصرية؟!

لابد أن أنتبه وأنفض عن عيني تلك الغمامة الناتجة عن البقاء طويلاً أمام التلفزيون وأني كنت ضحية وإتلعب بي مثل بقية الرأي العام في الكثير من الحقائق التي أغشت البصر والبصيرة. لابد أن أصحصح وأستدعي الذكريات التي مرّت عليَّ في الميدان من يوم الثامن عشر من يناير وإلى حد يوم الخامس من مايو آخر يوم في تغطية أحداث الثورة قبل الدّخول إلى المستشفى. كان شباب الميدان يلتفّون حولي لحمايتي وحماية الفريق التلفزيوني خلال التصوير، وعبارات عبد الرحمن تطمئنني: «متخافيش يا أستاذة لو هجموا علينا حنشيلك ونجري بك..» ، ونفس هذا الموقف رواه لي زوجي عندما نزل إلى ميدان التحرير بعد ذلك بعدة شهور خلال أحداث محمد محمود ومجلس الوزراء؛ حيث قال له الشباب عند اشتداد الضرب والهجوم على المعتصمين: «متخافش يا أستاذ حنشيلك ونجري بيك لو بدأ الهجوم..».

لقد تعامل الثوار مع بعضهم ومع الغرباء برقيٍّ ونبل نادر، دافعوا عن بعضهم البعض، حملوا جرحاهم وعالجوهم وكفّنوا موتاهم وبكُوهم، الرغيف بالجبنة يقسموه مع بعض، مفيش بنت بتتعاكس مفيش حد يتسرق حتى لو محفظة تلاقيها في لجنة المفقودات ..كل الجرحى والتبرعات من أدوية ومستلزمات طبية مسجلة في قوائم

خاصــة على اللاب توب. هؤلاء الشـباب هم ورد مصر، قوس قُزَح بألوانــه العجيبة والمبهرة بعد نزول المطـر، الفرحة الطفولية بعد صــلاة العيد، حلاوة العنـب البناتي البارد من غـير بذور، هؤلاء الشــباب الذين أسعدونا تم ســحلهم وإهانتهم وتخوينهم وتشويه سـمعتهم، وأصــبحوا يُنعتون بالبلطجية والحـراميـة والعملاء!. عندما اشــتدت الوقيعة والتعبئة العامة ضــد الشباب في التحرير، أعاد طارق على مسامعي ما قاله للشباب: »أنتم الصح، متسألوش حد عن رأيه كملُوا في طريقكم، أنتم اللي هحتحرروا مصر».

فعــلاً الأيــادي المرتعشــة والأفـكار المرتبكة لا تصــنع مصــيرًا، ومــا تحقـق في عـدد من الأوطـان العربيــة في عام لم نكـن نحلم أن يتحقق في عقود بفضــل إرادة الشــباب. خمسة رؤساء جمهوريات كانــوا عايشــين معزّزيـن مكرّمــين «إش يا ذبانــة مفيش في الدنيا غـيري أنــا !».. ثم فجأة أصــبح واحــد منهم منفيًــا وعايش ذليل، والثاني في الســجن، والثالث اتقتل بطريقة بشــعة والرابع إتحـرق، والخـامس موش عايزين نبشّــر عليه!». أما الــوزراء وعلية القوم الذيــن لم تكـن العصــافيرتجرأ تعــدّي فـوق بيتهم إلا لما تحصــل علــى تصـريح، والآن النظيـف منهـم يعيش ميتًــا مـن الخوف!. كل ذلــك تحقــق بفضــل هــؤلاء الذيــن بذلــوا جُهدهــم لينفعوا من حولهـم وربما ليحيا غيرهم ســعيدًا بينما لم يفوزوا بتلك اللحظات وغـادرونا ..بل غيرهم من فازوا بها !

وها أنذا ألاحظ أن سيناريو تونس في ضرب الثورة من أعدائها يتكرر في مصر، والحيرة تشتعل في رؤوس الأصدقاء الذين كانوا يتعاطفون مع الثورة فتحرقهم نارها وتختطفهم التساؤلات إلى معسكر الأعداء بعد أن كانوا يقفون في الصف المقابل،وتتوضح الصورة أكثر فأكثر أمام الثوار: إن مصر لم تتغير والنظام لم يسقط إلا رأسه، والمجلس العسكري يطبق المثل الشعبي التونسي بامتياز منقطع النظير «اضرب القطوسة تتربى العروسة». ومن ينشرون الأمل بالمستقبل المشرق أصابهم بدورهم الإحباط وتسلل إلى نفوسهم اليأس لدرجة أن بعض أصدقاء العمر تشاجروا وقاطعوا بعضهم لأنهم اختلفوا حول الموقف من الثورة. هذه هبة التي تصف نفسها «بنت مصر #٢٥يناير» تؤكد على خيبة الأمل في تحقيق التغيير، فتكتب تويتاية:

لما المشير يبقي الكبير..لما شرف يبقي الأمير..لما الجمل يبقي الوزير بأمارة إيه فيه تغيير؟

لما الشيطان يبقي الضمير..لما الفلول ترجع تدير..لما الفقير يفضل فقير.. بأمارة إيه فيه تغيير؟

لما الكبار ياخدوا الفلوس..لما الإخوان تتمكن وتدوس..لما عكاشة يرجع يبوس.. بأمارة إيه فيه تغيير؟

وتكتب لبنى صبري الصحفية في وكالة رويترز على صفحتها بالفيس بوك: «من الناس من لم تصلهم بعد معلومة أن ثورة قامت في البلد وأن عليهم أن يتغيروا ليواكبوا ركبها». والله الثورة قامت يا جدعان حد يبلّغهم!

لبنى لمست قضية حقيقية، تابعتها في بعض الأشخاص الذين نطلق عليهم الفلول والذين ظلوا على عهدهم مع النظام السابق حيث ارتبطت تجارتهم وصناعتهم ومشروعاتهم وسفرياتهم بالنظام السابق ورجاله وهؤلاء تحكم مواقفهم المصلحة، أو ما يسمّى في هذه الأوساط بالبزنساية التي توقّفت بسقوط النظام ودخول رموزه سجن طُرْه. ولحد هذه اللحظات ما زال لدى البعض أمل في عودة مبارك إلى سُدّة الحكم ويتحدثون بالقانون والدستور والمنطق. إن مبارك لم يخلعه أحد وإنما ترك المنصب بإرادته وعيَّن نائب رئيس!

وتقول نوارة نجم في صفحتها جبهة التهييس الشعبية، إن متظاهري العباسية وآسفين يا ريس مصابون بمرض نفسي يسمى متلازمة ستوكهولم، وهي حالة نفسية تصيب الأفراد خاصة في الدول القمعية عندما يتعاطفون مع من عذّبهم حيث يعتاد الشعب على القمع والذلّ؛ لدرجة تجعله يخشى من التغيير ويظلّ يدافع

عن النّظام القمعي ويعتقد إن الفوضى العارمة سوف تعمّ بمجرد إختفائه. فهم يعيشون في التاريخ بل يرفضون أن يعترفوا بغيره، ولابد أن نشعر تجاههم بالشفقة لأنهم مرضى ويحتاجون للعلاج .

لكن أحمد حسنين في الحوار المتمدن يرد على هذه النظرية، قائلا: «متلازمة ستوكهولم تشخيص فاسد، للحالة المصرية الحالية، ومحاولة خبيثة لتثبيط المعارضة».. ويتساءل: «من هو الشخص العاقل الحيادي الأمين، الذي يستطيع القول بأن الشعب المصري قد أحب أي فرد من أسرة مبارك؟ ومن قال إن الشعب المصري سوف يهبُّ للدفاع عن تلك الأسرة الحاكمة، ويرفض أية محاولة جادة لتحريره؟ إننا جميعًا نعلم كيف كانت تُجمع حملات التأييد لجمال مبارك، ومن قبل ذلك لأبيه، ونعلم كيف ينجح أعضاء الحزب الحاكم في أية انتخابات، ثم تجمعات آسفين يا ريس ومصطفى محمود وروكسي والعباسية، ويعرف الناس أن «الهانم»من مهدت الطريق لتوريث الحكم لابنها وكان القرب منها أو كلمة رضا منها كفيلة بتعيين وزراء وإقالة محافظ، ورفع البعض إلى خانة المليارات دون أدنى عناء. «إن المصري لن تدمع عينه دمعة واحدة على مصير الأسرة الحاكمة السابقة، أيًا كان هذا المصير ».

تـرد عـبر الفيس بـوك أخبار عن هجـوم من قـوات تلبس ملابس مدنية على المعتصمين في الميدان، فتكتب أروى:

- أكشـن تـاني مـرة ثـوار متّجهـين للتّحريـر.. أكشـن تـاني مرة الشـرطة بتضـرب في الشـعب.. أكشـن تـاني مـرة الدنيـا مولعـة والتلفزيـون المصـري يقـوم بإذاعـة مجلـة المـرأة واخترنـا لك.. أكشـن تـاني مـرة المتواجـدون في التحريـر لهـم أجنـدات أجنبية ومعهم أجانب مندسّين..أكشـن تاني مرة قنوات الإعلام المغرضـة الجزيرة والتحرير وأون تي في تنفذ المؤامرة ضد الشعب المصري و تحرض الناس !!.. أكشـن تاني مرة نستمع إلى أغاني (ياحبيبتي يـا مصـر، أم الدنيـا مين، يا بـلادي يا بـلادي أنا بحبك يـا بلادي) أكشن تاني مرة القلق يزيد والجو برد والثوار يضربون في الميدان. مـن لم يحضـر ٢٥ ينايـر يسـتطيع أن يلحـق الإعـادة!. ويتبادل الناشـطون على مواقع التواصـل النصـائح حول كيفية التصـدي للغـاز الملقـى على المتظاهريـن كمـا تبادلوها أيام ثـورة الخامس والعشـرين مـن يناير، فعلاج قنابل الأعصـاب هو عدم اسـتخدام الماء، لأن الماء يتسـبب في تهييج أكـبر للجلد، فعلى المتظاهرين ألا يسـتخدموا الماء أو الخل في العلاج من السـي آر وعليهم استخدام أدويـة مضـادة للهيسـتامين وفيتامـين بـي كومبلكـس وحبـوب بوتاسيوم، وغسل الوجوه بماء الجلوكوز.

وعلى صفحة «أنا موش آسف يا ريس» أقرأ هذا النداء:

- إلى المتجه إلى التحرير الآن، يا ريت يجيب لمستشفيات الميدان فيتامين بحقن ومسكّن شراب، برجاء النشر بشكل واسع على تويتر والفيس بوك. وعلى حساب باسم ٢٥نوفمبر أقرأ جملة من النصائح الأخرى:

- يا إخوانًا أحنا قدام الثورة الثانية بعد ٢٥يناير.. تجنبوا استخدام الخل والكولا والبصل مع الغاز المسيل للدموع؛ لأن هذا النوع من القنابل جديد وحمضي وهذه الأشياء تزيد الأمر سوءا .. إحذروا غسل الوجه والعينين بالماء.. العلاج: ٥٪ خميرة + ٩٥٪ ماء (لغسل الوجه والعينين والشرب) أو تلْت محلول ميكوجيل + تلتين ميه (المحلول ده ف الصيدليات ب ٤ جنيه) هذه الأشياء يغسل بها الوجه ويمكن أن يشرب منها ويتم أخذ حقنة «سوليو كورتيف»، وهي كورتيزون وبتقضي على كل الأعراض أو فيتامين بى كومبلكس وحبوب بوتاسيوم ودواء هيستامين. (أرجو النشر).

وتكتب أم سرور على صفحة التواصل الاجتماعي: «يامصرى قوم هش الوطاويط».

بينما وفي سخرية تُبْكي ولا تُضْحك تطالب صفحة مصر

العشة وإلا القصر على الفيس بوك بالعودة إلى الغاز القديم في قذف المعتصمين في التحرير رافعة شعار «الشعب يريد تغيير الغاز القديم». فالواضح أن الغاز الجديد يسبب التسمم والاختناق بدرجة خطيرة ويؤدي إلى الموت. ابنتي سمر التي تعرضت للغاز في الميدان أثناء التغطية أصيبت بصعوبة في التنفس وظلت تسعل وتكح لأكثر من أسبوعين، وتطالب على صفحتها بمحاكمة تجار الموت الذين استوردوه وهو ميد إن يو أس إي وأعطوا الأوامر باستخدامه .إنه مؤذٍ جدًا وقاتل ولابد أن يكون محرمًا.

ولكن في المقابل تحولت الكثير من برامج التوك شوز إلى لطم ونحيب من تجرؤ الثوار على المجلس العسكري، وينضم إلى جوقة المعزّين المزيد من القوى السياسية والشخصيات العامة والإعلاميّين الذين عبّروا عن فزع من مجرد التفكير في وصول ركب الثورة إلى محطة الجيش . يكتب سامح أحمد في صفحة الجورنال على الإنترنت، وهو برنامج تلفزيوني للصحفي نصر القفاص، قائلاً:

- إصح يا مصري صح النوم جيشك عمره ما باعك يوم إصح يا مصرى وإحم بلدك جيشك دايمًا هو سندك الجيش والشرطة والشعب يد واحدة ضد الخونة والعملاء!!

ويكتب أمير رمزى عضو الاتحاد القبطى في موقع التواصل الإجتماعي ردًا على بعض الانتقادات الموجهة للمتظاهرين والتى وصفتهم بالبلطجية والمجرمين :

- يا جماعة إحنا اللي رحنا للبلطجية وأطفال الشوارع واقتحمنا عليهم ميدان التحرير اللي هو بيتهم ومكانهم الطبيعي يناموا فيه ويعيشوا فيه ثلاثين سنة ومبارك معملهومش حاجة ويتفرج عليهم عرايا وجوعى والثوار هم الدخلاء عليهم ولأنهم عطفوا عليهم وبدءوا يعلموهم القراءة والكتابة والرسم والفنون أصبح الأطفال يحبوا الثوار بعد ما كانوا متعودين على إهانة وضرب الضباط ليهم.

ويقلقه السؤال:

-هل لازم الثائر يكون لابس كويس، وهل الثائر ميبقاش ثائر لو سمح لأطفال الشوارع بأن يتواجدوا إلى جانبه في الاعتصام؟!

وتتجه الأوضاع يومًا بعد يوم إلى مزيد من الانقسام مع تصاعد المواجهة من جديد بين الثوار والمجلس العسكري والذي يتصرف مثل حكامنا السابقين لأنه جاء من داخل الصندوق -على حد وصف محمد حسنين هيكل- ولا يتوقع أن يلتقي الطرفان قريبًا خاصة بعد الدماء التي سالت والشهداء الذين لقوا مصرعهم، ومثلما يقول المثل «مافيش بعد حرق الزرع جيرة».

هـذه المواجهـة تزيـد من حالـة الإنهـاك وثقـل الدماغ وتسـرق الأمـل من الـروح الواهنة . أضـاعف من جرعة المسـكنات لأن قلة المناعة السياسية لدى المجلس العسكري أطاحت بمعنوياتي التي أصـبحت تبحث عن أقرب مخدة حتى تسـتجلب النوم إلى جفني، وأريـح ذراعـي المتـورم التـي أصـبحت تتطلب مراجعـة الطبيب للعلاج من الليمفاديما .

ينصـحني زوجي بأن أغلق التلفزيون وأتوقف عن متابعة الفيس بوك وتويتر. ولكن إذا إستجبت وانقطعت عن الأخبار فهل سأوقف الثـورة في أحشـائي وعقلي وهل سـتهدأ ضـربات قلبـي، وتخفت عاصفة القلق التي تهز وجداني؟!

مفيش فايـدة النظـام هو هـو.. راح العـادلي جاء وجـدي وراح وجدي جاء العيسـوي، وسقط مبارك وصعد المشير وأقيل شرف واتعـين الجنزوري، كله مجرد تغيير في الأسـماء لكن لا يوجد أي تغيير في إدارة البلاد .

لا يمر يوم وأنا في سريري دون أن أشاهد في القنوات التلفزيونية تجـدّد الاعتداءات على الشـباب وسـقوط العشـرات منهم. وعلى العكس من ذلـك فإن الـرأي العام يتوقـف عن التعاطـف والتأييد ويـزداد التملمـل في صـفوفه؛ فقـد نَفِـذَ صـبره وأصـبح ضَـجِرًا بالاعتصـامات والمليونيّات، وغسيل المخّ يستخدم أقوى مساحيق

التنظيف ألا وهو مسحوق الترويع والتخويف ،فيتراجع تأييده لهؤلاء الشباب وتتخذ غالبية حزب الكنبة موقف اللامبالاة من العنف الدائر بوحشية في محمد محمود ثم في مجلس الوزراء، وتختلط الأوراق حتى إن المعتدِي يصبح بريئًا والمعتدَى عليه يصبح هو الجاني. وفي المقابل يزيد تقديرالعالم لشباب الثورة، فيكتب المفكر البريطاني مارتن لنجستون بصحيفة صنداي تايم: «عندما تشاهد منظر الشباب المصري وهم يمسكون بالقنابل المسيلة للدموع في ميدان التحرير وكأنهم يلعبون الكرة في الحارة تعرف وقتها ماذا سيفعل هؤلاء بالعدو لو خاضوا حربًا، وتعرف كم هي عظيمة مصر وكم هو عجيب هذا الشعب!».

عجيب هذا الشعب فعلاً، لا للأسباب التي ذكرها لنجستون الخائف من شدة بأس الشباب لو حاربوا الأعداء، وإنما لإدمان العديد من المصريين هذه الأيام للمذيع توفيق عكاشة الذي يخوض حربًا ضد الثورة ولصالح النظام البائد ويشهِّر بكل الثوار ويحرض عليهم الناس والقوات لقتلهم وإبادتهم، ويبدو عليه الحقد والغلّ عندما يذكر النشطاء مثل علاء عبد الفتاح الذي يقبع في السجن الحربي بعد اتّهامه بالتسبّب في أحداث ماسبيرو إثر بلاغ تقدّم به أحمد سبرايدر وحنان خواسك وهما من جماعة العباسية. ولكن عكاشة تحول لدى بعض المتفرجين إلى موضوع تسلية وترفيه، مثله مثل قطعة الحشيش أو الأفيون لدى مدمني الكيف.

وعلى صفحة خالد سعيد تتجسّد المؤامرة بشكل واضح، فالمجرمون في حق الشعب لثلاثين عامًا يحظون بالتدليل، ويطلب أولاد المخلوع الخلوة الشرعية داخل السجن، ألم تكن القيادات الإخوانية في السجون والمعتقلات يُسمح لهم بمعاشرة زوجاتهم؟! أما الثوار فيُعاملون حاليًا كجناة. فهذه ثائرة من بين المقبوض عليهم في أحداث مجلس الوزراء متهمة بمجموعة تهم ،تتعدى في أحكامها عدة إعدامات، لم يتم التحقيق معها ونُشرت صورها على المواقع وهي مربوطة في السرير بالكلابشات في المستشفى. في حين أن المتهمين بقتل ألف شهيد وجرح أكثر من خمسة آلاف شاب مسالمين، بدون أي كلابشات ويُقدم لهم التوقير وتعظيم السلام في طريقهم رايحين جايين إلى قاعة المحكمة!

ويرصد الشباب المزيد من تجنّي المجلس العسكري ومؤسّسات الدولة وهي في طريقها للأخونة ضد الثورة، فيعلّق «@ سنجر# ٢٥يناير» بتويتاية حول أحداث مجلس الوزراء:

-قوات الإطفاء الجوّي المصري أخمدت حرائق الغابات بإسرائيل ولم تخمد حريق المجمّع العلمي !.

أما نوارة نجم فتكتب أبياتًا نثرية على صفحتها على موقع التواصل الاجتماعي تندد بالقنابل والمدافع والشظايا، بطريقتها الجريئة التي لا تُرْضي الكثيرين:

- طياراتكـم مشـ كفاية والمدافع مش كفاية والقنابل والحصـار والحرايق والدَمار والدموع في عيون الصغار والجناين تبقى نار مش كفاية لو عايزني مرة أخضـع .. غيَّروني شـوفوا يمكن لو ده ينفع .. بدلوني ولما ما تلاقوليش طريقة واجهوا ولو مرة الحقيقة واقرؤوا من قرآني آية تفهموا أصل الحكاية إني بضحك ع القنابل موتـة جاية وقلبـي قابل تعرفـوا إن القنابـل والمدافع والشـظايا والسـلاح اللـي معاكـو ومش معايا مشـ كفاية موّتونـي ألف مرة غصـب عنكم بلادى حرة وللنهاية كلمة بكتبها بدمايا للّي يستشهد ورايا إن ثمن الجنة ديًا لو حياتك.. مش كفاية.

عدد من زملاء المهنة والكُتَّاب الصـحفيين الذين أتابع صـفحاتهم وتويتاتهـم باهتمام أصـبحوا يكرهون العديد مـن وجوه الثورة، مثـل نوارة نجـم وبثينة كامل وجميلة إسـماعيل. أما الشخصـية التـي تحصـد كرهًا كبيرًا الفـترة الأخيرة فهي شخصـيّة الدكتور عـلاء الأسـواني، ويتزامن مع هـذا النقد والكراهية شـن حملة من أنصـار المجلس العسـكري ضـد مجموعـة من النشـطاء في حركة ٦ أبريـل وكفايـة وعدد من الشخصـيات الأخرى التي تُسـاق على لسـان المحللّـين العسـكريين اللواءات السـابقين والسـمّ يقطرمن كلماتهم عند نطق أسـمائهم، مثل الدكتور ممدوح حمزة والناشـط عـلاء عبدالفتاح وأيمن نوروالشـيخ مظهر شـاهين وطارق الخولي الناشط في حركة ٦ أبريل.

أكتب تويتاية كلها شرّ مستوحاة من الكاركتر الشرير في السينما المصرية توفيق الدقن: «تيت تيت ..انتباه يا مُنْدسّ: البلد انقسمت نصين وكل واحد يحدد موقعه فين وميفعش اللعب على الحبال تاني». لكن يبدو أن فصول مسرحية اللعب على الحبال مستمرة!

فرَق الميدان تستمر في الغناء فتبعث الدفء في المعتصمين وبكل شراسة يواجهون الإنتقادات وبمنطق ساخر «دع الكلاب تنبح والقافلة تسير» ويشتعل حماس المعتصمين مع أغنية «خراطيش ..خراطيش» لفادي فريد مطرب الاعتصام الذي يلهب بأوتارعوده قلب الثوار، والطريف تلك اللقطة لفيديو التقطتها بوابة الوفد وصوّرت كيف أن بعض الجنود أعجبتهم الأنغام فغنوا مع المعتصمين وتمايلوا، هل تُراهم يشاركون الثوار نفس المشاعر تجاه قياداتهم، هل تراهم يعانون نفس المعاناة..غناؤهم ورقصهم يفضح ما في القلب:

خراطيش خراطيش.. نشّن نشن يا شاويش

فرقع فرقع مطاطي ونزل غاز تحابيش

لفق واتخفى في الميدان

اضرب فى الفاضي وفي المليان

علق رجليا كهرب فى لسانى

ارقص بالسيف وانفش فى الريش
ببيادتك دوس على راس الفت
وبتوع الرأى والشات والنت
يا بلاد حكموها بأوامر الست..

لكن الأغنية أيقظت فيَّ نوبة صخب، وأصبحت أصوات القلق المتداخلة تصرخ مستعجلة عودة طارق وسمر إلى البيت بعد يوم كامل في الميدان . أكرر الاتصال بهما للاطمئنان عليهما دون ردٍّ. هذه المرة الأولى التي يتأخر فيها زوجي عن موعد الحقنة التي يداوم على إعطائها لي، لابد أن هناك ظرفًا قاهرًا أخّره. وتزداد المخاوف غوصًا في بحار القلق وسط حالة الخلط المتعمّدة لطمس الحقائق. رجال الأمن لا يفرقون بين من يعمل صحفيًا لأو إعلاميًا أو محاميًا وبين البلطجية والمجرمين، كما إن الحديث عن المؤامرات تزداد وتيرته وتتم مداهمات بشكل عشوائي لمكاتب ومقرات لمنظمات أهلية؛ لإثبات أن هناك أعداء من الخارج والداخل هم من نعلق عليهم فشلنا. يكتب عادل صبحي في صفحته على الفيس بوك ينتقد مؤامرة يقوم بها الشيوعيون لإسقاط الدولة بعد أن أسقطوا النظام، قائلاً:

– للأسف، قام الأبالسة الشيوعيون بمطاردة الفيديو الذي يفضح

مؤامرتهم على يوتيوب وحذفوه بحجة حقوق الملكية الفكرية! وهذا طبيعي، فقد أماط هذا الفيديو اللثام عن جهة من جهات كثيرة تشعل الأحداث في كل مرة، وتنتشر الفوضى في الشوارع وتحرق وتدمر وتطلق الرصاص وتقتل الأبرياء لتهييج الشباب ضد الجيش، وفيما يلي نقل ملخَّص لأحد الصحفيين لما ورد في هذا الفيديو: «اعترف سامح نجيب، أحد قيادات الاشتراكيين الثوريين بأنهم يستهدفون إسقاط الجيش وإحداث انقسامات بين صغار الضباط والعساكر من جانب والقيادات من جانب آخر، زاعمًا أن إسقاط المؤسسة العسكرية وإسقاط الدولة هو السبيل لإنجاح ثورة ٢٥ يناير».

وأكد «نجيب»، فى مقطع فيديو تداوله نشطاء على مواقع التواصل الإجتماعي ظهر فيه إلى جوار الناشط العمالى كمال خليل والمدون حسام الحملاوى، فى ندوة نظمها مركز الدراسات الاشتراكية قبل أيام لمناقشة الوضع السياسى بعد المرحلة الأولى من الإنتخابات، أن الاشتراكيين الثوريين فى مصر يهدفون إلى إسقاط الدولة والجيش لبناء دولة جديدة، وتابع بلهجة عامية مصرية: «بل مش ممكن إسقاط الدولة دي بدون سقوط المؤسسة العسكرية». لكن الناشط محمد تليمة يسخر من هذا الشخص وهذه الإتهامات على صفحته ويكتب:

- يـا راجل بتتكلم جد؟؟ ده على أســاس أنك بتكون موجود معانا كل يوم للســاعة ٣ الفجـر! خلاص الجيش حلو بس الثوار كوخَّه على فكرة أي حد عايز يتكلم ويحكي ينزل التحرير، غير كده كفاية كلام على الفاضى وأنا برُدّ عليك بأدلة.

ويرفق تليمة الذي يعد من النشطاء المعروفين في ائتلافات شباب الثورة فيديو، ويكتب تعليقًا عليه:

- اســمعوا صوت الرصــاص ياللى بتقولو إن الجيش مضربش، اسمعوا هذا الرعد من القنابل والخرطوش وربنا قادرعلى جدالكم وزي مـا بتظلمـوا الثوار وتتهموهـم بالخيانة ربنا قادر يحســركم على أولادكم وتذوقوا شيء من الألم اللي أهالي الشهداء بيذوقوه!

الإتهامات في المحاكمات العســكرية تنهمر على نشطاء الثورة كل إتهـام يحتاج جيشًــا لتنفيذه وجيشًــا آخر من المحامين لدحضــه. فهنــاك خمســة عشــر اتهامًـا للمدون عــلاء عبـد الفتــاح، وتوثيق الاتهامـات جــاء على لســان أطفـال تم القبض عليهم قبـل أيام من الأحـداث وهم في حــوزة النيابة، ولو حدث ذلك في أي دولة أخرى لديهـا مؤسســات عتيدة وتدَّعي إنهـا قامت فيها ثـورة لكان هؤلاء الأطفال في مكان آخر اليوم.

وأخـيرا يعـود الأحبّة في تلـك السـاعة المتأخرة التي تشـير إلى

الثالثة فجرًا فيستغربان أن النوم يجافي عيني. تركا الميدان على صفيح ساخن. السماء تمطر قنابل مسيلة للدموع وقوات الأمن تتقدم للانقضاض على العدد المحدود من الشباب الذين مازالوا معتصمين في التحرير. ستكون عاصفة من الويل والانتقام!

ولا يكاد نور الفجر ينبلج حتى نقرأ في شريط الأخبار العاجلة أن قوات الشرطة العسكرية شنت هجومًا على المعتصمين وتصاعدت الأدخنة من الخيام المحترقة، وتناثرت في أرجاء الميدان قطع من بقايا القماش المهترئ التي التهمته النيران وقُطفت أرواح لتُضاف إلى قائمة الشهداء، واعتُقلت مجموعة من الناشطين وفاض خراب في المدى واحتقن الهواء حتى الموت. وتراقصت الكلاب الضالة فوق ركام الخراب بينما النجوم لاتزال مستيقظة تتلصّص على القمر النعسان.

نقوم لنصلّي صلاة الفجر جماعة ويحضر طارق الكرسي لأجلس عليه، وقبل الركعة الأخيرة نرفع اليدين ونردد الدعاء وراءه بصوته المتضرع المؤثر:

«اللهمّ إهدنا فيمنْ هَدَيْتَ وعَافنا فيمَنْ عافَيْتَ وَتَولّنا فيمَنْ تَولّيْتَ وَبَارِكْ لنا فيمَا أَعْطَيْتَ وَقنا واَصرِفْ عَنّا برَحمَتكَ شَرّ ما قضيْتَ فَإنكَ تَقْضي بالحق ولا يُقْضَى عليكَ، وإنك لا تَذلّ من آليتَ، وَلا تَعِزُّ من عادَيت تباركتَ ربّنا وتعاليْتَ».

أعـود إلى الفراش وأنا جَوْعَى إلى نوم لا يأتي، وأتقلّب مغمضـة العينين في محاولة لاسـتجدائه لكن دون جدوى، فأتسـلّى بمراقبة الصـبـاح المتكاسـل وهو يتثـاءب ويتمطّى، ينفض عنـه ندى الليل وصـدى الوحشة. تنتقل حالة القلق السـاكن في العتمة إلى طارق فيخاصـم الكرى جفنيه وينسـاب منـه الحكي حزينًـا يبدد زنابق الوقت والانتظار. حروفه تشـتعل غيظًا وتضـمر حماسة متوهجة بعثها في روحه المنكسـرة ذلك الحكم الصـادر من محكمة القضـاء الإداري بإلزام المجلس العسكري بالتوقف عن الكشف على عذرية الفتيـات. الحكم وصـف الفحوص بأنها انطوت علـى إذلال متعمد وإهانة مقصودة للإناث المشـاركات في المظاهرات، وأن المسئولين عن إجراء الفحوص من المنتمين للقوات المسـلحة ارتكبوا جريمة جنائية لا تسقط بالتقادم.

طـارق مـن فرط الحنـق بُحّ صـوته بحّـة خفيفة كأنها حشـرجة الغضـب المكتوم، وأشـار إلى أن منظمة العفو الدولية كشـفت عن أن عضـوًا بالمجلس العسـكري ومدير المخابـرات الحربية إعترفا بإجراء تلك الفحوص في اجتماع مع المنظمة. وكانت صـور سـحل الفتـاة قد ملأت اليوتيوب طوال اليوم وجددت الجرح القديم الذي نـزف يوم التاسـع مـن مارس عندما قام عدد من الضـباط بكشـف العذريـة علـى الفتيات المشـاركات في اعتصـام التحريـر. وعلقت سـالي مزروع، إحدى زميلاتي الصحفيات الناشطات على صفحات

التواصل الاجتماعي، بأن موقع التواصل الاجتماعي يوتيوب جدد سحل الفتاة قائلة إن لذعاته موجعة لأي شخص يحمل قلبًا:

- تباطؤ المجلس العسكري كان يوحي بالتواطؤ أما بعد إلقاء الجثث على الزبالة وقتل الأطباء والمهندسين وأئمة الأزهر الشريف ووصفوا بأنّهم بلطجية وتعرية البنات وتهديد من يقبض عليهم بإقامة حفلة جنسية على شرفهم، فقد كشف التواطؤ من أجل التواطؤ، وربنا يستر الأيام القادمة بستره، خاصة بعد بيان المجلس حول وجود عناصرداخلية وخارجية تدبّر مؤامرة ٢٥ يناير القادم وطبعًا هو تقديم مسبق لأسباب يمكن أن تبرر بها المذابح التي قد تدبّر.

الشيخ خالد سعيد المتحدث باسم الجبهة السلفية شن بدوره هجومًا حادًا على كل من برّر سحل وتعرية فتاة التحرير واصمًا إياهم «بالدياثة» وقال: «أعرف اسم الأخت المسحولة وعندما رأيتها أصابني شعور بالذلّ والخزي والعار مازال يؤنبني ويوجعني ويهين كرامتي، ومن سكت عن تعريتها فهو ديوث لا يغارعلى دينه وأهله!».

ثورة الشيخ جاءت بعد أن شنّت قناة الناس وغابة أخرى من القنوات التي تنهش في لحم البشر باسم الدين حملات اغتيال

لسمعة الفتاة المسحولة ، لم يغضبوا من رقص الجلّاد فوق جسد الضحية لكن وجهوا النقد للضحية وبرّؤوا جلاديها قائلين: «إيه اللي نزلك للميدان يا بت..؟!».

عملوها من قبل في التاسع من مارس بعد الثورة بنحو الشهر، عندما جمعونا - نحن الصحفيين- في مؤتمر لجلد الضمير الثوري وسلخ الجلد الذي يحتفظ ببعض كرامة على طريقة أفران هتلر. اتجاه واحد: أمر فطاعة، القيادة تتحدث والصحفيون يكتبون. قالوا إن هناك بنات وحشين في الميدان وفيه جنس ومخدرات في أكثر من خيمة بالتحرير، ويبدو أن ذلك كان مقدمة لمسرحية كشف العذرية.

أراد أحد الصحفيين أن يستوضح عن تلك العبارات الفضفاضة التي تقال للأطفال الصغار عندما يريد الآباء تجنب التفاصيل المخيفة، لكن الرد جاءه من «قبضة» سددت له لكمة كسرت أنفه وهشمت نظارته فغطت الدماء الطاولة التي كنا نلتف حولها خلف مبنى المتحف المصري. العقاب نزل على المصور الصحفي من صحفي زميل تطوّع بالدفاع عن المجلس، وكان بالأمس القريب يردد أن مبارك صمام أمان للمصريين وجزمته فوق رؤوسنا!!

إن مفهوم الشرف لدى عدد من هذه القيادات التي تقود واحدًا

مـن أكبر جيوش المنطقة والتي خاضـت حروبًا عظيمة محصـور بمكان صغير بين فخذَيْ إمرأة، لكنّ الثورة تريد أن تعانق الشرف بمعانيـه ومسـمياته الضـائعة في الوطن، بـدءًا من شـرف الكلمة والمواقف والمهنة. فكل سـلوك الرجال والنسـاء هو شرفهم، نظافة أيديهم شرفهم ، ومبادئهم وإخلاصهم للوطن شرفهم.

إكرام يوسف تكتب على صفحتها بالفيس بوك:

- لم يتسـاءل أحد لماذا ضاع شرف العسكرية والمؤسسة الأمنية وهم يسـتهدفون الثوار ويخطفونهم من سيارات الإسعاف، ولماذا يصـيبون طبيب الميدان علاء عبد الهادي برصاصة قاتلة في رأسه وهـو الـذي لم يفعـل إلا الحفاظ على شـرف المهنة الإنسـانية؟!.. ولمـاذا يُقتـل الشـيخ المسـالم عمـاد عفـت ولمـاذا يرمـي القناص الغادرأحمد حرارة في عينه الثانية فيفقده البصر فيهما معًا ؟

كلما شـاهدت أحمد حـرارة ذلك الثائر الذي لا تفارقه الابتسـامة أحس بأنـه ملهمـي في أزمتـي، يسـري في أعماقي مَعين مـن القوة والصـلابة وينتشـلني من الظلمات، فأشـعر بقدرة علـى التحليق وكأن لي جوانـح أطير بها أو كأني شـجرة اللّوز في جنان صفاقسـي إكتمـل تفتّـح زهورها. رغـم أن أحمد حرارة قد خسـر عينيه للأبد إلا أنه ظل على صـلابته ورباطة جأشه وتواضعه. تلك الابتسامة

الدائمة تُضفي كبرياء على قسمات وجهه فتزرع الرضا والإيمان والحياء العجيب في قلب أي شخص ينظر إليه. هكذا أصحاب البصيرة، لا يحزنهم فقدان البصر، أمّا من يفقدون الشرف فيتغنون به طول الوقت !



تطول مدة العلاج وتمضي الأشهر رتيبة بلا جديد وتتسرب من أفكاري تدريجيًا مفاتيح العالم الخارجي، وكأنما نسيتها أو أضعتها في مكان ما لا أتذكره، وأجد معاناة في العودة للتفتيش عنها في دروب الذاكرة المظلمة، بل قبلت التكيّف مع هذه الحالة من الفقدان حين تصبح المعاناة أكبر من قدرتي على التحمّل وتغدو الكلمات المعبِّرة عن الألم تائهة في بحور السراب بلا جدوى.

تصلني رسالة «إس إم إس» من بنان فتهبُّ عليّ نسمات تُدْخل السّعادة على روحي المغتمّة فتدغدغ جوارحي المتعبة.

بنان هي ابنة صديقتي نورا التي أحبّها وأعزّها كما أعز أبنائي، ورغم أنها تجهل أي شيء عن تطورات مرضي إلا إنها تتمتّع بقوّة استشعار وحدس الخيّرين وفراسة النبلاء، يتلبّسها القلق وتتألّم لوجعي. شخصيتها ترسمها بصمات مميزة مثل اسمها ، كالفراشة

جناحها كرامتها، لا تغدق العطاء إلا على من تحبّ، لكن قلبها قلب طفلة عندما يفتح أشرعته يتحول إلى واحة خضراء تغطيها الثلوج البيضاء كما في شتاء عين دراهم وطبرقة ومنزل بورقيبة التي شهدت مولدها، وتنبت الزهور في ربيع قلبها كما حدائق تونس الغنّاء.

تتعالى أجراس الكنائس متعانقة في محيط الميدان الذي تطلّ عليه شقّتي تدقّ معلنة فرحة السّماء وترتفع الأصوات الملائكية بالصلاة : إنه الأحد. أخشى حلوله وترتعد فرائصي لأنه موعد جرعات الكيماوي. يخفق القلب مع رنّات الأجراس وترانيم الدعاء: «يا مَالكَ السَّلام أعطنَا سَلامَك، قَرّرلَنَا سَلاَمَك واغفر لَنا خَطَايَانَا، دبِّرحَيَاتَنا كَمَا يَلِيقُ، بَارَك الإكليلَ بصَلاَحك مِن أجلِ فُقَرَاء شَعبِك مِن أَجلِ الأَرمَلَة واليَتِيمِ والغَرِيب والضَيفِ والمُسَافِرِ والمَرِيضِ». أمُدُّ يدي لأَسحَبَ من تحت مخدتي زجاجة صغيرة بها زيت مقدّس مصلّى عليه في دير مارجرجس بالأقصر أهداه أصدقاء ابنتي سمر الأعزاء، الأحبّاء منى وسامي سوس والدا العزيزة ميرنا وميرا سوس وخالتهما نهلة. لما سلّمتها ميرنا إليّ كانت مرتبكة بعض الشيء، ترددت كيف تمهّد لتسليم الزجاجة أمام الزائرين وهي لا تعرف رد فعلهم على ذلك، لكني كنت في غاية الإمتنان وتأثّرت شديد التأثر لما علمت أيضًا من ميرنا إن أسرتها

أقامت قدّاسًا للدّعاء لي بالشّفاء. قال الله تعالى في سورة المائدة:

« ولتجدنَ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون (٨٢)» . دائما أذكر حوارات تدور بين ابنتي سمر وسالي ردًا على تلك الكراهية التي بدأت تختطف عقول وقلوب النشء:

- المسيح عليه السلام ذُكر في القرآن أكثر من أي نبي آخر وربنا وصانا على المسيحيين، وهناك سورة كاملة باسم السيدة مريم العذراء.

أصدقائي وجيراني المسيحيون قلقون لمرضي ويصلّون من أجلي في كل زياراتهم للكنيسة كل أحد حتى يشفيني الله، ويقيمون أوشية المرض فيتلو الكاهن الصلاة قائلا:

- تعهدهم بالمراحم والرأفات اشفهم انزع عنهم وعنا كل مرض وكل سقم وروح الأمراض أطرده والذين أبطئوا مطروحين في الأمراض أقمهم وعزهم والمعذبون من الأرواح النجسة أعتقهم جميعًا الذين في السجون أو المطابق أو الذين في النفي أو السبي أو المقبوض عليهم في عبودية مُرة يا رب اعتقهم جميعًا وإرحمهم أنك أنت الذي تحل المربوطين وتقيم الساقطين رجاء من ليس له معين عزاء صغيري القلوب ميناء الذين في العاصف كل الأنفس

المتضايقة أو المقبوض عليها أعطها يا رب رحمة أعطها راحة أعطها برودة أعطها نعمة أعطها معونة أعطها خلاصًا أعطها غفران خطاياها وآثامها ونحن أيضًا يا رب أمراض نفوسنا اشفها والتي لأجسادنا عافها أيها الطبيب الحقيقي الذي لأنفسنا وأجسادنا يا مدبر كل جسد تعهدنا بخلاصك.

فيرد الشعب:

- يا رب إرحم!

لماذا أكاد أصدق أنه كلما زاد الدعاء قلّت استجابة الله له،هل هذا القول من قَبيل القنوط من رحمة الله وقلّة الإيمان كما يصفه زوجي، وكيف السبيل إلى أن يكون المريض على نفس درجة القوّة والإيمان حتى وهو يموت في جلده من شدة الخوف أو الألم ؟!.. كيف السبيل إلى التهرُّب من الجرعة القادمة.. لماذا لا يتدخّل الله بمعجزته فيستجيب لدعاء كل هؤلاء الخَلْق من أجلي فيريحني وهو القادر على كل شيء ولا يعدم الوسيلة ؟!

لا يبدو أنه سوف يتدخّل، ولا مناص من الاستعداد. إن الإنسان لا يموت من الخوف بل يخاف من الموت ولا علاج للخوف إلا بحبّ الحياة. فلابد أن أضع قبلة على جبين كل صباح يتسرب نوره من

فتحات الشباك يسطع على الغرفة ويغمر روحي؛ فتأخذني إغفاءة بحنوٍّ لذيذٍ أتحصَّن بها قبل أن تدقَّ ساعةُ الذهابِ إلى المستشفى.

ربما دعاء أحبّتي وتضرعهم إلى الله زرعني بالسَّكينة ونثر في عروقي ثمار الإيمان وعناقيد الرضا.

مع تكرار الجرعات يتهاوى الجسد ويتحول إلى خرقة بلا حراك دون أي احتمال لاختصار الزمن أو القفز على هذه المرحلة، فكل شيء من الممكن دفعه إلا القدر. يتحول حينئذ الخوف من الموت إلى موت من الخوف يتصاعد حتى يصل إلى درجة التجميد، فتتساوى كل المشاعر يلتهمها الألم ويخدرها إدمان العذابات.

يستمر السجن في غرفة النوم ممددة على السرير الذي خاصم ورود أغطيته. اللّحن البائس يعلق بأذني، وأتجرّد تدريجيًا من كّل شيء: الأحلام ..الأمنيات ..العمل.. والحب والأغنيات. فيكبرُ الكفاحُ والصبر «الأيوبي» فيما يصغر الهدف ويلوح مجرّد إقتناص عدة دقائق للغفوة أمرًا صعب المنال. الإنسان يصبح أكثر جمالاً وإشراقًا عندما ينام بما يكفي، لكن السّهد ينفخ العينين ويكوّرُ الأنف ويشتّت العقل ويخنق الكلمات، فتنتحر الأحلام.

أين أنت يا هيبنوس، كم أشتهي أن تأخذني بين أحضانك وتنوّمني كما كنت تدلّل آلهة الأوليمب عند الإغريق، كم أشتهي أن تنثر فيَّ

أبناؤك دريمز فأنساب مع الأحلام الجميلة بشكل طبيعي بعد أن يقوم مورفيوس بدغدغة أطرافي وتخدير أعصابي التي أرهقتها أشواك الألم !(١).

أمضيت أياما ولياليَ أحدّق في الغرفة ولم يكن هناك سوى الأشياء الصغيرة أتلهّى بها. كانت تسليتي خيالي الخاص والتنقيب فيه عن حلاوة الذكريات، وتمضي الأيام وأنا أزداد إنهاكًا وانسحابًا.

هجرت الكثير من عاداتي، فالشاي ما عاد له طعم في الفم، والقهوة يعدونها ويضعونها بجانبي لأتنسّم منها الرائحة الطيبة دون أن أرتشف منها رشفات قد تَحرمني النّوم المُتعَسِّر أصلاً. والصّابون في أنفي كأنّما رائحة جيفة عفنة. لم أستبقِ من عاداتي العطرة إلاّ عادة جدودي عندما تنسحب الأنفاس وتتوسدني الزفرات، أغسل قلبي بماء الزهر فيرتوي العطش ويتبدّد الغمّ.

كنت أشاهد زوجي وأبنائي يذبلون أمام عيني بعد أن كنا جميعًا في غفلة عما ينتظرنا، حتى أطلت المصيبة لتسرق تلك السعادة وذلك الاستمتاع بلعبة المناوشات اليومية التي تعطي حيوية ويقظة لعلاقاتنا بعضنا البعض. عشنا لحظات استثنائية طيلة أيام ثورة الخامس والعشرين من يناير. كنّا في بهجة وبهاء ترفرف أحلام الأوطان الكبرى على أرواحنا وكانت أجمل اللّحظات عندما

نلتقـي جميعًـا في ميـدان التحريـر ونجوبـه رافعين الهتافـات، ثم نلجـأ إلى مقهـى من المقاهي الخلفية بعد أن ينهك السـير في أرجاء الشـوارع قوانـا، فنتنـاول بعض الأطعمـة ونطمئن على سـلامة أصـدقائنا ونلتقط أنفاسـنا ثـم نعود إلى الميدان مـرة أخرى. وقد فتحت لنا الثورة طاقة واسـعة من الأمـل وجدّدت الحلم بالولادة الممكنة بعد عقم الرجال وتيبّس أرحام النسـاء. وظلت الدعوات لا تفارق صـلواتنا بأن تكون رياح اللّقاح خصـبة ولا تشـوه الأجنّة ولا يتحول الحُلْم الى كابوس.

تلـك الحالـة الثوريـة في تونس ومصـر وليبيـا وبقيـة الأوطان العربيـة أيقظـت الرغبـة لدى الشـعوب في الحياة الكريمـة. أذكر عندما اجتمعنـا على الطعام بعد عودتي من تغطية الثورة اللّيبية عبرت لأفراد أسرتي إلى أيّ مدى أشعر بطعم سعادة لم أذُق عسلها من قبل. لقد تحققت ثورات في بلدي مصـر ومسـقط رأسـي تونس وبينهمـا جارتنـا ليبيا، وراهنت على انتصـار رياح هـذه الثورات وإن الكلمة سـتكون من هنا فصاعدا للشعوب وكنت أستشعر أملاً قادمـا لأبنائنا لأنهم سـينعمون بالحريـة والديمقراطية والكرامة الإنسـانية بطريقة أفضل منا، فنحن جيل وُلدنا من أرحام النكبات والنكسات ورضعنا من ضرع الإحباط والعجز.

خطبتُ في أسرتي خطبة عصماء رومانسية مؤثرة، فقلتُ:

- هـذه اللحظـةُ الثمينـة تختـزل كل ما عشـته في سـابق عمري. ويكفينـي من الحياة أني عشـت اللحظة وسـأردّد مـا قالته والدتي تعليقًـا على لحظة هروب بن علـي: «مرحبًا بالموت الآن مادمت قد شهدت هذه اللحظة» .. تلك اللحظة التي كانت تبدو نائمة في سُبات بين أحضـان المستحيل، وإسـتيقظت لتعلن للصوص الشعوب أن عهدهم قد مضى!

لا أدري لمـاذا انطلقت الكلمات على لسـاني، كالعروس التي تُزَفُّ لفرحها بينما تصـيبها طلقة طائشة من رصـاص المعازيم، إلا انها على كل حال معانٍ لم تَرُق لابنيَّ سـمر و محمد اللذين اسـتنكرا أن أتفوه بلفظة الموت في أجواء ترفرف عليها نشوة الفرح والسعادة. لم أكـن أعلـم إن القـدر نطـق بلسـاني وكان يخفـي صـراعًا مريرًا للاحتفاظ بنعناع الحياة.

طارق يحاول التماسك ويساعده ذلك الإيمان الشديد والاستجارة برحمة الله. وظل متخفيا وراء تخشّـب مصـطنع لقلبه الرقيق إلى حدّ يوم العملية الجراحية، حيث قبضـتُ عليه وهو مدمع العينين سـرعان مـا ابتعد بوجهه حتى لا أكشـف المزيد مـن أحزانه في تلك اللحظـات وهي على فوهة البركان. أما سـمر فهي تئـنّ داخليًا ولا

أظنها استطاعت أن تتجاوز ذلك الحزن الدفين الذي اخترق حياتها فجـأة. وبدوره كان محمد ممزّقا، يمنع خيالـه من التفكير فيما هو أسـوأ ويفزع كلّما جنح الخيال على غير رغبته فترتعش فرائصـه ويلتصق بي ويُقبِّلني في حنوٍّ واستغاثة. إنّ الطفولة البريئة تغلِّف ردود أفعاله، يتفزع مرعوبًا من قسوة الخيال فيمطرني قبلات طول الوقـت في الرايحة والجاية ويكرر على مسـامعي «بحبك يا مامي» آلاف المـرات، ويشـعر بالاطمئنان وهو يحتضـنني ويقبّل رأسـي وجبهتي ويدي وكأنه يريد أن يوقف الزمن من أن يمتدَّ إلى الخيال الذي ينتفضُ كلّما سـرح به، لم يجَلْ بذهنه لحظة من قبلُ أن يراني أرقـد في السـرير بلا نشـاط عكس ما تعـوّد عليه منّـي. حاولت أن أُحضِّره لَلمجهول، فأعرض بشدة ورفض منطقة الرجولة المفتعلة التـي ظهرت فجـأة على ألسـنة المحيطين بـه يجرونه إليهـا جرًا، فكلٌّ واحد يدعوه أن يتحمّل الظّروف الصـعبة ويتحلّى بأوصـاف الرّجـال، لكنّه رفض تلك الرّجولة المقحمة التي تأخذه إلى فسـحة الحزن رغم أنها طالما راقت لخياله.

ظل يسـألني يوميًـا وهو يغادر إلى المدرسـة عمّـا إذا كنت أنوي الذهـاب إلى العمل. ويُصـاب بخيبـة أمل عندما يعـود إلى المنزل ويدخل مندفعاً إلى غرفتي فيصطدمه وجودي ممدَّدة على السرير مثلمـا تركنـي، فيمسـك بمعصـمي وهـو مغتـمّ يبحث عـن كلمات يستأنس بها من هواجسه.

وتأتي علينا الأيام الثلاثة التالية لجرعة الكيماوي فتتقلب أحوالنا، ويزورنا ذلك الانهيار الجماعي أمام موسم التدهور الذي يصيبني ما بين التقيؤ والإسهال وهبّات السّخونة والإعياء، ويَضْحَي الذّهاب إلى الحمّام مستعصيا عليَّ بمفردي فيحملني طارق كالفراشة التي تخونها أجنحتها. تكتسي الوجوه بالحسرة وتنحبس العَبَرات في المقلة ونتوغل في القتامة لا يوقفها إلا معجزة. لم يكن طارق يذهب إلى عمله بانتظام في مواسم العتمات، بل يظلّ مُرابطًا إلى جانبي وأنا غائبة في نوم يشبه الإغماء، أستفيق منه على وقع أقدام «بلدياتي» التّوانسة هناء بن حسين وراضية أبو النعاج اللتين كانتا تتبادلان تمسيد العضلات المتصلبة في كل زيارة بينما كانت ماجدة الشلي من جانبها تقضي فترة الظهيرة إلى جانبي تقرأ القرآن وتدعو الله أن يُخففَ الكرب. في كثير من الأوقات أتطلّع إلى الوجوه ولا أراها بل أشتمّ عطرهنّ فأعرف أنهن غير بعيدات عن فراشي فأتوّكأ على تلك الطمأنينة لأعاود الغفوة.

الأمومة تتدفق من الصديقات فهي في المرأة طبع وفطرة. لم أُخفِ مرضي إلا على صديقة واحدة هي نورا لمعرفتي بأن الصدمة قاسية وسوف تسرق قلبها. فهي تعاملني معاملة الأمّهات، والأمّ تنهار ويصيبها همٌّ ثقيل قد يغتال نضارتها إذا جرى مكروه لأحد أبنائها، فخفت أن يحتلّ بدنها فزع عظيم وهي المكافحة الكادحة

ومـن غير المعقـول أن أضـيف إلـى كفاحـاتها مجاهدة الوسـاوس والهواجس التي تهز النفس أكثر من المرض.

ويحـلّ الخميس الثالث فيلـوح أمل جديد، وكأنمـا بُعثتُ للحياة للتوّ ويتحرك ذلك المولود بداخلي يشتهي كل شيء ويُحرك أصابع يديه ورجليه ويبكي من الجوع، وتزقزق من جديد عصافير بطني مستعجلة اللحظات التعويضية قبل هجوم الجرعة القادمة.

أحضـرت إبتسـام مجموعـة مـن الأكلات الشـهيرة التـي أعدّتها بنفسـها: محشـي ورق العنـب وكوسـة بالبشـمل ودجـاج بانيـه وخضـر سـوتيه .. وباسـتثناء الطبـق الأخـير فـإن كل الأكلات الأخـرى ممنوعة طبقًا للريجيم الخاص بمرضـى السـرطان وفقًا لفرمان الدكتورة هيام، وإن كانت إبتسـام توقظ فيّ إشـتهاء الأكل برائحة الأطباق الطيّبة التي تعبىء أنفي.

أسَـرْرتُ إلى إبتسـام بحقيقة رغباتي في تلك اللحظات. يخالجني اشتياق جارف لا يُقاوم إلى مجموعة من الأكلات التونسية المحبّبة إلى نفسي والتي كانت ماما حبيبة تحضرها بكل إتقان عندما يجتمع أفراد الأسرة، قلت لها:

- ماذا بيّ في كعيبة بريك وسـلاطة مشـوية وصحيْن شُرْبة فريك وطريِّف طاجين أو صحيْن تشيش بالقرنيط !

لمعت عينا إبتسـام أمام كلماتي المتدافعة باللّكنة التّونسـية التي نطقـت بها جميع الأكلات. ثم رسـمت على مُحيّاها ضـحكة ملأتني تحنانًا كعادتها وشجعتني على مواصلة الحديث محاولة إرضائي بكل طاقتها؛ غير أنها لم تفهم شيئًا مما ذكرته :

-إيـه ..إيه ..اشـرحي لي بشـويش كيفية تحضـير الحاجات دي وأعدك بالمحاولة !

وكأنهـا وجـدت الفرصـة لتلهيني عـن آلامي، فقلتُ وهي تنصـت بإمعان للشرح:

- الفريـك هـو الشـعير المرحـيّ والمنخـول حتـى تصـبح حبّاته صـغيرة وناعمة عندئذ يُسـتعمل في شُـرْبة اللّحم أو الدجاج، التي يضـاف إليهـا الحُمّص والبقدونس وهي الشـربة المفضـلة لدى شعوب المغرب العربي خاصة على طاولة إفطار رمضان وله مذاق جميل إضـافة إلى أن الشعير عمومًا طعام صحيّ جدًا ويُنصح به للأطفال وكبار السـن وللمرضى. أما السلاطة المشوية فهي تتكون مـن الفلفـل والطماطم والبصـل والثوم بعد شَـيِّها علـى النار يتم رحيهـا أو دقهـا بالهـون أو قصـها بالمقص قطعا صـغيرة وتكون متماسكة وليست ناعمة ويوضع عليها الملح وزيت الزيتون وتزين بالتونة والكبّار والزيتون الأخضر ثم تقدم مع الطاجين، وهو قطع

صـغيرة من اللحم أو الدجاج التي تُحضـر مع قليـل من الطماطم وقطـع البطاطس والبقدونس، ثم يضـاف إليها الجـبن والبيض وتخلـط جيـدًا وتوضـع بالفرن وتقطـع بعد ذلك بـاردة كما تقطع الكيكـة. والبريك ..أشـهاها ..فهو طبقات رقيقة من العجين تشـبه الجُلّاش تُحشـى باللحم المفروم والبيض والبقدونس مع قليل من الهريسة الحِرِّيفة وتقلى وتقدم ساخنة مع شرائح الليمون.

سـال لعابي وأنا اسـتدعي أجواء الاحتفالات واللمّـات العائلية، وبالمثل انفتحت شـهية صـديقتي وامتلأت بالرضـا لأنها نجحت في أن تغسـل قلبـي بالبهجـة والانشـراح. فالمطبخ فن عظيم أعشـقه وأسـتمتع برائحة الأطعمة التونسـية والحلويـات وتزداد متعتي عندما يُقبِْل أبنائي وضيوفي على تناول الطعام بشهية وإعجاب.

ويحلو لي أن أدعو الأصـدقاء على سهرات في المنزل من حين لآخر حيـث يلتفون حول السـفرة بين وصـلات موسـيقى عـازف العود أسـامة، والغنـاء الشـرقي وبطـلاه الدويتـو المكون من الصـديق محمـد صـلاح وهو فنان كبير مُتخـفٍّ في عباءة الكاتب الصـحفي، والفنانـة التونسـية هادية جويرة. وتحفل السـفرة بما لذّ وطاب، في المنتصف الكسكسـي المشهى بلحم العلوش والتشيش بالقرنيط ذي الرائحـة الذكيـة، والقرنيـط هـو الأخطبوط الـذي لا يتناوله

إلا بعض الجاليات الأجنبية في الإسكندرية، والمحمّص بالقدّيد أو المرقاز والملثوث بالهرقمة ولحمة رأس الخروف وغيرها من الأكلات التقليدية الأخرى التي حرصت على تعلمها من والدتي وتعليمها بدوري لابنتي حتى تتواصل الأجيال ولا تنقرض هذه الثقافة الغذائية التونسية المميزة في العائلة. العديد من العائلات التونسية يحرص على الحفاظ على هذه العادات الغذائية، وثقافة الطعام ونقلها من جيل إلى جيل حتى لا تندثر هي مهمة لا تقل شأنًا عن مهمة الذود عن تراب الأوطان. ولا أتذكر طيلة طفولتي التي قضيتها في مدينة صفاقس أنني تناولت أكلات تنتمي لثقافات أخرى، حتى عندما كنت أذهب إلى أسر صديقاتي وخاصة ماجدة وأتناول معهم الطعام أجده مشابهًا لطبخ والدتي وجدتي وخالاتي. ولا أدري هل هذا إغراق في المحلية وتعصب للأطعمة التونسية، أم أنه يعكس جهلا بأطعمة شعوب أخرى مجاورة.

سيرة توأم روحي ماجدة دائما توقد عقلي.. لابد أنها متألمة لألمي، لقد أعلمتها بمرضي من خلال رسالة على الفيس بوك وتفاديت الاتصال المباشر بالتليفون خوفًا من عدوى الدموع. سوف أرسل إليها كلمات مطمئنة عبر الفايس بوك.

لا أنسى تلك الليلة الرائقة في الصائفة الماضية عندما اجتمعنا معًا

في منزل صديقة عزيزة من أيام الطفولة المبكرة هي آمنة الحنشي وزوجها الرائع كمال البجاوي. فرحنا ومرحنا وضحكنا ورقصنا وأكلنا من صنع يدَي العزيزة آمنة. اكتشفت أسرتي أن آمنة طباخة ماهرة إضافة إلى مميزاتها الأكاديمية كأستاذة جامعية ناجحة وطَمُوح. ولكن من جانبي لم أجد ذلك غريبًا على آمنة بنت الخالة سعدية الشاطرة، التي كنا نزوغ من الفصول راكضين نحو بيتها المقابل للمدرسة لنأكل شطائرالبيتزا وكسكروت التن بالهريسة.

واعترفت سمر بأنها تقضي أعظم الأوقات في بيت صديقة والدتها وأن تلك الليلة نُقشت في مخيلتها ووعيها، وكانت تتذوق الأكل المتنوع وتعلّق بلكنة مختلطة عجيبة تمزج بين عامية مصرية وتونسية، وتقول :بنينة برشة ..تجنّن يا تاتا آمنة!!

بينما كان الجميع مستمتعين بالصحبة والأكل والنقاش السياسي الساخن في ضوء أحداث السّاعة وحركة احتجاجات الحوض المنجمي المتواصلة منذ أشهر في قفصة، كنت منهمكة في دندنة أغنية «هيلا هيلا يا مطر» التي استوحيتها من حوار اللّحظة واستدعيتها من جراب ذاكرة الطفولة والشباب والتي تتغنى بها فرقة أولاد المناجم المولودة في بطن الطبقة العمالية وبالتحديد من عمال مناجم الفوسفات.. ونغني:

هيــــلاَ هيــــلاَ يـا مَطـَـــــر اغْسِلــــي أوْراق الشَـجَرْ
الحُلْـم مثْـل الــوَرْد يـكْـبَرْ والهــــلالْ يصْـبَحْ قمَـرْ
اُدْخُلـي بُيُـــوت القَـصَـبْ واسْـقِي أزْهـار الغَضَـبْ
وخَبِّري دَمْعَـــــةْ بـــلادي إنّ ماســـحْهَا حَضَـــــرْ
طُلّـي مِـنْ فُــــوقَ الجَبَـلْ دُقّـي عْلَـى أبْـواب الأمَـلْ
في خيمـة النَّصْـر اللـي هَـلّ الخَضْـرا تُضـفُرْ في الشّـعَرْ
قَطْـرَةْ قطْــرَة عَ الـــدُرُوبْ غَنّـي لعْـــطَش القُلُـوبْ
ومـا تْخـافي السَّـحابْ يـا خضْـرا الصَـفْوْ مِـنْ بَعْـد الكـدَرْ
ضُـمِّيني وَبلِّـي لي ريقِـي وغَطّـي بلْحافِكْ رَفيقِـي
مَهْمَا عَثَّرْني طَرِيقِي المَسِيرَةْ تَسْتمرّ...

سـعدت ورضيت عن نفسـي مثل طفلة.. لأني تذكّرت الأغنية دون أن تهرب مني الكلمات بعد كل تلك السنوات. لعل الجو العام المريح في منزل آمنة وكمال يحفظ للذاكرة طزاجتها وتجدّدها.

بيت آمنة وكمال متحف مصغر، ينبض بالحيوية ويقطر رومانسية بفضـل أناملهما التي تركت في كل ركن لمسـة جميلـةً. تطالع الزائر خمسـة وخميسـة زرقاء على الباب الخارجي، ويسميها التوانسة أيضـا «يد فاطمة »وهي منتشـرة في كثير من الزخرفات. وإختارا قطعا فريدة من الأثاث بعيدة عن صـالونات لويس الخامس عشـر أو لويس السـادس عشر ولا هي صـالونات الجلد مثل بيوت أغلب

البورجوازية الصفاقسية، بل إن البيت مميز بالأثاث الخشبي من الصناعات التقليدية بلمسة عصرية وعليها نقوش برع الحرفيون في رسمها بأشكال وألوان الطبيعة الزاهية التي تزدهر بها مناطق الشّمال التونسي. أما الأرضيّة فقد اكتست «بالكليم»و«المرقوم» وهو سَجَّاد يدوي منسوج من الصوف الطبيعي تشتهر به قفصة وتوزر والجريد ومناطق أخرى جنوبية، وتجسم رسومات بها أشكال هندسية بديعة ذات ألوان مستوحاة من الطبيعة والإرث الجهوي الثقافي والاجتماعي.

وفي الصالة هناك ماكينة خياطة قديمة رابضة بأحد الأركان، وهي بمثابة الأيقونة الأثيرة لعمل المرأة وكفاحها في القرن الماضي لمساعدة عائلتها. وذكَّرتني تلك الأنتيكة الرائعة بمشهد الممثلتين المصريتين الراحلة أمينة رزق وسناء جميل كنموذجين نمطيين لهذه المرأة التي تشقى من أجل تربية أبنائها وإخوتها وتجلس ساعات إلى الماكينة للإنفاق على الأسرة، ولا أحد يمكنه بالطبع نسيان فيلم «بداية ونهاية» المأخوذ عن رواية نجيب محفوظ تحمل نفس العنوان، إذ كانت ماكينة الخياطة حينئذ إحدى أدوات البحث عن الرزق وتختزل مفهوم الستر الاجتماعي. وتبدل الحال كثيرًا اليوم، لم يعد هناك حديث عن ماكينة الخياطة المنزلية، لكني

سعدت برؤيتها من جديد في بيت آمنة لأنها ليست مجرد أنتيكة من الأنتيكات التي تمتلئ المتاجر بالعشـرات منها زاحفة من الصـين، ولكن لأنها تسجل بها تلك الحقبة من تاريخ النساء.

وفي حديقة البيت توجد حجارة منقوشـة تشـتهر بها دار شعبان الفهـري في نابـل، وتعـود تلـك الزخرفـة والإبـداع في النقش على الحجارة إلى ما يقـارب من ثلاثة قرون حيث ابتدأت بالنحت على الحجارة على شـكل وجوه لأشـخاص أو محاكاة لنقوش رومانية وبيزنطيـة وبقيت مـا يقارب القـرن في مرحلة النحـت البدائي، ثم بنمـو الأجيال واحتياجاتهم إلى مزيـد من التقدم والرقي في الذوق الجمـالي وتطعيـم المعمار بلمسـات فنية، دخلت فنـون النقش إلى البيـوت والمحلات والمبـاني الحكومية وتحولت إلى صـناعة مهمة تستوحي من الماضي لتجميل الحاضر.

حملتنـي تلك الذكريـات المتوهّجـة إلى سـماوات طفولية حنونة أسلمتني إلى ملك السكون.

الهوامش

(١) اشـتهر هيبنوس إلـه النـوم في الأسـاطير الإغريقية بقدرتـه الفائقـة على تنـويم آلهة الأوليمـب عـن طريـق تدليلهـم. وكان هيبنوس لـه الكثير مـن الأبناء يسـمون Dreams ،

ومـن اهمهم مورفيوس Morpheus إله الأحلام . وقد سُـميت مجموعة المنومات بالكامل Hypnotic نسبة إلـى هيبنوس إله النـوم عند الإغريق، بينما سُـمِّي المخدر المشـهور Morphine مورفين نسبة إلى مورفيوس ابن إله النوم.



الرّفيق الثائر

«نصيحتي لك هي أن تتزوجي، فأنت إن وجدت زوجًا صالحًا ستسعدين وإن لم تجدي ستصبحين فيلسوفة».

تلك نصيحة سقراط ، وصيغتها الأصلية موجهة للرجال، ولكني غيرتها إلى ضمير التأنيث. محظوظ ومحسود من يفوز بالزواج ويحقّق الميزتين: العثور على الشريك الصالح دون أن يخسر ألَق الفلسفة وعشق الحرية والسباحة في بحورها .

ارتبطت به لأنه اختطف عقلي وأسكنني مملكة أحلامي حتى قادتني إلى هجرة الوطن والأهل والأصدقاء، وكان المطلوب منه مضاعفًا: أن ينجح في حياتنا الزوجية وأن يحتضن حبًا رائعًا إحتمينا في ظله... أن يكون الزوج والحبيب والأب والأخ . التحدّي في هذه المهمة هو أن يدرك كيف يتناغم مع تلك الأدوار جميعها.

كان لديَّ أصدقاء كثيرون في مرحلة الصبا والشباب أقضي معهم غالبية وقتي؛ حتى أن والدتي كانت تضيق ذرعًا بكثرة الأصدقاء لإنشغالي طوال الوقت معهم. لم يكن ذلك يؤثر على تعليمي، فكنت من النجباء الذين يعشقون العلم، كما إني مُعتدَّة برأيي وليس لي ما أخفيه عن أهلي لذلك فكل أصدقائي يزورونني في منزل الأسرة، بمن في ذلك الذكور ويعرفهم والدي ووالدتي رغم ضجرهما أحيانا بهذا الأمر الواقع الذي يروّج أقاويل في مدينة محافظة صغيرة لن تكلف الناس عناء في ترديد إشاعات تنهش حياء العائلات. ولكن كلّ ذلك يمضي والزمن يفقده حدّة المشاعر. وبفضل القيم الرّائعة التي نسجناها معًا في الصغر، ظلّ الأصدقاء على العهد مع أسرتي في صفاقس بعد زواجي وسفري للإقامة في مصر، وأصبحت زيارة ماجدة الطرابلسي وآمنة الحنشي وزوجها كمال البجاوي ومحمد دمق وزوجته كوثر خليف إلى منزل الأسرة بمثابة زيارة شخصية لي، وقد نجحوا في تعويض الغياب وتخفيف عذاب الاشتياق بشكل رائع .

أشـقائي وأصـدقائي يقولون إن لديَّ الموهبة للتعرف إلى الناس وإقامـة علاقات صـداقة خصـبة، حتـى إن والدي يفسـر ذلك بأني اسـم على مسـمًى- وكل إنسـان يأخذ من اسـمه المعنى - فالأُلْفة والمحبـة تميـز شخصـيتي فيألفني الناس بسـرعة. وهـذه الميزة كانـت مدخلاً طيبًا لإقامـة علاقة ناجحة بعد ذلك مـع زملاء العمل ، وبـين زمـلاء المهنة، ومع المشـاهدين. وقد يكون مـن غير اللائق لَمَنْ يرنو إلى التحلي بالتواضع ذكر هذه المحبة والتقدير الشخصي في المحيـط الاجتماعـي، لكن أشـير إليها فقط للتدليـل إلى أي مدى كان لها فضـل في تحقيق التوازن النفسـي الذي يحمي من أمراض الغربـة والاغتراب ويمـلأ الحيـاة بالمحبة الحقيقيـة المنزهة عن أي غرض أو مصـلحة. كما أني إكتسـبت أيضًـا مهـارة التمييز بين البشـر، الخيِّر منهم والشرير، بفضل حاسة الشم التي تنبهني إذا كان الشـخص إيجابياً ويصدر أفضـل ما عنـده، أو إذا كان داخله متقيحًـا وعنده «صـديد»مزمن لا رجاء منه. وإذا كان لأحد فضـل علي في غرس ثقافة التعدد وتقبل التنوع الثقافي فهو والدي الخبير بخبايـا البشـر، وأخوالي محمد والبشـير والهادي شـقرون الذين تربـوا في جامعة القاهرة وبغداد في أزهى عصـر المد القومي خلال السـتينيات. ويحتفـظ والـدي في ملفاتـه القديمة بكتـب بها بعض مقـررات الدراسـة الزيتونيّة وفقًا لمناهج التعليـم الديني الزيتوني

منها كتاب ألفية ابن مالك، ويحتفظ أيضًا بلوحة مكتوبة بالحرف الكوفي المورَّق الذي تحيط به زخارف تشبه أوراق الأشجار عن حكمة قالها الزعيم الهندي غاندي: «يجب أن أفتح نوافذ بيتي ،لكي تهبّ عليه رياح جميع الثقافات، بشرط ألا تقتلعني من جذوري».

وكبرت وترعرعت على عشق الكلمة، ألتهم الكتب بشهية لا ينازعها شيء آخر. فغذاء الروح خيال الحلم. أستطيع أن أعيش على رغيف الخبز يومًا، أما الكلمة الطيبة فأستطيع أن أعيش عليها أعوامًا. والدي هو الذي غرس فيَّ الرومانسية والروح الإيجابية، أما والدتي فهي التي تعلمتُ منها الاعتزاز بالنفس والإرادة قطرة قطرة التي تصنع المستحيل، فالقطرات القليلة تصنع جداول.

النوستالجيا تحكّمت بوجداني في أوقات كثيرة عند بداية انتقالي للحياة بالقاهرة، وقد قام الزوج برقة ومحبة بتأثيث عالمي الجديد بالكثيرمن الأفكار المجنونة التي تستهويني حتى تستغرقني فأنشغل عن ذلك الحنين الذي يتملك المغترب فيشعر في بعض المواسم كالأعياد والمناسبات بالغربة والوحشة. كما إنه بذل جهودًا شاقة ليتغلب على الحُجُب الثقافية التي تحول دون أن نسكن إلى بعضنا البعض. وتفهم السلوك الثقافي والاجتماعي المنفتح وإستقلالية الشخصية، وأن تنوع شبكة العلاقات مع عدد

كبير من الأصـدقاء عملية أصعب من مصارعة الأمواج في عاصفة شـتوية قارسـة، وتبدو الصـورة مشـرقة بعد نحو ربـع قرن من الزواج .

حـاول طـارق أن يتقبّل اختـلاف العـادات والتقاليد، فهـو تنوّع يثري الحلم ويعزز الذاكرة. وكان يقبل على تذوق أغلب الأطعمة حتى التـي تختلف جذريًا عن الأكلات المصـرية فيما عدا الملوخية بنسـختها التونسـية، ولم أنزعـج لأنـه لا يميـل إلـى الملوخيّتين: التونسية والمصرية والتي لا يقاومها أحد من أهلها!

أشد ما كان يضـايقني أن الأصدقاء كانوا يترجمون كل ما يرونه أو يستمعون إليه أو يأكلونه ويشربونه إلى الكتالوج المصري، فلو تذوقـوا الملوخية التونسـية «فهـي زي الخبيزة المصـرية »، ولو أكلوا الطاجين التونسـي فيترجمونه على طول للمصـري ويصبح «عجة »، والسلاطة المشوية تصبح «بابا غنوج». أما إذا استمعوا لصـوت غنائي حلو فيصفونه بأنه زي السـت أم كلثوم.. وإذا زار أحد سوسـة فهي كالإسـماعيلية ، وقربص كالعين السخنة وهكذا كل شيء لابد أن يعود إلى المراجع الأصلية، وهي بالمصري!

وأتذكـر موقفًـا طريفًـا في أول أسـبوع لي في بيتـي. كنت عروسـا يأتيني للزيـارة والتهنئة أقرباء وأصـدقاء زوجي ومنهم عدد من

المحامين، مثل عادل بطران -رحمه الله- وعصام الإسلامبولي وزوجته العزيزة وفاء البدري المحاميان المعروفان، ومرفت عبد الحي أنتيمة طارق في الجامعة، ومحسن طعيمة ومصطفى محمود وأدهم عشماوي وغيرهم، وطلبت منهم بكل لطف أن ينزعوا أحذيتهم أمام باب المنزل قبل الدخول.. لأن الشقة مفروشة بالموكيت و«عينك متشوف إلا النور على الضحك الهستيري وكأنه ماسورة وإنفجرت»، وأصبحت تلك الواقعة فضيحة بجلاجل لزوجي المتحرّج دون أن يتحرك لي في المقابل أي شعرة!

كما أتذكر موقفًا آخر طريفًا عندما كان عدد من أصدقاء طارق مدعوين للعشاء في بيتنا. كانت أول عزومة أستضيفهم فيها على أكلات تونسية بينها الكسكسي بلحم العلوش، وبمجرد أن بدءوا في تناول الطعام تصببّوا عرقًا وأخذوا يلهثون ويسعلون ودمعت عيونهم. طبعا المفاجأة أخذتهم على «خوانة»، فالتوابل الحرِّيفة وخاصة الهريسة أشعلت نيرانًا في المعدة وتسببت في تلك الأزمة. لكن إنتابتهم في المقابل نوبات ضحك عندما رويت لهم نكتة تونسية تطفئ حريق الهريسة:

- تونسي وياباني وأمريكي تخاطروا آش كون يحرك ذيل فيل، الأمريكي بالأورديناتور والأسلحة ما نجّم يعمل شيء،

والياباني بالكاراتيه والتايكوندو.. النسمة لا ومانجمش زاده، جاء التونسي حلّ حِكّة هريسة وحطهالوه في ذيلو، ياخي حرّكو!! ومن بعد.. تخاطرو الثلاثة آشكون يحرك للفيل رأسه الياباني مانجمش والأمريكي زاده معرف يعمل شيء، جاء التونسي سأل الفيل: نعاود لك كيما بكري؟ جاوب الفيل برأسه: لا..لا..لا!!

وانهمرت الضحكات المصاحبة بدموع البهجة كالأمطار الغزيرة، وفي الغالب كان سيل الضحك لأنهم لم يفهموا شيئًا من اللهجة! ولأنه لا أحد يعرف الكثير عن الآخرين، فأفضل ما يمكنه فعله هو افتراض أنهم مثله. لذلك اخترع المصري عبقرية المثاقفة وتطبيع كل الثقافات الأخرى إلى كتالوجه الخاص. ويصبح من الطبيعي بعد ذلك أن تجد الأجانب والمستشرقين والعرب يتحدثون اللّهجة المصرية بطلاقة ولا تجد العكس، بل إن العربي عندما يتحدث لهجته يبادره المصري قائلا: «مالك عاوج لسانك ليه؟»، هكذا إذن عندما يتحدث العربي لغة أبيه وجده يعتبره المصري مُعَوجَّ اللسان!

فالثقافة المصرية لديها الاكتفاء الذاتي ومن يريدها يأتي إليها، وهي لا تقترب مسافة من الآخر إلا بقدر اقتراب الآخر منها وفي

الحالة الأخيرة تكون غالبا مرحّبة ومنفتحة ولا تبدي أية مقاومة لاحتواء الوافد، والجاليات العربية تعلّق مازحة بأن القاهرة آكلة البشر، وحتى الزائر أو العابر قد يقرّر البقاء ويطيب له العيش ويلبس -أو تلبس -الجلابية الفلاحي أو الصعيدي ويأكل المِشّ (أبو دود) والعيش البلدي الفلاحي وينسى الخبز الباجات دون أدنى مشكلة، ويتحدث بالعامية المصرية ويندمج في الأجواء الشعبية بل يعشقها محبًا ومحتضنًا ولا يستطيع بعد ذلك الإبتعاد عنها، ويشتاق إليها إذا ما سافر في رحلة قصيرة وسرعان ما يهرع إلى حضنها الساحر، مهما كانت البلاد مليئة بالقمامة أو غرقانة بالصرف الصحي أو الناس لا يستحمّون!!

تلك باختصار عبقرية المكان التي تحدث عنها الدكتور جمال حمدان.. وقد كنت في البداية أتضايق ويركبني مائة عفريت من ظاهرة إن الناس يعرفون كل شيء، وأي سؤال له إجابات، وأدرك حينئذ أنهم لا يعرفون شيئا. استغرقت بعض الوقت لأهضم تلك المظاهر التي تبدو لأول وهلة متناقضة ومستفزة وساعدني زوجي على عملية الهضم.غير أنه قد بذل تجاهي أضعاف ذلك كله خلال عدة أشهر ومنذ إصابتي بالسرطان، بل إن تلك الجهود التي بذلها خلال الأزمة المرضية تضاهي ما بذله خلال السنوات الماضية من حياتنا وبالتأكيد أصبح أكثر حُنوًا وغمرًا. فلم يدخر جهدًا في توفير

أفضل الظروف للعلاج والقيام بكل شيء بدءا من إعطائي الحقن والإشراف على رعايتي، مرورًا بحملي مثل الطفلة الرضيعة بين يديه عندما تعجز رجلي عن حملي وصولاً إلى تغيير عاداته كافة وروتين حياته. وقام بأدوار في المنزل، ربما كان يمقتها من قبل لتعويض غيابي، وأصبح لا يتوانى عند الحاجة عن الدخول إلى المطبخ لتحضير طعام أو لتنظيف أطباق. وهذه الصورة الحانية ستظل تزين خيالي وتدفئ مشاعري ما حييت ، فالعطاء مع الوجه البشوش والابتسامة حسنةٌ مضاعفةٌ.

وهذا العطاء السخيُّ كالسفينة التي تتراءى عن بعد للغريق، فيستجمع ما بقي من أنفاس ليصارع المياه حتى يصل إليها.

مريض السرطان أكثر من أي مريض آخر يحتاج شريكًا مخلصًا يهوّن عليه الصدمة ويبعث فيه الطمأنينة والسكينة. ورغم أن شجاعتي كانت تخونني أحيانًا وتنتابني هواجس كثيرة؛ إلا إني كنت أحفز نفسي حتى أتقبل ما أصابني لخوفي على أولادي إذا ما أُصبت بالانهيار أمامهم، وساعدني طارق على مقاومة المرض بفضل شحنات الإيمان التي كان يزودني بها، وفتح لي أبواب الاستمتاع بالتعبد على نحو جديد. وقد لجأت إلى قراءة القرآن وختمته في شهر رمضان، وعندما لا أقدر على القراءة أستمع للترتيل، وكان

مشـاري بن راشـد العفاسي يسـكب ترتيله للقرآن وخاصة سورة البقرة طمأنينة في قلبي.

كثيرًا ما كان زوجي يحدثني بعبارات روحانية تقلب البؤس إلى رضا، ويستحضر الذكريات الجميلة التي جمعتنا ليخلق المناسبة لكي يقول «وحشـتيني جدًا جداً».. فالاشتياق إلى من يسكنك وهو مُهَجر في أوطان هادرة بالمخاضـات يكون أقسـى من الاشتياق إلى من حرمك منه أسوار المسـاحات البعيدة. الرومانسـية من غير غايـة أو نزوة تعانق حواف الأحـلام وترفرف بأجنحة المحبين في المنتهى. وتحنّن الكلمات الرومانسـية الأوجاع وتخمدها فيستزيد منها في كل مناسـبة ويقول: «أنت إنسـانة عظيمة».. «أنت إنسانة رائعة..».. و«بحبك جداً..جداً».. وله في الرسـول الكريم صلى الله عليه وسـلم قدوة، وهـو القائل: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»[1].

وسـاعدني زوجـي علـى المجاهـرة بالمرض، ومواجهـة الناس وشجعني على الظهور بدون غطاء للشعر أو طرحة.. فمن المعروف أن جرعات الكيماوي أول ما تصيب الشعر، فأخذني طارق إلى عم محمد شباسـي الذي قام بقص الشـعر بالمكنة علـى الزيرو بعد أن تحوّل إلى كتلة خرسـانية متشابكة ومحترقة معدومة الحياة ولا

ينفع معها التمشيط أو الماء. كان مرتبكًا مصطنعًا الإبتسام على غيرعادته يحتمي في حركات المقص المتتابعة هربًا من التحسر على أوراق الشجر المتساقط . تندّمت لكوني أهملت النصيحة التي أسدتها الصديقة ماجدة أبو سبعة نقلا عن إحدى المريضات بالسرطان وهي أن أقص الشعر قبل بدء الجرعات. لقد تألّمت من الشعر الذي يمرّ بمراحل الذبول ثم الاحتراق الشديد قبل الموات.

فوجئت عند عودتي من الكوافير بابنتي سمر تعلن إنّها ستقصّ شعرها هي أيضًا حتى تصبح مثلي بلا شعر، لكنّني رفضت أن تتقمّصني فالتضامن في المحبة أرقى من التضامن في الضرر.

لجأت إلى تغطية شعري في البداية ، ليس خجلاً أو حرجًا من شكلي، بل مراعاة للجو العام ولمشاعر الناس التي ترتبك بمجرد رؤية مريضة على هذا النحو ، ومراعاة كذلك لابني الذي يخاف كلما رآني على تلك الصورة التي تذكره بمرضي بينما كان يستعجل طيَّ هذه الصفحة. لكن عندما طالت المُدّة أصبحت أرفع الغطاء عن رأسي دون أي انزعاج أو حرج . وبالمثل تساقط الحاجبان والرموش وأضفى ذلك تغيّرًا واضحًا على قسمات الوجه والملامح كافةً. كان طارق يثني عليّ بكلمات عطرة وفوّاحة عندما يجدني قد احتميتُ من الآثار الجانبيَّة للكيماوي بأدوات الزينة فأضع لمسات مميزة وناعمة في العينين والحواجب والوجنتين. وهو ما دفعني إلى الاحتماء في تلك اللّمسات بشكل متكرّر. وأحيانًا كنت

أشعربراحة أكبر عند التعامل مع أناس لا يعرفونني من قبل حتّى أتجنّب شفقة البعض الآخر الذين يعرفونني، فالشفقة أصعب ما في المرض وهناك شخصيّات من أهلي وزملائي وضعوا أنفسهم في هذا الموقف دون وعي أو قصد بأنّ ذلك يمزّق أوصالي ويهوي بي إلى جبّ عميق، فيتحوّل اللّقاء معهم إلى سرادق لتقبُّل التّعازي.

ولم يكن الاحتضان العاطفي هو فقط ما يميِّز علاقتي بطارق منذ ارتباطنا، بل إن الاحتضان الفكري أيضًا يدثِر تلك الروابط.

فالنشاط السياسي وحضور الندوات وحفلات السينما والمسرح، أضفت ثراء يتجاوز مجرد الحوارات حول ما يخص الأسرة إلى كل ما يخّص الشأن العام . وأعترف إن دعواته الكريمة لمشاهدة المسرحيآت وآخر العروض الفنية والأفلام السينمائية هي لفتات ذكية أسهمت في توطيد علاقتنا وإدخال الحيوية على وتيرة الحياة؛ خاصة أنَ هذه المتع الجديدة كانت موسمية في تونس. وكنت مغرمة بالفنون المختلفة ،أحب السينما والمسرح والفن التشكيلي وأعشق الأفلام المصرية التي كنا نتحلق حول التلفزيون لمشاهدتها في فترة الطفولة. ثم تطور شغفي بالسينما في مرحلة الشباب من خلال نادي السينما أو كما نطلق عليه «سيني كلوب» الذي يقيم نشاطه مساء الجمعة من كل أسبوع من خلال شاشة عرض صالة سينما بغداد بوسط مدينة صفاقس. ويعتبرهذا

النادي منبرًا فكريًا علمانيًا لشـباب المدينة على امتداد عقود، وظل التيار الإسـلامي يرصـد هذه الظاهرة دون القدرة على إختراقها، خاصـة أن المجالات الفنية لم تكن في أولويات التيار الإسلامي قبل ذلك الوقت الذي تقوقـع في فترات ولادتـه بالسـبعينيات لتأثيث كوادره فكريًا وأديولوجيًا.

أذكر إن أحـد أصـدقاء والـدي همس لـه مرة بـأني أرتـاد نادي السـينما الذي يسـيطر عليه الشـيوعيون، فلم يستجب على الفور لذلك التحريض بمنعي، بل اقترح عليّ أن يرافقني حتى يطّلع على نوعية النقاشات، ووافقت على الفور مرحّبة بمبادرته الحنونة.

وما كان منه بعد ذلك إلاّ أن يتراجع عن الذهاب، وفهمت إنه كان مجرّد اختبار تربوي وعندما نجحت فيه قرر الاستمرار في زرع تلك الثقة حتى تينع الشخصية ناضجة ومكتملة.

ولم يقتصر عشقي على السينما بل شُغفت بنفس الدرجة بالمسرح، وبداية ذلك في نادي المسـرح بليسـيه مجيدة بوليلـة، الذي فتح لي مجالاً واسـعًا للخيال غير التقليدي. ولعلّ من أهم مكتسبات العهد البورقيبي في تونس تعميـم التعليم والنّهوض بالثقافة على الرغم من السلبيات التي عاشها جيلي وأوصلت النظام إلى نفق الانقلاب في العـام ١٩٨٧. وقد عشـقت تقمّص الأدوار التمثيليّة في شـبابي لدرجة أني لو لم أصبح صـحفيّة لوددت أن أكون ممثلة مسرحية.

وقد تقمّصت مرة دور فتاة صمّاء خلال التمثيل بنادي المسرح وتلبّستني الشخصية بعد انتهاء البروفة، واستمرت في ارتدائي مع تجاهل جرس الإنذار الذي يريد أن يوقظني ويفتكّني من الشخصية المتقمّصة. وخلال امتطائي الأوتوبيس في طريق العودة إلى المنزل أعجبت اللّعبة صديقاتي اللآئي عانقن خيالي واستلهمن المزيد من قصص صندوقه العجيب.

استعْدتُ تلك البهجة التي ميّزت أيام الشباب وأنا طريحة الفراش تزمجر الآلام المبرحة داخل روحي وأغرق في تأمّلات التيه ما بين الأمس واليوم.

لم أتخيل يومًا أن أكون في حبسي مغلولة بقيود الجينات الخبيثة، عاجزة حتى عن فسحة الأمل، أحتاج إلى من يخدمني ويصبر على مرضي ولا يتبرم من ملاحظاتي. فكثيرًا ما تعودنا على الزوجة التي تخدم زوجها وأبناءها وتصبر عليهم وتتحملهم في تعبهم ومرضهم ومللهم، ولكن عندما نعثر على رجال نبلاء يتصرّفون في هذه المواقف الاستثنائية ببذل كريم لإسعاد الآخر فإننا بالتأكيد إزاء نماذج تستحق الإبراز والإحتفاء . هل تُراني ظلمته في وقت ما وأستحقّ العقاب على أفكاري تلك ؟!

إن أذكى وسيلة لتهدئة صيحات الضمير والتغافل عن الألم استدعاء بعض الذكريات الجميلة.

احتفلنا بالعاصمة البريطانية لندن في يناير ٢٠٠٧ بعيد زواجنا العشرين . تلك هي المرة الأولى التي نقرّر فيها السفر بمفردنا، بدون الأولاد في رحلة خارجية لنكسر روتين الحياة ونجدّد الدّماء والمشاعر لمجابهة تكالب الضغوط . واستمتعنا بأجواء أوروبيّة لسنا معتادين عليها في مصر، فالشتاء قارس: رياح باردة وأمطار غزيرة، والعواصف الفجئية متكررة ومع ذلك شعرنا بالدفء ودغدغت رائحة الرذاذ المصطدم بالأرض أنوفنا، وتسلّينا بمشهد الطيور التي تحتمي بأوراق الشجر الباسق في الساحات والحدائق التي ملأت ميادين لندن، ولم تؤثر الأمطار على الوقفات الإحتجاجية في ساحة ترافلغار سكوير. مجموعة من السيدات يطلقن على أنفسهن «بلاك ويمن » يرتدين الملابس السوداء يتظاهرن والمفاجأة هي أن وقفاتهن لدعم الشعب الفلسطيني والتنديد بالاعتداءات الإسرائيلية، بينما ليس بالبعيد عن تلك الوقفات يكتظ شارع إدجوار رود بالعرب وتنتشر المطاعم وملاهي الكافيشنطة التي أُقيمت خصيصًا لمزاج العرب لكي ينفقوا فيها الآلاف من الجنيهات الإسترلينية، كما ينفق العرب آلافًا أخرى في متاجر شارع أكسفورد حيث الماركات العالمية في سلفردج مثل دبنهامز وهاوس أوف فريزر ومانجو ونيكست وزارا، وفي بوند ستريت المتفرع من أكسفورد تتهافت نساء عربيات على

إقتنـاء الماركات الشـهيرة، مثـل أرمـاني وبربري التـي يكفي ثمن القطعـة الواحـدة منها لشـراء احتياجات عدة أسـر رقيقة الحال طيلـة عام كامل، ويحلو لنسـاء ورجال العرب التسـكع في محلات هارودز بشـارع نايتس بردج والمحالِّ المنتشرة بشارع متفرع منه إسـمه سلاوين ستريت، التي تعرض ماركات شهيرة مثل جوتشي وفنـدي وبـرادا وبوتشـي. كل تلـك الملايـين تتدفـق في شـرايين الاقتصـاد البريطاني بينمـا العديد من أغنياء العرب ليسـت لديهم رفاهيَّـة التفكـير في التـبرع لعائلات الشـهداء الفلسـطينيين الذين مازالـوا يدافعـون بالنيابة عـن كل العرب عن العروبة المسـلوبة. على عكس غالبية السـياح لا تسـتهوي زوجي جولات الشوبنج في قلب العاصـمة البريطانية، غير أن المزارات السـياحية وأجواءها السـاحرة تجذبه أكـثر. أما الإسـتمتاع الأكبر والذي لا تضـاهيه أي متعـة أخرى فيتمثـل في الجلوس على المقاهي في قارعة الطريق وتأمل الوجوه ، فتلك فنون كشف الأقنعة يدركها جيدا من يتقنها. وقد تكررت الزيارات الانفرادية بلا أولاد إلى باريس وكانت ممتعة رغم مدتها المحدودة، ولعلَّ متعتها في قِصَر مدتها!.

دراسـة القانون أعطت عمقا لثقافة الأسرة، واطمئنانًا لأفرادها. فمعرفـة القانون تجعل الإنسـان موثوق الخطـى لأنه يعي حقوقه فيسـتطيع الدفـاع عنهـا والمطالبـة بها ويفهـم واجباتـه فيؤديها،

وينظـر إلى العـالم بعين مختلفـة . فالقانون أسـلوب حياة وليس مجالا لكسـب الرزق. واسـتفدت وأبنائي من أن نكـون بالقرب من محام بارع ومتضلع في القانون تعلمنا منه أن مهنة المحاماة تحتاج إلى ضمير حي ومبادئ راسخة لتكون ضلعا في تقدم الأوطان. فهي مؤثرة في تحقيق العدالة وسـيادة القانون لأنها قائمة على الدفاع عـن حقـوق الغير، وتقتضـي العـدل وإدانـة الظـالم والوقوف في وجهه ونصـرة المظلـوم وتبرئته. وظللت أتابـع بتقدير كبير كيف يرفض الدفاع عن القاتل وهو يعلم أنه قاتل أو الدفاع عن السـارق وهو يعلم إنه سـارق. لذلك فكان من الطبيعي أن ينضـم إلى هيئة الدفاع عن أهالي الشـهداء والمصابين في الثورة، وليس غريبا عليه ذلـك فقـد كان يخوض الاعتصـامات لإسـقاط القوانين المشـبوهة ويقضي أيامًا وليالي في نقابة المحامين من أجل التنديد بمشروعات مشـبوهة، ويقتحم الأمن مبنى النقابة فأُهرع للبحث عنه بصحبة والده بعد أن إنقطع إتصاله بنا. ولأنه من النبلاء فلم نجده يجري على منصب أو يخوض انتخابات في حزب أو نادٍ أو نقابة أو مجلس شعب أو شورى، وفضـل العطاء في المجال الخيري مع الجمعيات الأهليـة منـذ العـام ١٩٩٠ . ونبع العطـاء يظل مسـتمرًا ينهل من نهـر يفيض بعشـق الأوطـان ونكـران الـذات وتواضـع النبلاء، وأفضـل مكان تجده فيه مشـرقًا متحققًا هو المكتب وسط المحامين

الشـباب من تلامذته الذين عشـقوا المهنة من فرط عشق أستاذهم واحترامـه. والمكتب هو عبارة عن ورشـة عمل للبحث والكتابة في المذكـرات القانونية وتعلّم قيم العدالـة وتكتيكات الهجوم والدفاع في المباريات الدائرة في ساحات القضاء.

تدغدغ الذكريات الأحاسـيس وترقص أوتار القلب. وكلما تسرّب اليأس إلى الروح جراء الضّعف والوهن، تضاعف الشعور بالحزن في عيـون أسـرتي وأصـدقائي، فأسـتنجد بتلـك الذكريـات مجددًا تحفّزني على ضـرورة معاودة الوقوف منتصـبة القامة وأن أكون في مستوى العدو الذي أحاربه.

عذبة أنت كالطفولة

كالأحلام

كاللّحن

كالصّباح الجديد[٢]

هوامش:

(١) رواه الترمذي.

(٢) أغاني الحياة للشاعرأبوالقاسم الشابي.

نداء الرَّحيل

شكرًا للأشواك علّمتني الكثير..

ولا عزاء للورود ذبلت قبل الأوان !

طالما مثّل لي الموت سـؤالاً مقبضًـا ودهشة منذ سنٍّ مبكرة، وكنتُ أتلمَّسُ بعضـ الإجابات التي تُخفف حيرة طفلة من ظاهرة تشـلّ تفكيرها وأسأل والدتي:

- كيفاش يموت الإنسان.. وعلاش؟.. وهل يستمرّ إحساسُ الميِّتِ بمن حوله بعد أن يُدفن في القبر؟

والدتي بدورها كانت تحاول أن تصيغَ رُدودًا أقرب إلى ما جاء في التعاليم الدينية التي تلقتها بدورها، ولكِنّي أذكر مرّة أنها ضـاقت ذرعا بتلك الطفلة المزعجة وأسئلتها المقلقة والملحة التي لا تنتهي، فتردّ بانزعاج:

- أُمّـي فاطمة لديها مثل تذكره في هذه المواقف..مافمَاش إشـكون مشَـى للقبر وجَـاب الخبر! وأمهـا فاطمة -هي زوجـة عمِّها وهي بمثابة الجدَة لها لأنّها ربّت والدها الذي هو جدي كما ربتها ودللتها باعتبارهـا الحفيـدة الأولى- كانت محرومة مـن الإنجاب فأعطت عاطفـة الأمومة للأحفـاد وأثْرَت تكوينهـم الثّقافي والإنسـاني، فقد كانت فيلسـوفة في محيطها تحيرها أسئلة الموت والقضايا الغيبيّة وتعتـزّ بشخصـيّتها القويّـة ونديّتهـا للرجـل، ويكفي أنهـا لم تكن تنجـب ومع ذلـك لم تكن لها ضُـرة في ذلك الوقت الذي انتشـر فيه تعدّد الزَّوجات.

وضعت والدتي حدًّا لتكرار توجيه السّؤال إليها وتخلّصت من حيرتي مادام الموتى لايروون القصص!

هذه الإجابة تلامس الكثير من مفاهيم العجز لدى العقل البشري عن فهم أسرار الموت، فهو لغز محيّر لا يدركه إنسان حيّ، لأنّ الإنسان بعد الموت لا يستطيع إخبارنا عنه لذلك سيظلّ مجال حيرة كبرى للفلسفات المختلفة وبحثًا عن إشكاليّات الوجود.

فجان بول سارتر مثلاً يقول: إن الموت طالما لا نستطيع إدخاله ضمن التجربة الذاتية فينبغي ألا نفكّر فيه بالمرّة؛ لأنّ أيّة محاولة للفصل بينه وبين الحياة وإدراجه كحالة خارجيّة دخيلة من شأنه أن يساعد على تضخيم شبح الخوف الميتافيزيقي منه.

ولأن حيرتي وخيالي لم يتوقفا فقد استمرّت قراءاتي الفلسفيّة في مرحلة لاحقة حول الموت. ومع تجربة العمليات الجراحية كنت أشعر بمعنى من معاني الموت حيث إن التخدير هو ذهاب في موت قصير. وهو معنى قريب مما يعتقده جان روسيه الذي يرى إن النوم نفسه والحاجة إلى النوم والرغبة في الانقطاع كلها تمثل أشكالًا أخرى للموت، وهي كلها أشكال تدل على وجود غريزة الموت في الإنسان. أما نيتشه فيعتقد إن الموت ليس عقابًا ميتافيزيقيًا- كما يذهب إليه تفكير بعض العامّة - وإنما تتويج

أخير لحياة ناضجة ومليئة بالمكاسب ومصير طبيعي يئول إليه الجسد بابتهاج.

ولم تنقذني هذه الفلسفات من ورطة مواجهة الموت من خلال موت القريب والعزيز، فلم أعرف معنى الموت الحقيقي إلا عندما بلغني خبر وفاة شقيقتي التي أُصِيبت بالسرطان خلال فترة حملها الثاني. وبموتها افتقدتُ أشياء كثيرة لا يمكن أن يعوضني عنها أحد .

كانت قد احتفلت بعيد زواجها السابع واحتفلت بعيد ميلاد أمل ابنتها الأولى في عامها الخامس، ولم يكتشف الطبيب أسباب معاناتها غير العادية في بداية حملها الثاني، وكلما اشتكت من التعب يرجع ذلك إلى تغيرات فسيولوجية عادة ما تعاني منها الحامل، ولا أدري أهو تقصير طبي أم تقصير من المريض، لكن النتيجة بشعة مع تحقق الأقدار. فعندما تم إجراء الأشعة المقطعية كان الوقت قد فات وانتشر المرض في كامل الجسم، وكان لابد من تأجيل العلاج الكيميائي حتى ولادة الطفلة.

واستمرّت معاناتها الشديدة لمدّة أربعة أشهر بعد الولادة .. وتركت أُنس طفلة رضيعة تيتّمت مبكرًا جدًا ، أما أمل فوضعت قدميها على أوّل سلّم الدراسة بالتزامن مع احتضار والدتها.

وعاشــت الطفلتــان مــع والــديّ لحــين طلبهمــا بعــد ذلــك والدهما وزوجته للعيش إلى جانبهما في إطارٍ أســريٍّ. وشـكّلت وفاة أختي موقفًا فارقًا اختلفت تمامًا حياتهما بعده.

وقد سـكن الحزن قلبهما وسـبح في كيانهما حتى أَمْسَـتا كتلة من البؤس التهمت مرحلة من طفولتهما.

ولا أستطيع بعد مرور كل تلك السنوات أن أدّعي أن صدمة الموت فارقـت مُخيِّلتـي لحظـة أو أن حـزني قد خـفّ وجرحي قد بَـرأ، بل تتملّكنـي نوبات بكاء كلما تذكّرت ذلك الموقف وأنا في مطار القاهرة أبحث عن رحلة متّجهة إلى تونس لألتحق بالجنازة واضطررت إلى السفر لتونس عن طريق إسطنبول. وذلك الموقف من أصعب ما مرّ بي في حياتي، فقد تركت ابني محمد الرضـيع وهو لم يُكمل شـهره الرابـع مع مربيتـه سـامية ،وأوقفتُ الرضـاعة مضـطرة، فتألمت للغاية وإرتفعت درجة حرارتي بسـبب تحجر الصدر بينما تعذّب ابنـي الرضـيع محمد لهذا الحرمـان المفاجئ. ولم أفكـر في كل تلك التداعيات فالحزن شـلَّ عقلي . كان الحزن كالجبل الشّاهق، البدن ثقيل هائم ،والروح خفتت شعلتها فتسربت إليها أنفاس الموت. لعلّ الرُّوح تموت عدة مرّات حتى تنسحب من البدن في مرة أخيرة. هذا ما أصـابني من ويل كأخت وشـقيقة، فما بال والدتي المكلومة التي

فُجِعت في ابنتها التي توفاها الله وهي في ريعان الشباب وتركت طفلتين صغيرتين. لقد انطفأ بريقها وأصبحت خاملة ميّتة،غير أنها مثل كثيرين يفارقون الحياة وهم فيها!

أما والدي فقد بكي كطفل.. مسلّمًا أمره لله وقد خفّف عنه مصيبته قراءة سيرة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام وكيف صبر على ابتلاء الله له، حيث دفن بيديه جميع أبنائه الذين تُوفّوا قبله: أبو القاسم وعبدالله وإبراهيم من الذكور وأم كلثوم وزينب ورقية من الإناث، باستثناء فاطمة الزهراء سيّدة نساء الجنّة التي توفيت بعده بستة أشهر. وأشدّ ما أثر في والدي حرمان البنتين من أمّهما وهما في أمسّ الحاجة إلى حضنها ورعايتها. وقد ذاق والدي بدوره مرارة اليُتْم حيث توفيت والدته وهو رضيع ، وكان كثيرًا ما يروي لنا قصصا عن تلك المشاعر القاسية التي تولد مع اليتيم و التّي زرعت فيه رِقّة الإحساس والدمعة الدافئة النائمة في مقلتيه والتي تستيقظ مع دقّات أجراس الرّحيل وتجدّد الأحزان. وهذه المرّة انفجر بركان قلبي حزنًا وأنّت الأرض وشهقت الجبال مع سقوط ورقة والدي الأخيرة ، التّي صاحَبها أحوال شداد حيث لم أستطع أن أُهرع إلى والدي عندما علمت بأن المرض استبدّ به. فعندما شاءت شقيقتي أن تبلغني بمدى الحاجة أليَّ في العائلة لكي أكون بجانب والدي في ظروف تعبه الأخير، كانت المفاجأة بأنّي

في أمسّ الحاجـة إليها لتكون بجانبي وسـقط القناع الذي لبسـته على مدى أكثر من شـهرين لأخفِي عنها شِـدّتي. لم تنتظر شـقيقتي دُرّة بـل وجدتها أمامي بعد عدة سـاعات، لتثبت أنها الأمّ والأخت والصـديقة، ورافقتني إلى المستشـفى وكرّسـت جهدهـا لرعايتي ومواسـاتي وهدهـدة أوجاعـي، وأخفـت حزنهـا وداوت جراحها بالصّـمت. والمفاجأة السّـعيدة وسـط هذا الغمّ أنّي اكتشـفت فيها الصّـلابة والجدعنـة والاحتواء وكأنها شـجرة باسـقة أحتمي في ظلالها من قيظ الحر ولفحة الشـمس وقسوة الوجع . وربما بحكم أني الكـبرى لم أبحث عن تلك الصـفات فيها من قبل ولكني فوجئت بعطائهـا اللامحـدود؛ لدرجـة أنها نسـيت ملـف الترقيـة العلمية الخاص بها ورسـائل الماجسـتير وأبحاث الترقيات التي تشـرف عليها، وانقطعت إلى خدمتي والجلوس على كرسي لساعات طويلة بجانبي بينما أنا منتفضـة فزعة تحت وطأة آثار العلاج الكيماوي وهجرة العقل والروح إلى حيث يرقد والدي.

كأني أراك في كل شيء..

كأنك في الأرض كل البشر

حملتني بين أشرعة أحضانك

وسبحت في دمع البحور

وسقيت نبع الوفاء فأزهرت المروج

بأجمل ما في الدُّر والياقوت والذهب

مـرّت الأيّام الموالية للجرعـة بطعم مختلف هذه المـرّة. فقد أطفأ وجود شقيقتي إلى جانبي حرقة الأوجاع، وأخذت تهوّن العذابات وتترفّق بالشـكوى في تحنـان مؤنس. لكن عادت درّة مسـرعة إلى تونس لأنّ الوالـد والعائلـة بحاجـة إليها وسـط لعنة المسـافات وحسرة الفراق.

واشتدّت عليّ آلام العضـلات والمفاصل، واستمرّ الصّداع الحادّ والطّنين في الأذنين والتصـلّب في الرقبة. ولم تعد المسـكّنات تكفي لإخماد نار الأوجاع.

عدد من الأطباء أصـدقاء زوجي استنجدنا بهم ليشرحوا الحالة بحثًا عـن طمأنة لأسـئلة الحيرة فأوضـحوا أن فقر الـدم ونقص الصـفائح مسـئولان بشـكل رئيس عن مظاهر الإعياء الـذي أعاني منـه، فالعـلاج الكيماوي يقلّـل من قدرة نخـاع العظم علـى إنتاج العدد اللازم من كُرَيات الدم الحمراء والتي تقوم بنقل الأوكسجين إلى جميع أنحاء الجسـم. عندما يقلّ عدد تلك الكريات، لا تحصـل أنسـجة الجسم على الأوكسـجين الكافي لأداء عملها. كما أن نقص الصفائح يعود إلى تأثير العلاج الكيماوي على نخاع العظم. وفهمت

آنذاك أن فقر الدم ونقص الصـفائح السـبب في الطفح الجلدي على شكل بثور دموية تحت الجلد، واللون الأحمر أو أحيانًا الوردي في البول، والنزف في اللثة والأنف والتقيّح في بعض المناطق وخاصة الوجه والصدر.

ووصـف الدكتور وسـام علاجًـا لرفع عـدد الصُّـفَيْحات الدموية بالتليفون أمام عدم قدرتي على انتزاع نفسي من السرير والانتقال إلى العيادة لإجراء الكشـف محذرًا من خطر تواصل الحالة ، لأنه سـيقود إلـى نقـل دم ، وظل يعاود الاتصـال خـلال الأيـام التالية للاستفسار حول تطور الحالة ، موصيًا بعدم التعرض لأي أذى أو جرح ، وإبلاغه على الفور إذا ما ظهر نزف في أي مكان بالجسـم أو كدمات أو رضوض في الجسم أو نقط حمراء صغيرة تحت الجلد ، كما أوصى أيضًا بتجنب الإختلاط بأشخاص مصابين بالزكام أو أمراض أخرى مُعدية نظرًا لأن عدد كريات الدم البيضاء المسؤولة عـن منـع بعض أنـواع العدوى يتعرضـ للنقص الشـديد. وأملَى دواءًا لرفع عدد كريات الدم البيضاء، منبّهًا إلى أنه قد يضطرُّ إلى إيقاف العلاج حتى تعود الكريات البيضاء إلى معدّلها الطبيعي.

ومـرّت الأيّـام ثقيلـة وغـاب الأمـل في عـوالم بعيـدة ونسـيتني البهجـة. توتر كل من حولي مسـتعجلين التحسّـن مع العلاج حتى

بدأت بعض الأعراض تنقشع ببطء شديد. هدأت الرجفة والبرد في الأطراف جرّاء الحُمّى وانطفأت لسعات الاحمرار حول البورت كيس والجروح المحيطة بالاستئصال، لكن في المقابل استمرّ هجوم أعراض أخرى كالصّداع الذي يعضني، وفورات التعرّق والزغللة في العين والإسهال والتهابات الفم واللّثة والحلق وحالة الإعياء وفقر الدم...كلها تُهْبط عزيمتي وتفترس أمنياتي.

وحلّ موعد الجرعة الجديدة دون أن تخفّ تماما لسعات اللّهب، وزادها اتّقادا قلبي المحزون بالأخبار القادمة من صفاقس. فلم تكن قد مرت سوى أيام معدودات على تلك الجرعة عندما أبلغتني درة أن والدنا تتراجع صحته بشدة ويلازم المستشفى وإن والدينا دائمًا السؤال عني، وهما غير مصدقين هذا الغياب الذي لم يقطعه حتى الإستدعاء لرؤية الوالد. غير أني كنت في قمة العجز ولا أملك إلا الحلم بأن تصير ساقاي جناحين تطيران بي وتحملاني إلى تونس. كان يحدوني الأمل بقرب التحسّن حتى لا يُصدم الوالدان من رؤيتي على هذه الهيئة، فأطفئ ظمأ الشوق في صدرهما وأغسل مرارة الغربة في مأجلهم العذب . لكن استمرّت حالة الإرهاق العام ونوبات الغثيان والتقيؤ رغم الأدوية التي أتناولها ثلاث مرات في اليوم لعلاج تلك الأعراض، والتي فسّرها الدكتور وسام بأنها من الآثار الجانبية التي يشتكي منها مرضى السرطان عمومًا مع

تكـرار الجرعات وتحدث نتيجة تراكم عـدة عوامل، مثل انخفاض عدد الكريات في الدم والألم والضغط النفسي. وقد أسدى المجربون بنصيحة بعد يأس من زوال الأعراض بالسرعة المرجُوّة، فقالوا:

- إذا استـمرَ الغثيـان حـاولي تشـتيت انتباهك عند سـيطرة هذا الشـعور بالحديـث مـع الأقرباء أو مشـاهدة التلفزيـون وتجنّبي التلـوّث في الروائـح التـي قد تزعجك مثـل رائحة الطبـخ أو دخان السجائر أو السيّارات.

وهكذا بقيت مُغتمَّة يائسـة من تحقيق الأمنية بالسفر إلى والدي المريضـ وبقيـت أنتظرحتى يأتي موعـد الفحصـ والتحليل لعدد خلايـا الدمّ. ولكن القدر لم يمهلني. اتّصـلت بي شـقيقتي درّة ولن أنسى تلك اللحظة، عندما أخبرتني قائلة:

- بابـا مريضـ.. متتفجعشـ مريضـ موشـ برشـة.. شـوية.. متتفجعش .. لو تنجم تجيء يا ريت!

لكن تكرار عبارة متتفجعش تؤكد أن هناك ما يُفْجع فعلاً وحالتها المرتبكة تكشف عن أكثر من ذلك. فقلت لها على الفور:

-بابا جرَى له حاجه؟!

ردت في يأس:

-هل علمتِ؟!

قلت:

- احكي كل شيء متخبِّيش عليَّ!

إختنقت بالبكاء وهي ترد:

- آكهو...آكهو!!

انهرت.. بكيت بُحْرقة وتوسلت إليها بألَّا يُدفن حتى أحضر:

- بالله إستناوني.. يِعيّشِك يا درة.. إستناوني!

استمرت نوبات البكاء كالعاصفة التي تقتلعني من جذوري، هدأتني شقيقتي ووعدتني بأنها ستقنع الجميع بانتظاري!

لم يكن مرض بابا إلا احتضارًا ورفضه النفسي للغسيل الكلوي جعل المقاومة صعبة وعجَّل بوفاته.

أخذت أدور حول نفسي. كان البكاء قد سبق الخبر، انتابتني حالة اختناق ما لبثت أن فجرت بركان البكاء قبل أذان المغرب، واخترقت خلجاته المسافات لتصلني أنفاسه المتقطعة في لحظات الاحتضار. تهاطلت الدموع عندما صلّيت المغرب جماعة مع أسرتي وكرّرت الدّعاء وراء زوجي. دعوت لوالدي بالشّفاء وبأن يختار الله له الأفضل. وشعرت أن الأسير قارب أن يهجر سجنه.

والتفَّت الأسـرة حول إفطار رمضـان وهي متوجسـة من صفعات الدهر وغدر الأقدار.

وبمجـرّد أن وقـع الخـبر المفجـع، التف الأصـدقاء حـولي في لمح البصـر ولا أدري كيف اسـتطاعوا أن يحضـروا بتلك السـرعة من كل حدب وصـوب: حامد وإبتسـام ومحمود، فتحي وثورة ورنيم صفاء ومحمود، منة وتيتا، هالة، إضافة إلى الاتصالات التليفونية التي لا تتوقف من سالي وشهير، ومرفت، ويوسف وشيماء، وأحمد وهبـة، أمنيـة وإسـماعيل ،وأحمد جمعة ونهى محمـد .. وزملائي لميس الحديـدي وهشـام أبو الوفـا وحمدي البصـير وسـيد عبد الحفيـظ ومحمد عجيزة وعبـد الفتاح فايد وطاهـر يونس ومحمد الشـيخ وأحمد إبراهيم وغيرهم.. تفجّـرت العذابات وألهب البكاء الحـاّر الأنـف والفـم ثـم توقفـت في لحظة الدمـوع في مُقلتـيَّ، لكن حُرْقتي لم تخفّ بل بالعكس أخذت تكبر صدمة النهايات ويجرفني صـمت الألم فتشتعل أحشائي كعاصـفة لهب. أقسى حالات الألم عندما يصبح بلا دموع!.

استحضـرت حكمة الابتلاء التي طالما تقنعني بها الدكتورة هدى زكريا، وهمسـت لنفسـي ربما رأفة بها وربما رأفة بـه ، بأن المَنِيَّة سارعته رحمة به من صدمة رؤيتي في هذه الحالة ! ، وأخذت أردد هذه الكلمات فاستشعرت بعض السَّكينة.

لم يتمالك والدي نفسه خلال آخر زيارة لي إلى تونس. كان الوطن في وضع المخاض الذي يسبق الولادات. تزامنت الزيارة مع قدوم فريق عمل برنامج تسعين دقيقة لقناة المحور بقيادة المذيع المعروف الصديق معتز الدمرداش، ولم أستطع أن أرفض طلب المساعدة في تصوير حلقتين من تونس. فقطعت إجازتي إلى جانب والدي المتوعك في صفاقس وذهبت إلى العاصمة لأقابل معتز والمعدين محمد صلاح الزهار وسامي عبد الراضي وتقديم يد العون فهم جميعًا أصدقاء أجلاّء، وعدت إلى والدي فورًا بعد انتهاء التصوير واعتذرت له على غياب يومين عنه.. لكنه أصرّ على ضرورة أن أعود إلى مصر حتى أقضي إجازة العيد مع الأولاد الذين غبت عنهما بعض الوقت قضيت أغلبه بجانبه.

كان عيد الأضحى على الأبواب. فاستجبت لرغبته ، وبعد أن ودّعني وقبلته أربع قبلات متتالية ثم قبلت رأسه وجبينه ظل يتأمّلني بينما كنت على أهبة الصعود في السيَارة، وناداني فعدت إليه ووجدته يقبلني مجددًا بشوق وشغف كبيرين ولم يفعل ذلك في أيّ مرّة سابقة وعلى امتداد ثلاثة وعشرين عامًا من السفر المستمرّ. يبدو أنه كان يودّعني الوداع الأخير، ونطق بعبارات وديعة لكنّها هزّت كياني، قائلاً:

– بالسلامة بنتي ،والسماح ..على موت على حياه!

هـي كلمات حمّالـة سـوء في اللّهجة التونسـية. إنه الشـكّ وربما اليأس من إحتمال تجدّد اللّقاء مرة أخرى!

وفعـلاً عـزّ اللّقاء وانشـغلتُ بتغطية الثورة المصـرية ثم الثورة اللّيبيـة، وكان يتابـع تلـك التغطيات بحماسـة شـاب مـن الثوار، ونتواصـل بالتليفـون الـذي يسـتر أحيانًا دمـوع القلب. ثـم بدأت مسـيرة المرض، وأقفرت الروح وعـرّج الرحيل على مُدني فحاولت أن أختطف الفرصـة لأسـافر إليه وأطمئن على صـحته التي كانت تتدهور، ولكن الأعمار بيد الله!



ما إن توقفت السـيارة أمام بـاب الجنان حتى تجمّع الناس حولي وجميـع الوجوه مألوفـة: خالي الهادي وإشـراف وخالتي سـامية ودُرة وكل أولاد إخوتي نيسـان ونـور وأمين وأمولة وأنس وهند وإلياس. غير أن الدوخة والسـخونة منعتني في الأثناء من التمييز بوضـوح بين بقية الملامح . كنت أنظر ولا أرى. فجأة وقعت عيني على شـقيقي وسـيم وزوجته سـندة وهـي نعم الأخت ،عوضـني بهـا الله خيرًا عـن رحيل أختي إكـرام. هُرعت نحوهما وضـمَمتُني إلـى ذراعيـه أولاً ثم ذراعيهـا وهي تطبطب عليَّ بحنـو وبكينا من الحياة التـي أدارت لنا ظهرها وأجدبت بعد أن كانت مانحة حُبْلَى بالوعـود. أحضـان إخوتي تفجر الوجع على وفاة والدنا وتسـقي

الشـوق الذي انتظرته طوال شـهور المرض السابقة. لم يخلّصني مـن انهياري بـين ذراعيهما سـوى والدتـي. اندفعت إلى حضـنها كطفلة حاضـنة وأنـا أُعرض بوجهي وأخفي ملامحي. حاصـرتني بعينيها وتفحّصتني ثم دخلت في نوبة بكاء غريبة.

أظنها كشـفت كل المسـتور.. تأخري عن والدي على فراش الموت رغم الاستدعاء المتكرر، وهن الصوت في الإتصال التليفوني ، التعلّل بالعمل والانشـغال لتبرير الغيـاب. لقد فهمَتْ سـر الغياب وليتها مـا عرفـت. كانت تبكي في هلع وهي تشـدّني إلى حضـنها والدّموع السّـاخنة تهـبّ كالريح تقتلـع اليقـين وتغرقها الصـدمة في بحور الحسرة على الحقيقة التي أخفيناها عنها شهورًا!

أمسـك وسـيم بيدي ودفـع باب الغرفـة، فقابلني: كان مسـجّى تحـيـط به قطع من الثلـج من كلٍّ جانب تبرد وطأة الموت وقسـوة التحجر. اقتربـت منه وقبّلتُه وتأمّلت جسـده النحيل الذي أوهنه المرضـ في آخـر أيّامه. فشـعرت به يُكلمني بحنانـه المعهود. كانت أطرافه باردة غير أنها ليسـت متيبّسـة وكأن الدماء لاتزال تجري في عروقـه، علامات السّـكينة على وجهه، عيناه مغمضـتان لكنهما ظلتا تنظران إليَّ في نصـف ابتسامة متقلّقة ترحّب بي وتتساءل عمَّا أصـابني. أسمع صـوته الخفيت يهمس لي بسلامة العودة كما كان يفعل دائمًا معي ويستفسر عن سرّ هجوم الخريف قبل الموعد .

- توحشتك برشه برشه يا آبا !

بكيت دموعًا مكتومة، وأخرستُ النحيب في أرجائي حتى لا يصدر منّي ما يعكّر خشوع من كانوا يقرءُون القرآن بجانب الجثمان، فالعويل يجلِبَ على المُتوفَّى الذنوب. تنبّهت إلى حرقة الألم من جراء الندبات التي تكورت فوق أنفي وشفتي. لقد ذرفت أنهارًا من الدموع طيلة الرحلة بالطائرة من القاهرة إلى مطار قرطاج، ثم من تونس إلى صفاقس .

أنا في المدينة يا أبي مثل السحاب..

يومًا تداعبني الحياة بسحرها..

يومًا.. يمزقني العذاب

ورأيت أحلام السنين كأنها

وَهْمٌ جحود.. أو سراب

وعرفت أن العمر حلم زائف

فغدًا يصير.. إلى التراب..(١)

جلست بجانب والدتي متدثرتين بدثار الإيمان نراقب طقوس الغسل. ثم حان الموعد فأُخرج الجثمان بعد أن لُفَ الجثمان بكفن من قماش أبيض وسُجّي على خشبة النعش وأُسدلت عليه زِرْبيَّة

مزركشة. وتعالت أصوات التكبير: الله أكبر، الله أكبر. سار شقيقي وسيم، أكبر أبناء العائلة، متقدما موكب تشييع الجنازة وبجواره أصهاره: زوجي طارق نجيدة ومحمد المصمودي أرمل شقيقتي ويوسف المصمودي زوج شقيقتي الصغرى درة. وامتطوا جميعا سيارة نقل الموتى حيث الجثمان مسجى. وتمت الصلاة على أبي -رحمة الله عليه- في مسجد سيدي اللخمي مباشرة بعد صلاة ظهر يوم الخميس الموافق السادس والعشرين من شهر رمضان، وقد شعر كل أفراد الأسرة براحة وطمأنينة عندما ردَد بعض المعزين إن والدي سيدخل الجنّة إن شاء الله حيث روى أبو هريرة عن رسول الله «إن أول شهر رمضان رحمةٌ، وأوسطه مغفرةٌ، وآخره عتق من النَار». هكذا طمأنني الرجل الطيّب صهرنا وصديق بابا الحاج محمد المصمودي وهو يمد يده إليَّ ليعزيني!

ودُفِنَ والدي بين بساتين اللَّوز الشهيرة كما يدفن أهل صفاقس موتاهم تحت ظلال الأشجار، وُورِيَ الثَّرَى بلا بهرجٍ أو فخامة

فلا شيء سوى التراب، بلا ضريح ولا رخام أو مرمر. ولا أظنُّه إلا نائما هانئا فهذه هي نفس أجواء الطبيعة التي عاش والدي عاشقا لها فكانت المتنفَّس والعلاج، تحتضنه في لحظات الضيق وتروِّحُ عنه في أوقات المرض ويستمتع بها مع أبنائه وأحفاده في لحظات التجمُّع العائلي واللَّمَّة.

أمـا عـن حالتي فقد ودعـت حديقتي وشـجراتي للأبد فلا ظلال لي بعد اليوم. الغُصّة في حلقي موجعة تذبحُ الأحبال الصّوتية والفَقْد يكـوي القلـب. قادتنـي قدمـاي وراء الموكـب الذي يحمـل النعش عندهـا لاحظـت خالتي رجاء ضـياعي فلم تردَّني بل أمسـكت بيدي وحرصـت على تغطية رأسي خوفا من شمس أغسطس التي بقرت بطن السـماء فتفجّرت ألسـنة اللّهب، وسـارت معي في هدوء وراء النعش إلى أن انطلقت السيارة به.

انفتحـت مواسـم الرحيل وتوقفت القصـص، فالموتـى لا يروون القصص!

لمـاذا تأتي المصـيبة فجـأة ، ولمـاذا تكفُّ أيـام العمر عـن البوح وتوصـد شـبابيك الحلم، وهل مازال هناك مايحتاجني للاستيقاظ من أجله؟

رفعتُ يدي ألقي بالتحية الأخيرة، وتمتمت بهمسـات الوداع ولم أدْرِ ماذا أقول بعدها، سوى إني شعرت بخالتي تنتشلني من ضعفي وتسـندني في طريق العودة إلى المنزل تحاول احتضاني والتخفيف عنـي وهي شـديدة التكـدر، وعبرت عـن أمنيات بالشـفاء القريب مبديـة أملا كبـيرا في ذلك ونصـحتني بحرص كبير على ضـرورة أن أستسـلم إلى الراحة بعد هذه المشـقة. كانت قدماي تتلوّيان في

تجاعيد الأرض وحمرة الشمس تهزم بعض نسايم الهوى التي وجدت طريقها إليَّ فأتوعَّك. يشتدّ الالتهاب في أنفي وفمي. نشطت إصابات فيروسية في الجلد المحيط بهما صاحبها صداع يُفجر الرّأس، والحكّة والاحتراق تأكلني وكأنما النّار تشتعل في كامل الجلد، مع ذلك لم أدخل في رواق الاسترخاء بل ظللت أبحث عن وسيلة وصحبة للانتقال إلى الجبانة. كنت أعلم أن عادات العائلة ترفض ذهاب النساء إلى المقابر، لكن لديَّ اندفاع لامحدود لحضور طقوس دفن والدي. فهذه المرة الأولى التي يتراجع الخوف من الموت ومن المدافن، أمام ذلك الاستئناس بجثمان أعز مخلوق لديّ.

لكن بحزم أصدرت أختي درة بسرعة أوامرها بالتراجع عن التوجه إلى الجبانة، مشددة :

- أنا خائفة على سلامتك من الهُجوم الشرس للهربس أمام تراجع مناعتك، خلّيني أنا أتجه إلى هناك.

إنطلقت درة بدوني، بينما أسلمتُ نفسي إلى السرير وكلما أغرى النعاس أجفاني أيقظ الأسى ألمي وحلَّقتُ في سقف الغرفة الذي أخذ يلتف حول رأسي بسرعة ملأتني غثيانًا ودارت عجلة الزمن إلى الوراء وتقلّبت الذكريات.

استجمعت الكثير من القصص الجميلة مع والدي لأستقوي بها على حزني ومواجعي.

كان والـدي -رحمـه الله- شخصـية كاريزماتيـة يتحلـق حوله أصدقاؤه وأحبته ليستمعوا إلى قصص بديعة، فهو حَكّاء يجيد حبك الرواية وجرابه دائما مليئة بتلك القصـص الهادفة. وأتذكر نوادر عديدة كان يرويها عن أصدقائه من اليهود وهم جيرانه من التجّار في سـوق اللفّة بتونس العاصـمة خلال الخمسينيات والستّينيات. كما روى قصة حدثت مع أحدهم خلال الحرب العالمية الثانية حيث كان والـدي يمتطي القطار مع والده بابا حمودة عائدين من تونس العاصـمة إلى صـفاقس عندمـا تم إعتراض القطار وصـعد جنود قوات المحور للبحث عن يهود، وأُصيب جاره اليهودي بالهلع أمام اقتراب مقصلة جنود هتلر من رأسه، ونظر والدي إليه فوجد البول ينسـاب من سرواله ويسـقط تحت رجليه، والتقط والدي بسرعة بديهـة «كبّوس» والده الأحمر القاني ووضـعه على رأس اليهودي المنتفض من الخوف، كما وضـع البرنس الصـوفي الأبيض على أكتـاف اليهودي، فمر الجنـود دون أن يشـكّوا في الرجل، حيث إن الكبوس الأحمر والبرنس لباس تقليدي جميل يلبسـهما المسلمون عادة. ولم يصـدق اليهودي ما فعله والـدي معه من إنقاذ لحياته. عاشـ اليهود طويلا كمواطنين توانسـة وليسـوا كأقليـة ، وعملوا في كل المجـالات وحازوا على التقدير وعلى أرفع المناصـب والمهن بفضـل تميزهم علميا وفنيا وحرفيا وهـو تميز الأقليات التي تثبت إنها في مستوى التحدي. كان جرّاح العائلة يهوديا وطبيب التوليد

لأمّــي يهوديًــا أيضًــا وخيّاطــة والدتي يهوديــة والفنانــات اللائي يحيين الأفراح يهوديات.. ولكن الأوضــاع لم تَسِرْ على نحو واحد واختلفت خاصة في الستينيات وبعد حرب ٦٧، حيث هاجر أغلبهم من تونس متجهين إلى فرنســا ومن ثَم إلى إســرائيل، خاصــة بعد قيام مظاهرات ضــدهم، وأُحرقت بعض محالِّهم. ويعترف والدي بأنهم «كلاو الخبط على رؤوسهم وهو ما جعل أكثرهم يقطّعوا من البلاد، وكان التونســي المكرز لما يعرضــه يهودي في الطريق، يقول له: هات ســطاكة بوك وجدك، ويستجيب اليهودي صاغرًا ويطبس رأسه، ويعطي قفاه لتلقي الضرب ....».

لكــن العديد من اليهود أخذوا حقوقهم بطريقتهم بعد ذلك. يروي والــدي كيف أخبره جاره التاجر اليهــودي عن رغبته في بيع محله على وجه الســرعة، وقبل والدي عرض الشراء فالدكان متميز من ناحية المســاحة والموقع والبائع صديق في ورطة يحتاج المال على عجــل، وأحضــر له والدي المــال المتّفق عليه وكتبوا عقــدا ابتدائيا لحين الذهاب في الغد لتســجيل عمليــة البيع. وانتظر والدي البائع من الغد لكنه لم يأتِ أبدا، وفتش والدي عنه لدرجة أنه بحث عنه في أرجاء فرنســا، دون جدوى وترك أسوأ إحباط لدى والدي الذي عاش شــبابه يدافع عن حق اليهود في المعاملة الكريمة والمســاواة مثلهم مثل بقية المواطنين المســلمين، كما كان حريصا عند اختلاط

الأوراق في الحروب التي خاضتها مصر ضد إسرائيل على التفريق بين اليهودي والصهيوني ، ولكن التصرف من جاره اليهودي شكل خيبة أمل. لكن الموقف لم يؤثّر على قناعة والدي تجاه أحقيّة اليهود في العيش في بلدهم تونس. وكان يضرب المثل على وطنيّة اليهود بالمحامي جورج عدّة وهو من قدامى المناضلين اليساريين التوانسة، بل إنه من مناصري الشّعوب الثائرة حيث وقف مع القضيّة الفلسطينيّة. ويُشبه «عدّة» شخصية يوسف درويش اليهودي المصري وزوجته اليهودية الإسكندرانية من أصل مغربي، والذي أسس أول تنظيم شيوعي في مصر. غير أن المواقف السلبيّة التي أصبح والدي يتذكّرها ويرويها عن اليهود بعد ذلك تعكس أنّهم يتصرّفون بقلق الأقليّة ويسعون للفوز بأكبر قدر من الصّفقات والأموال حتى لو بالغشّ، ولم يَسْلموا في المقابل من تمييز ضدّهم.

هكذا فإن والدي في جوهره مثقّف عصاميّ مُلمّ بمعلومات لا حصر لها؛ نتيجة علاقاته الواسعة وخبرته بخبايا النفوس وقراءاته واستماعه الدائم إلى الإذاعات خاصة إذاعة لندن وصوت العرب وتربّى بدوره على قراءة جرائد مصريّة قديمة، مثل البلاغ والمقتطف والرسالة والهلال المصرى والأهرام والمقطّم التي كانت تصل إلى جدّه محمّد ووالده حمودة بشكل دوري،

إضـافة إلى أنه يعشق مطالعة الكتب السياسيّة والأدبيّة والفنيّة، كمـا تعلّمنا منـه ألا تفوتنا حفـلات أم كلثوم في أيـام الخميس من بداية كل شـهر. ولا أدري كيف كانـت الأغنية تُحفظ خلال الحفل ويغنّيها النّاس بمجرد إسدال ستارة المسرح وإعلان إذاعة صوت العـرب عـن انتهاء الحفـل . كان والدي عاشـقا للثّقافة المصـرية، يدافـع باسـتماتة عـن القوميّـة العربيّـة وعـن الزّعيم جمـال عبد الناصـرلدرجة من التعصّب لم أعهدها فيه. ويبدو أن عبد الناصر كان الشخصـيّة التـي تحـوز علـى إجمـاع مشـترك بـين عـدد من أبنـاء جيله وأجيـال تالية. وقد روى والدي قصّــة تعكس عشـقه للزعيـم وذلك عندما زار عبد الناصـر لأول مرة تونس وفي إشـارة مليئـة بالمعاني الكبيرة وكان ذلك بمناسـبة الاحتفـال بجلاء قوات الاسـتعمار الفرنسي عن الأراضي التونسيّة، وحط ّعبد الناصر في ميناء بنزرت ، وكان عشرات الآلاف من المواطنين في انتظاره ، فقد حشدوا أنفسـهم من كل الولايات واستقلّوا سيارات نقل مكشوفة، وسـاروا مئات الكيلومترات حتى وصلوا إلى ميناء بنزرت، وكان المطر ينهمر بقوة وكأنّه سـتارة بيضـاء ، ولكن لم يمنعهم ذلك من الحضـور لتحيّة الزعيم، الذي سـاعد حركة التحـرر في تونس، بل في كل بلـدان الشـمال الإفريقـي، وظلّت تلك الذكريـات عن الزّيارة التاريخيّة يتناقلها ذلك الجيل بفخر شديد . وعندما أعود بذاكرتي إلى الطفولة في مسـقط رأسـي مدينة صـفاقس بالجنوب الشرقيّ

التونسيّ أستحضر لقطات حفرت في مخيلتي: مشهد والدي وهو يستمع إلى إذاعة صوت العرب، ويجهش بالبكاء بصوت مخنوق وحزن طاغٍ، وسألته في براءة : «جدي مات؟» فردّ في كلمة لا أنساها: «بونًا مات!».

وفي نفس ذلك اليوم، أُقيمت سرادقات العزاء في كل مكان من مدن وقرى تونس، وعلى بعد آلاف الكيلومترات من مكان وفاة الزعيم، وبشكل غير مسبوق كما خيمت على منزلنا أجواء الحزن وتوافد أصدقاء وأقارب، وأخذوا يتبادلون عبارات التعازي والمواساة والدموع تملأ أعينهم. ولا أدعي أني أدركت حقيقة قيمة عبد الناصر من خلال هذه الحكايات وتلك الذكريات فقط، فلست من جيل الثورة، بل من جيل طالما شككوه فيها، وتفتّحت عيناي على أجواء النكسة وتداعياتها الكارثيّة، ولكني بدأت ألمس بوضوح رمزيّة عبد الناصر وما حقّقه لبلده بل ولبلدان أخرى كثيرة كلّما سافرت في جولات عمل خارج مصر، فرغم مضيّ أكثر من نصف قرن علي ثورة يوليو، وأكثر من أربعة عقود على رحيل عبدالناصر، فإنّ الثورة وناصر مازالا حاضرين بقوة.

وكنت في زيارة إلى أوغندا وبمجرد أن نطقت كلمات بالعربيّة، انفرجت أسارير مرافقي، وأخذ يصرخ «ناصر، ناصر»، رغم أنه لا يعرف أني من مصر،لكنّ «ناصر» وحّد بين لغتي العربيّة،

ولغته السواحلية ، وأصبح في لحظة أداة التواصل بيني وبينه وفاجأني عندما أخذني إلى مكان بالقرب من منبع بحيرة فكتوريا، لأجد تمثالاً حجريًا صغيرًا لجمال عبد الناصر، وإكتشفتُ إنّ ذلك الشابّ الأوغندي يحمل لهذا الزعيم تقديرًا كبيرًا، وفي حماسة شديدة دافع عن مكاسب مصر وإفريقيا من ثورة يوليو، وهي نفس المكاسب التي نستند في الهجوم على الثورة وانتقاد رجالها. وعندما كنت في زيارة إلى بكين، حرصت على القيام بجولة في المنطقة التي تسكنها غالبيّة مسلمة في العاصمة الصينيّة بيجين وقادتني قدماي في قلب الحيّ القديم إلى مسجد عتيق ، وتجمهر حولي أناس كثيرون بمجرد أن قلت: «أنا من تونس وأقطن في مصر!» وكأنني من صحابة الرسول أو من آل البيت، وطلبوا مني أن أتلو آيات من القرآن ،وعندما استجبت لمعت عيونهم وامتلأت إعجابًا لدرجة أن أخافتني مشاعر التقديس البادية على الوجوه. وبادر إمام المسجد إلى جلب كتب قديمة من مكتبة ملحقة بالمسجد ، منها مصاحف للقرآن الكريم، وبعض كتب التفسير،ودواوين شعر، وروايات، كلها كُتب على صفحتها الأولى هدية من مصر، وإمضاء الرئيس جمال عبد الناصر.

وقد خضت حواراً شائقًا حول رمزيّة عبد الناصر مع ابنتي سمر بمناسبة رحلتها الدراسيّة إلى جامعة لويزيانا الأمريكية، حيث

انتابتنـي نوبـة مـن النصـائح المحفوظـة والممجوجـة والمنفرة، مدفوعة بمشـاعر الأمومـة ،مع ربكة الموقف غير المسـبوق، حيث تحوّلت إلى إنسـان أقـل من عاديّ، هربت منّـي الحنكة والخبرة، وكياسة الثقافة والتعليم ، وحضرت فقط على لساني عبارات يمكن أن تقولهـا جدّتـي أو أُمّـي، أو أي أمّ، حاولـت أن أغلفهـا بخفّة دم وذكاء مصطنعين.. قلت:

- إياكِ من الارتباط بأمريكي أو أن تأخذكِ الحماسة فتظنّين أنك من أحفاد الفتح الإسلامي الجدد في تلك الجامعة الأمريكيّة النائية. لابـد أن تضـعي هدفـك نُصْـب عينيـك: التعليم..التعليـم وفقط! ردّت سمر وهي تجاريني في ادّعاء الذكاء«المفقوس»:

- سـوف آخـذ معي بوسـترًا كبـيرًا لعبـد النـاصـر، وأعلّقه على حائط غرفتي وأضـع صـورة ناصـرعلى تليفون الموبايل، ليذكّرني علـى الـدوام انتمائي للوطن والعروبة. لقد اكتشـفت سـمر طوال سـنوات تعليمها الماضية، واحتكاكها بالعديد من أساتذة الجامعة الأمريكيـة، مكانة عبد النّاصـر، وتجربة ثـورة ٢٣ يوليو في الفكر الأكاديمـيّ والسياسـيّ الغربيّ.. وتلك الأهميّة التـي يولونها لهذه الحقبـة في التجربة المصـريّة ، لا تعنـي بالضـرورة التعاطف،أو الحـبّ، ولكنّها بالأحـرى احترامًـا، أحيانًا مصـدره معرفة العدوّ نتيجة قيمة تلك التجربة، وتميّزها. وخلال زيارة إلى ألمانيا في مطلع

التسـعينيات تعرفـت إلى عـالم ألمانيّ، كان كثير التردّد على مصـر في السـتينيات، وشـارك في التحضير للمشـروع النووي المصري، الـذي دُفن بعـد ذلك، وحكى الرجـل كيف أن المخابـرات الأمريكيّة كانت تحاول الإيقاع بعبد الناصر، ودراسة كلّ تصرفاته وأهوائه بحثـاً عن نقط ضـعفه، وكتبت في تقاريرها بعـد يأس، إنها لم تجد في ذلك الزعيم الوطني، ما يمكن اسـتخدامه، فعبد الناصر، لم تكن له مغامرات نسـائيّة كما أنه لا يحبّ المال، ومُستعصٍ على الرِّشْوة والفسـاد، وسـلوكه متقشّـف، ولا يميـل إلـى الرفاهيّة، ويقضـي إجازاتـه مع عائلته، ولا يسـافر في عطلات خارجيّـة. لذلك كلّه فقد يئسـوا منه وقـرّروا أن يكتبوا أنـه وطنيّ، نظيف اليد والسّـيرة، وليسـت لديه نقاط ضـعف لاسـتخدامها أو لابتزازه بها. وبكلمات قليلة ، لخّص لي ذلك العالم الألماني حكمة سنوات العمر قائلا: عندما يكـون لك أب شـرعيّ، فأنـت لا تحتاج للبحث عن أب غير شـرعيّ، ولابدّ أن تكون فخورًا به، لأنّه بذلك فقط تستطيع أن تتفوّق عليه!. تلك هي رمزيّة عبد الناصر التي جعلت ابنتي سمر، تقرّر أن تختاره ليكـون أمامها هديًا لمشـوارها العلمـيّ القادم، وهي نفس الرمزيّة التي كتبت له الخلود لدى شـعوب في أقصى الشرق والغرب، دون أن تكـون لهم مصـلحة آنيّة معه ، غير اقتناعهم بصـدقه الوطني، ونظافة ذمته. ولا عجب بعد ذلك أن الزّعماء الحقيقيّين لا يموتون أبدًا، مهما كانت أخطاء تجاربهم فادحة .

وبالمثل، فإن الأب الرحيم العطوف بأبنائه الذي يجزل العطاء لأسرته ولمحيطه دون حساب و يمنحهم الحب والثقة لا يموت أبدا، وسأردّد كلمات رثاء لوالدي كتبتها شقيقتي درة على صفحة التواصل الاجتماعي فيس بوك:

وقفت الكرة الأرضيّة عن الدوران

رغم أن الزمان لم يتوقف

هل هو كسل فيها ؟

كانت تردّد

كيف تطلبون منّي المستحيل

أيُعقَل أن أدور دون أحبّتي ؟



بين ثورتين

هذا مصيرُ الحاكمِ الكذابِ
موتٌ.. أو سقوطٌ.. أو ضياعْ

- أبو الغيط : مصر موش تونس!

- أبو الغيط : انتقال أحداث تونس إلى مصر كلام فارغ!

- القذّافي :ليبيا ليست تونس ومصر ! ...

- علي عبدالله صالح : اليمن ليست مصر وتونس!

-المعلّم : السّيناريو الليبيّ لن يتكرّر في سوريا!

ملائكة الثورة ترفرف على السماوات العربية. كانت الثورة في تونس محتدمة في أول أيّام تشرق الشّمس عليها بدون الرئيس بِنْ عليّ الذي هرب إلى السعوديّة، لترتجف أرجل الحكّام العرب خوفا من نجاح السّيناريو الذي ظلّوا ينكرون حدوثه. وفي تلك الأجواء إنعقدت القمّة الاقتصاديّة الثانية في شرم الشّيخ . كثير من الوزراء والمسئولين العرب الذين تربطني بهم صداقة بحكم تغطيتي للمؤتمرات التي تستضيفها الجامعة العربية حيث يمثلون بها وفود بلدانهم يتفادون الحوار معي، ويبتعدون عن الخوض في الوضع التونسي. وانعكس ذلك الموقف على كواليس الجامعة. وعندما استنكرت في المؤتمر الصحفي خلوّ البيان الختامي للقمة من أي إشارة تتعلّق بالثورة التونسية التي قادتها الجماهير السلمية

وانتصـرت بإرادتها وبدون أن تمتطي دبّابة فرنسية أو أمريكية أو من أي جنسـية أخرى، ردّ أبو الغيط بأن القمة جوهرها اقتصادي وأن القمـة القادمـة في مارس سـوف تنظر في الأمـر. كانت ثقته في نفســه وفي نظامه كبـيرة تلامس الأوهام بينمـا يراهن غروره على بقاء النظام إلى شـهر مارس. أما النظام فكان يترنّح فيزداد عناده وغروره. اتّصلتُ بعدد كبير من وزراء الخارجيّة العرب وتحدثّت مع مسـئولين وسفراء لتسـجيل تقرير للتلفزة التونسيّة عن ردود الفعل العربية تجاه الثورة، فلم أَفُزْ بتسجيل واحد. البعض اعتذر بخجل وإستحياء قائلا بالهمس «إن التوانسة رجّالة !» بينما تهرّب البعض الآخـر في تعالٍ. ولم أسـتطع أن أميّز جيدا المعسـكر الذي يقف فيه عمرو موسـى أمين عام الجامعـة العربية، وهو الذي ظلّ منذ ٢٠٠٤ يناضـل في مجالس القمم العربيّـة للإقناع بتبنّي وثائق الإصـلاح والتطوير للمؤسسـات والخطط التنموية في المجتمعات العربيّـة، فاستبشـرنا بقدرتـه علـى الإبصـار في المسـتقبل وكأنّه زرقـاء اليمامة، وعندمـا حانت اللحظة كان يبـدو مغمض العينين ويرفض الإبصار ويكفربالنبوءة ويتمنّع عن الكلام.

تكلّمي أيّتها النبيّة المقدسة

تكلمي .. باللهِ .. باللّعنةِ .. بالشيطانْ

لا تغمضي عينيكِ، فالجرذان ..

تلعق من دمي حساءَها .. ولا أردُّها !
تكلّمي ... لشدَّ ما أنا مُهان
لا اللَّيل يُخفي عورتي .. كلاّ ولا الجدران !
ولا اختبائي في الصحيفة التي أشدُّها ..
ولا احتمائي في سحائب الدّخان !

هكذا خذلتني زرقاء اليمامة كما خذلت أمل دنقل فبكى وبكيت مثله، لكن ماذا تفيد الدموع عندما تسقط مزاعم العروبة وتتكشّف النوايا ..!

استمرّت أحداث القمّة وكأنّ تونس في كوكب آخر، وكأنّ دماء الشّهداء لم تَسِلْ على أرض عربية، ولم ينقص شيء من الموائد المكدّسة بالكافيارو السيمون فيميه في سهرات الوفود الرسميّة حيث تتعالى الضّحكات والقفشات وقرع الكؤوس في الأضواء الخافتة.

فأين أخفي وجهيَ المُشَوَّها
كي لا أعكّر الصّفاء .. الأبله.. المموَّها
في أعين الرّجال والنساءْ !؟

حملتُ الحلم التونسيّ بين أحضاني وجوارحي وكأنّه رضيعي الذي وُلد رغما عن أمّه وأهله وجيرانه وكل المحيطين به. واستدعاني الأمين العام للجامعة عمرو موسى في مكتبه عندما عدنا من القمة

إلى القاهرة. لم أستشعر إنحيازًا حقيقيًا علنيًا للثّورة التونسيّة رغم مرور عدة أيّام ..لكنَ أعين «زرقاء اليمامة» بدأت تلمعُ مع اقتراب الخامس والعشرين من يناير، لحظة اندلاع شرارة الثّورة المصرية.. فأين تبخَّرتم يا أصحاب الياقات الذين ملأتم الإعلام ضجيجًا بأن مصر موش تونس، بل مصر هي تونس؟!

من تونس الخضراء شب لهيبها

فردّ صداها النيل والهرم..

ذات نهار لمحت موسى يترجل من سيارته بالقرب من شارع مجاور لميدان التحرير، أخذ بين يديه رضيعا من حضن أمه وأبيه. كانت عيناه تتألقان صحوة وانشراحا بعد أن خلع عنهما نظارة الشمس، وأخذ يبدد القلق بل الغضب المكتوم بملاعبته الصغير، وبأحاديث الثورة مع الناس الذين نزحوا من بيوتهم إلى ميدان التحرير والتف بعضهم حوله.علمت بعدها لماذا كان محتقنًا في ذلك اليوم رغم إنكشاح الظلمة بعد الحادي عشر من فبراير. استدعاه اللّواء عمر سليمان وكسر زهوه وبلّغه مع رشفات القهوة كلمة وبس: «انسَ.. !!» .

ولم أغفل بعد ذلك عن تحركات موسى وتصاعد انحيازه للثورة؛ وكأنه قرر أن يخلع رداء الدبلوماسية ويسكن الميدان دون تردد وإلى الأبد.

أمـا تونس فلـم تَغِبْ عني لحظـة واحدة، رغم انشـغالي بميدان التحرير ثم بتغطية الثورة اللّيبيّة، حتى عندما زارني ذلك الضـيف الثقيل وأكلتني الهموم واسـتغرقتني تفاصـيل العـلاج وتداعياته ظل مسـقط رأسي المضاد الحيوي الذي يعالج نزف المواجع. كنت أتابع تلك اللّقطات التي تسـعدني أكثر مما يسـتوقفني ما يتعسـني وألطـف ما لفت نظـري ذلك الإبداع الـذي يتجلّى في أزهى أشـكاله من خلال الإعلانات الداعية للتسـجيل في قوائم الناخبين وقد صمّم الشـباب التونسـي ومضـات إعلانية على طريقتهم المبتكرة، منها هذا الإعلان الذي يقول: «لأنو التونسـي ما يتفكّر التسبيح كان ليلة الرعد.. بره قيّد يهديك!».

إبداع الشباب لا يتوقف فهم الذين أبدعوا الثورة وأعطوا الإلهام لمصـر ولبقية الشـعوب العربية وللانسـانية قاطبة منذ أن أحرق نفسـه صـاحب عربة الخضـر والفاكهة محمد البوعزيزي واسمه الأصـلي طارق -في السـابع عشر من ديسـمبر، ثم اشتعال الثورة في منزل بوزيان حيث سـقط أول شـهيد برصاص قوات الأمن وهو محمد العماري، وكان يجري لإنقاذ صـديقه شوقي نصري بعد أن إخترق الرصـاص جسده لكنه سـقط قبله، وتوالت مناطق البلاد التي التحقت تباعًا بالثورة.

أتذكّر مشهد دماء الشهداء على شبكات الإنترنت، يومها قلت إن النظام سقط في هذه اللحظة ولابدّ أن يرحل رأسه.

في زياراتي إلى تونس خلال السنوات الأخيرة ،كنت في كل مرة ألمس عزوفا أكبر عن التحدث في الشأن السياسي، بينما كنت متشوقة لمعرفة ما يدور في الداخل التونسي وسط تكتم إعلامي عن أي تجاوزات من عائلتَي الرئيس وزوجته أو توجيه أي انتقادات ضد الانتهاكات السائدة. وباستثناء عدد محدود من الأصدقاء الصحفيين لم يكن أحد يجرؤ على الخوض في أحوال قصر قرطاج حتى بالهمس. موازين القوى بين ليلى الطرابلسي وعائلتها وشلّتها تحتدم مع عبد العزيز بن ضياء وعدد من الشخصيات التي تطفو أسماؤهم أحيانًا على السطح وتختفي أو تتراجع أحيانًا أخرى.

لكن مشاهداتي العامة للحياة الاجتماعية خلال تلك الزيارات لم تكن تنبئ بقرب اندلاع الثورة نظرًا لتماسك الطبقة الوسطى التونسية نسبيًا، مقارنة بمصر مثلاً التي انفرط فيها عقد هذه الطبقة وتقهقرت لتلتحق مئات الألوف من الطبقة الوسطى بطبقة الفقراء كل عام؛ حيث أصبح الفقر يوجع القلب ويحصل أكثر من عشرين مليون مصري على أقل من دولار واحد في اليوم، بينما اثنان في المائة فقط من السكان يرفلون في نعيم المليارات ويعيشون

في ترف وبذخ وعبث ويتنافسون فيما بينهم خلال إحياء حفلاتهم وأفراحهم ومناسباتهم لإظهار الثراء بتفاخر مستفز.

وإذا كانت كلمة السرّ في ثورة تونس هي العائلة الحاكمة والشلة المنتفعة، فإن كلمة السر في مصر هي بالمثل العائلة وملف التوريث والشلة الفاسدة التي عجّلت بالانتفاض ضد مبارك. وقد تولّى أحمد عز -أكبر المنتفعين- تمرير حزمة ألغام من التشريعات عبر لجنة الخطة والموازنة وفي مقدمتها قانون الضريبة على الدخل الذي ساوى بين كبار رجال الأعمال وأصحاب الشركات الكبرى الذين يربحون مئات الملايين، وبين الموظفين وأصحاب الدخول الضعيفة الذين لاتكفي دخولهم إحتياجاتهم الأساسية وهو ظلم بيّن ومحاباة فاضحة؛ لأن التشريع مفصل بالمقاس لصالح عصابة جمال مبارك من رجال الأعمال على حساب باقي فئات الشعب المهمّشة.

وإذا كان الجانب الاجتماعي والاقتصادي يتفاوت بين البلدين فإن الحياة السياسية تتشابه بين الدولتين الثائرتين؛ من حيث القبضة الأمنية التي تتدخل في جميع الملفات ووضعية حقوق الإنسان والحريات.

ولابد من الاعتراف اليوم إن السلطة هنا وهناك اغتالت العقول بالدعاية الكاذبة والتي انطلت على العديدين لبعض الوقت لكنها لايمكن أن تنطلي لكلّ الوقت.

كنـتُ أتسـاءل قبل عدة شـهور من الثـورة: هل قبـول العمل مع وسـيلة إعلام رسـمية ضـمن هذه الشـروط المسـتحيلة ضرب من الحماس الفائض، أم ضـرب من خداع النفس الـذي يزيّن إمكانية التمرّد على ماكينة الدّعاية النظاميّة ورفع سقف الحرية والاستناد على الحرفية المهنية ؟!

والحقيقـة أن الإجابـة عن هـذا السـؤال كانت تحددهـا الفزّاعة الخاصّـة بالإسلاميّين التي وجدت صداها لدى العديد من المثقفين والكتّاب والقوى المدنيّة التي ترفض إقامة الدول على أساس الفوز بالجنّة والنّار، كما إن المخاوف الخاصـة بتلازم الإسلام السيّاسي مع العمليّات الإرهابيّة على شـاكلة ما أصاب الجزائر سابقا أثّرت هـي الأخـرى على المسـافة التي إتّخذتهـا القوى السياسـيّة تجاه النظـام، خاصـة أن ضـحايا الإرهـاب في دولـة الجـوار الجزائـر مازالت ماثلة أمام التونسيّين. وزيارتي لتونس هذه المرة إختلفت، فرغـم الظـروف الاسـتثنائيّة التي تحيـط بها حيـث يخيّم الحزن علـى اللقاءات مع الناس في أجواء العـزاء، إلاَ إنّ أحاديث الثورة ومواقفهم منها والنقاشـات حول المسـتقبل والتيارات السياسـية المتصـارعة طغـت علـى المشـهد، ولاحظـت في الجـدل الدائر بين السـيدات المُعزّيات غلبة المتعاطفات مع الإسـلام السياسـي -أو الخوانجية كما يطلق عليهم التوانسة- وانقسمت صالة بيتنا إلى فريقين شـديدَي الإختلاف ومن فرط الحماس تكاد تحسـبها حلبة

مصــارعة بين فريقَي السّــيدات، لكن الجميل أن الجميع يشــتركن في حلم التغيير، والفخر باســترداد الكرامة والإباء بفضل الثورة، ووضع حد للذلّ والهوان وخلع الخوف من النفوس إلى الأبد.

وتتأكـد التوقّعـات مـع الأيـام، فريـاح الثـورات العربيـة تأتـي بالإسـلاميّين إلى الحكم. ولم تعجب نتائج الانتخابات أغلب الذين خرجوا إلى الميادين وعرَّضوا صدورهم للرصاص. فالبعض تأكد إن الثورة اختُطفت فلبست عباءة وحجابًا أو أطالت الذقون ، وقد علّق أحد الغاضبين من فوز التيّار الإسلامي بالانتخابات قائلا:

– طلعـوا في الانتخابـات خوانجيـة صـافيين ... ومعهم شـوية مؤتمروشـوية تكتل وشـوية مندسّـين من حزب المخلوع المنحلّ.. مرحبًا بهم كمشــة مندسّــين، نفرحوا بيهم ... يا مندس يا تحفون، دم الشّـهيد لا يهـون... يـا مندسّ ما أحلى سـروالك، إلبس سـبتة لا نوكلهالـك ...هيـا آش علينا في المندسّـين ... هذوكـم كي الملح في الطعام ... يحلّيو القعدة مبنِّهِم ..

عبقرية الشـعوب أنها قادرة على تحويل ما يضـايقها ويغضبها إلـى مادّة للسّـخرية مـن الحاكم. ولم يَسْـلَم من السّـخرية رئيس الجمهوريـة نفسـه وقيـادات جديـدة للحكومـة، الـذي يخطئ من يظنّ أن لهم من الشـرعية النضـالية في معارضـة الرئيس السـابق

ودخولهم السجون ما يجعلهم في مأمن من النقد. فهذا وزير داخلية الحكومة المؤقتة ،القيادي بحركة النهضة، يذهب لزيارة ثكنة بوشوشة التي كان محبوسًا بها أيام المخلوع، فيعلّق المساجين لافتة كتبوا فيها «بوشوشة ترحّب بابنها البارّ»!

أما الرئيس المؤقت الجديد المنصف المرزوقي فهناك شكاير من النكت يتداولها التوانسة لا لشيء إلا ليثبتوا أن أي رئيس بعد الثورة هو على مرمى من ألسنتهم. فقد تحول مظهر الرئيس وخاصة نظارته السميكة إلى موضوع لتعليقات مازحة. يقال إن المرزوقي لا يغضب من النقد، ولكن حتى إذا كان يتضايق فما عساه يفعل والتأدّب ما عاد يُجْدي مع الحاكم. لقد دشنت الشعوب حقبة جديدة شعارها عقاب الحاكم ضرب القفا والحذف بفردات الحذاء!

كتبت «بنت الهنشير» في صفحتها على الفيس بوك: «إن ابنتَي الرئيس المؤقت المرزوقي قالتا له بعد أن سكن القصر الجمهوري في قرطاج: «يا أبي قد أصبحت الآن رئيسًا للجمهورية ويجب أن تعتني بهندامك شوية وأن تضع ربطة العنق وتغير النظارة. فأجابهما : لقد سبق وقلت لن أضع ربطة العنق حتى يضع راشد الغنوشي ربطة عنق».

النهضـــة قلمت أظافر الرئيس مبكرًا وقلّصـــت صلاحيات المنصب من قبل أن يقنن الدستور ذلك. تغضب صفحة «صحّين كفتاجي» من الرئيس الجديد متخوّفة من زعامته التوّاقة إلى السلطة ونعيمها على عكس ما يعلن:

- رئيس الغمّ والغفلة ..الراجل طالب سلطة وناوي يطوّل فيها، والبرنوس متاع أهل الجريد اللي حاطو على أكتافو ترهدين وبلوط!

لم أكن أصدق أن يوما كهذا سيصبح في المتناول..لا أصدق أن كل مسئول ممكن أن يأخذ على قفاه.. قداش تغيرتِ يا تونس ، في أقلّ من طزّينة شهور، الكبت والصمت ينقلب إلى جرأة وتجاسر،وأحيانا قلة حياء وقباحة!

ظننـت على امتداد زياراتي خـلال العقد الأخير إن التونسـي لن يثورعلـى أوضـاعه أبدا لأنه لن يضـحّي ببعض الامتيازات التي يمنحها النظام بكرم للطبقة الوسـطى مقارنة بالدول المجاورة. كما أن النّظام أجاد تسويق الخطر القادم وهو التيّار الإسلامي في صورة البحث عن بديل لهذا النظام. ولو يغير الاعتراف شيئا من التاريخ لاعترفت بأني لم ولن أختلف عن الكثير من التونسيّين في إبداء الخوف من وصول التيّار الأصولي المتشدد لحكم البلاد،

خاصة بعد معايشتي في المرحلة الجامعيّة لتلك الحقبة من الاستقواء من طرف هذا التيّار، بعد ما قدّمت السّلطة البورقيبية تنازلات للأصوليّين لكبح جماح اليسار. وهي نفس لعبة تحريك العرائس التي تلهّى بها الرئيس السادات في نفس الحقبة.

ولكن أول مرة استمعت لناشط سياسي من خارج التيّار الإسلامي يتحدث عن ترحيبه بالنهضة إذا كانت ستقود التونسّيين إلى الانعتاق من ظلم بن علي، كانت خلال إحدى زياراتي إلى تونس قبل عدة أشهرمن الثورة، والقائل شقيقي وسيم اليساري التوجّه. يومها شعرت أن الدافع الذي قد يجعله يرحّب بخصمه الفكري هو بالتأكيد كرب شديد الوطأة. وسيم يتمتع بقناعات طموحة ومبهرة. فهو يمارس السياسة من منطلق بسيط . خدمة البلاد لا تكون بالضرورة من خلال الانتماء إلى الأحزاب والترشح للانتخابات وأخذ مقعد في البرلمان أو منصب معيّن في وزارة ، لكن يستطيع كل مواطن أن يخدم من موقعه عندما ينظّف شارعه ويحترم إشارة المرور ويقف في طابور لانتظار دوره باحترام لنفسه وللآخرين، ولما يداوي طبيب الفقراء من منطلق المسئولية الاجتماعية. يضيف وسيم بكلمات حماسيّة:

- لمّا معلّم مطيّش في دشرة بعيدة يقرّي في الأولاد الصّغارولمّا

يجمع تبرّعات باش يشري كتب وإلا كرّاسات وجبايرودبيشات للتلامذة الزواولة ، ولما يجيب سمّاعات وإلا كراسي متحركة للمعاقين..وحتى الناس اللي ترفض الرشوة وتمشي تبلغ عليها واللي يخدموا بضمير وميفكروش آخر الشهر الزوز صوردي يكفيهم وإلا لا..

تلك هي الوطنية والضمير الجمعي التي لم يكن كثيرون يتوقعون استيقاظها قبل أن يحرقَ صاحب العربة نفسه في السابع عشر من ديسمبر لتشتعل شوارع الولايات التونسية بالمظاهرات وليُخلف توقّعات المراقبين الخارجية وفي مقدمتها التوقعات الفرنسية. فالمتابع لتقارير الصحافة الفرنسية يجدها تُعمّق بإستمرارمن خطرصعود التيّار الإسلامي، فتزيد التحليلات السياسيّة في الداخل والخارج تحذيرًا من خطورة حركة النهضة وكأنها «أمنا الغولة» لدرجة أن بعض النّخبة الفرنسية اعتبرت بن علي ضديدا لبن لادن[1]. لكن بدأت الصورة تختلف عندما زاد خصوم النظام وكثرت التقاريرالحقوقيّة التي تفضح انتهاكات حقوق الإنسان وممارسات الفساد في مجال الأعمال، فتكشف كيف جعل من منزلة المرأة درعا يتحصن به ضد الانتقادات التي قد يوجهها له أصدقاؤه وحلفاؤه الغربيون. وكانوا يرددون قبل ذلك: «كيف يمكن أن يؤاخذوا رئيس دولة يطالب بوضعية متميزة للمرأة ؟»

أليس الأهم في نظرهم مقاومة ارتداء الحجاب مثلما يفعله بن علي بدلاً من ملاحقته في ما يمارســه من تعذيب وتعســف وفساد ؟!(٢). هذه الأطروحة تحمل نصف الحقيقة، لكنها ضحت بالنصف الثاني. فديمومــة الدولــة المدنيــة لا يمكن ان يكــون لها الا وجهــا العملة: الدولة المدنية ومؤسســاتها التي تُدار بشــفافية وحوكمة، وحقوق الانســان لكل مواطن كواجب ومســئولية من جانــب الدولة وليس مَنًّا أو حسنة.

وقد اتضــح بعد ذلك أن بعض النخبة وبينهم شخصيات فرنسية مرموقة استثمرت في نصف الحقيقة الأولى فقط. وخلال السنوات الأخيرة والأشــهر الســابقة للثــورة ازدادت الشــائعات والنوادر حول ليلى الطرابلســي، حتى إن القصــص تنسب إليها وإلى أفراد عائلتها كل الموبقات فيتم تحميلها مسئولية السرقات وفساد الذمة والتكويشــ والوســاطة والسمســرة ، وفي المقابــل تروج قصــص أخــرى عن بن علــي المريض والــذي لا يدري الكثــير مما يحدث في البــلاد وكنــت أعلق علــى ذلك: «ما أشــبه اليــوم بالأمــس». فهذا السيناريو بحذافيره كنا نتابعه في سنوات الثمانينيات مع بورقيبة الذي كثيرا ما كان الخيال الشعبي يبرِّئه من إنفراط عقد السّلطات من بين يديه والفشــل الذريع في إدارة شئون البلاد، ويحمّلون ذلك الإخفاق مرة لوسيلة بن عمار زوجته ومرة أخرى لسعيدة ساسي

إبنة أخته بعد طلاقه لوسيلة. وتلك لم تكن الحقيقة كاملة بل هناك فصــول ناقصــة، في مقدمتها إن المخيال الشعبي يصبّ جامَّ غضبه علـى المرأة وبعضـ الرجال تحديـدًا يقدّمون النســاء كبش فداء. ودون الادعــاء بتبرئة ليلى وأفراد عائلتها من التوحش في الفســاد فإن الأرجح تحميل بن علي من قِبلهم المسـئولية كاملة، حيث حكم ثلاثة وعشـرين عامًا وأســهم في تدهور الأوضاع في تونس وزيادة الفســاد الذي ينخر شـرايين الاقتصــاد والسـماح للفريق العائلي مـن الطرابلسـية والماطرية والمبروكيـة والشـيبوبية [٣] وغيرهم من أصهاره وأقربائه بالسـيطرة على المشاريع والتجارة وموارد البـلاد. ولأننا لا يمكن أن نمنع أنفســنا مـن المقارنة فإن مايدور في تونـس لم يكـن بعيـدًا عمًّا يدور في مصـر ومايـدور أيضًـا في ليبيا واليمن وسوريا وغالبية الدول العربية.

كانت الدّعاية التي تلمّع صـورة مبارك في آخر أيامه تروّج لكونه أصـبح مغيّبًـا ولا يـدري ما يحدث مـن حوله وأن جمـال ووالدته سـوزان همـا اللـذان يديران البـلاد، ويقرّبـان هذا المسـئول بقدر تسـهيل الصفقات للعائلة وشلّة جمال، ويعزلان ذاك المسئول على أسس ذاتيّة وإنتهازية بحتة. وكانوا أعداء أنفسهم، فهم من حوّلوا الشّـباب إلى ثوار ثم قتلوهم. والقاتل دائمًا ما يجهز لقتله دون أن يدري أنه يحفر قبره بيديه. وفئران التجارب تُصـاب هي الأخرى

بالهيـاج وتثـور. تورّطـت العائلتـان الحاكمتـان في كل من مصـر وتونس في كمّ هائل من الفسـاد وتحقيق ثـروات خياليّة من المنح والهبـات الخارجيّة والداخليّة. وبعبارة يوسـف وهبي الشـهيرة «يا للهول ..كل دي سـرقة وفسـاد؟!».. وسـوف يؤثر هذا التاريخ الأسـود بلا شـك على مسـتقبل المبـادرات الشـعبية التطوعية من أجـل جمع تبرّعات للفقراء أو لبعض الأمراض المستعصـية حتى تعود الثقة والشـفافية. فكم تبرّع التونسـيّون من خلال سفاراتهم في الخارج لصالح مشاريع خيرية تشرف عليها ليلى الطرابلسي!

لقد كنت شاهدة على ذلك لسنوات عديدة من خلال نشاط سفارة تونس بالقاهرة ولم يكن يخالج أي شخص الشك في إن تلك الأموال تذهب إلى مستحقيها غير ان الثورة عرّت المستور وشاهدنا أموالاً مكنّزة في دور سُـفلي بقصـر قرطاج وكأنها خزينة رئيس عصـابة وليس رئيس دولة، وضـاعت الكثير من أموال التونسـيّين أوعلى الأقـل لم توظّـف كلّهـا في مصـارفها الحقيقية ولا عـزاء للمعاقين وفاقدي البصـر والفقراء والمتعطلّين (٤). مرّ هذا الشـريط مسرعًا أمامـي في معرض تقـويم عـدة شـهور في عـم رالثورة التي يصـرّ المسـئولون الغربيون على تسـميتها ثورة الياسـمين، في حين أنها إنطلقـت من مناطق لا تعرف الياسـمين. فالياسـمين أزهار يقطفها أطفـال الفقـراء لبيعهـا إلـى البرجوازيـة والسـيّاح ليتفوّحوا بها

فيستفيدون من بضعة دنانير موسميّة لشراء اللّوازم المدرسية أو مساعدة العائلة على العيشة. بينما شرارات الثورة إندلعت من سليانة والقصرين وسيدي بوزيد وهي بلاد لا تعرف إلاّ الهندي والضلف[*]، وهي أرخص فاكهة لا تحتاج إلى أيّ جهد- حتى جهد الله لأنها أيضا لا تحبّ المطر- ويأكلها النّاس البسطاء «الزواولة» مضطرّين، كما تتغذّى عليها الحيوانات في تلك المناطق! أُصيب العديد من التونسيّين بخيبة أمل في سنة أولى ثورة؛ حيث قادتهم صناديق الاقتراع إلى غير رغبتهم ولم يبقَ بعدها سوى حرية التعبير والفضفضة في صفحات الجرائد، أو في مدونات أو تويتات أو ستيتوسات الفيسبوك. وازدهرت مخيلة المبدعين فابتكروا مواقع عنكبوتية طريفة للتواصل الاجتماعي، خرجت بعضها عن العادات وطيب الكلمات لتتحدث لغة القباحة والفحش. وتصبّ إحدى الصفحات جام الغضب على السلفيّين في تونس الذين ظهروا فجأة بكثافة كأنهم مياه تندفع من قنوات الصرف، فتقول:

- مشكلتهم فقط في المؤخرات والترم والمرا العريانة واللابسة وأفخاذها وبينهما والزواج بأربعة والمتعة.. يحبّونها جنة في الأرض ويريدونها جهنّم على النساء ويطمعون في الجنة فوق زادة ..الشيخ السلفي...يأكل ويشرب ويُفتي وينكح...قطعوا الفياجرا من العالم !!

وتلسع دماغ البعض معلومات متواترة عن تفشي السلفيين في عدد من جهات تونس، فتشرح صفحة « بهامتك تقلقني بربي إعتقني» كيف أن السلفيين ما فماش كان في بن قردان، شوفو سجنان، وسليمان.. حصيلو في كل بلاصة على وزن أفغانستان ..تي هي جامعة منوبة تابعة للدندان. أكثر شيء من ليبيا ..الكلهم في الزنتان..

وليس المصريّون بأسعد حال عن التوانسة، فصندوق الديمقراطية العجيب جاء بالإخوان والسلف وبعض القوى الأخرى أقلية. لم تختفِ الفوضى والتقتيل والغزوات والتثبيت والخطف بعد انتخاب مجالس التشريع. فالبلطجية الذين قيل إن أعداء الثورة هم الذين أطلقوهم أصبحوا المسرحية الميلودرامية اليومية تحت عنوان اللّهو الخفي. الفوضى وحش مارد يفرغ المصريين من طموحاتهم ليتقلصوا في هدف واحد وهو البقاء على قيد الحياة.

الهوامش:

(١) دنيس جمبار مدير مجلة الأكسبريس قال في نوفمبر ٢٠٠١ : «ما من سبيل لدينا إلا اختيار بن علي ضديدا لبن لادن»

(٢) حاكمة قرطاج – الاستيلاء على تونس لنيكولا بو وكاترين غراسياي ٢٠٠٩

(٣) الماطري ومبروك وشيبوب هم أصهار بن علي.

(٤) أسست ليلى الطرابلسي جمعية بسمة لفاقدي البصر وإنطلقت حملات تحت دعوى جمع المال لصالح ذوي الإحتياجات الخاصة والمشروعات التنموية .

(٥) معناها التين الشوكي



شـعرت لتوّي بعطش شـديد وجفاف في الحلـق بعد أن نمت نوم أهل الكهف، شـربت لأروي ظمئي وإنتبهت على تنهيدة طارق وهو يتنفس الصعداء، قائلا: الحمد لله، الحمد لله.

لم يمـر وقـت طويل علـى عودتي من تونس لأفاجأ بـأن زميلاً لي في الجريدة وجار في السـكن هو صـفوت الربيعي تُوفّي في أول أيام العيد متأثرا بالسرطان. نزل عليّ الخبر كالصاعقة وقد التقيته آخر مرة قبل إجراء عمليتي. شـرح كيف أن تأثيرات جرعات الكيماوي شـديدة الوطأة عليـه ، ربما لوكان قد توفي بمرض آخر لكان وقع الخبر قد نزل علي متلحّفا برداء الصبر والاستسلام للقدر .

لا أدري أيـة لعنـة نزلـت على الجريـدة أم هي المصـائب لا تأتي فـرادى، فلم أكن قد أفقت من صـدمة العملية الجراحيَة وأسـتعدُّ لجرعات العلاج الكيماوي حتىّ اتصـل بي هشام أبو الوفا ليخبرني بالمصـيبة التي حلّت بالزّميل العزيز عصام السِباعي حيث تعرّض لحـادث مرور مروع قضـت فيه زوجته وابنـه، وكُتبت له ولولديه النجاة بأعجوبة. عصـام هو أكثر من مجرد زميل مهنة بل جمعتنا مواقف مشـتركة كثيرة متّنت من هـذه العلاقة حتى إنه جاورني في السّكن فأصبحنا رفيقَيْ طريق من المنزل إلى الجريدة. فلا غرابة في تلك الصـداقة وما أكثر ما يجمعنا ، فنحن لا يفصـلُ بيننا في العمر

سـوى عام واحد ونشـترك في برج الميزان ولنا العديد من الخصال والعيوب المتشابهة، إضافة إلى عشقنا للصحافة وللكلمة وقناعتنا بقيمة العمل والكفاح.

كم تمنّيتُ أن أكون بجانب عصام في محنته، ولكنيّ أكتفي بالدعاء عندمـا تقسـو المسـافة وتمتـد حبالها غربـة وتيهًا. من فـرط نبله ورهافـة إحساسـه فإنّه يبادر للاتصـال بي ويبذل مـن عطر الكلام باقة لمواساتي!

ومـا إن انتهـت مرحلة علاجيّـة مهمّة حتـى بدأت مرحلـة أخرى لكن ضـربات القدر الموجعة أبت إلا أن تدمّر مجددا أسلحة الدفاع الذاتـيّ. فقد رحل أحمد شـقيق زوجي فجأة وهو في كامل صـحّته ولم يكن يشكو من مرض أو علّة. وصدق الشّاعر حين قال :

تُؤمّل في الدنيا كثيرًا ولا تدري

إذا جنَّ ليلٌ هل تعيش إلى الفجرِ

فكم من صحيح مات من غيرعلّةٍ

وكم من عليلٍ عاش حينًا من الدّهر

وكم من فتى يُمسي ويُصبح آمنًا

وقد نُسجت أكفانه وهو لا يدري

شـقيق زوجـي -رحمه الله- يكـبُرني بثلاث سـنوات فقط وكنت أعتـبره أخًا توأمًـا، ولدتنا أم واحدة وحملت بنـا في بطن واحدة، نشـاكس بعضـنا البعض ولاتحلو الجلسـات العائليـة بدون تلك التوابل الحرّيفة والمقالب، ونهرع إلى بعضنا البعض كأيّ صديقين حميمين وقت الشدّة. آخر مرّة وصلني صوته عند وفاة بابا حيث عـزاني وهنّـأني بأنّه رحل في أيّام مفترجة أواخر شـهر رمضـان، ثم أنهى المكالمة قائلاً:

- يا بخته ربنا بيحبه هو في مكان أحسن مننا!

وقد ترك أحمد العائلة في توقيت صعب لتواجه القادم بدونه بعد أن كان هو وإخوته كالنّجوم يزيّنون السّـماء، لكن حديقة الأسـرة ذبلـت فجأة بعـد أن احترقت أجمل ورودها واجتاحتها عواصـف الحزن لتقتلعها من جذورها، لكنّها النوائب لا تستأذن عندما تحلّ.

هُوَ الأَجَلُ المَوقوتُ لا يَتَخَلَّفُ   وَلَيسَ يُرَدُّ الفائتُ المُتَأَسِّفُ

جلسـت في عزاء البلد أوّلاً حيث دُفن في القنايات شرقية بلد والده وجـدوده، ثم انتقلنا إلى العزاء في الإسـماعيلية حيث مكان إقامته وعمله. ولا أدري كيف أدفع ما أصـابني مـن ذهول ويأس..هل هو الخنوع لقهْر الموت، أم أن النفس توطّنَت على المصـائِب، وتمرَّنَت علـى احتِمـال الأرزاء. لم أحرص على معرفة اسـم تلك السـيدة

التـي كانـت متلحّفة بالسـواد وترتـدي نقابًـا لا يُظهر منها سـوى العينين فقط وبصـعوبة شـديدة، فكم من رسـائل نجـدة وهداية تصل في الوقت المناسـب لتأخذنا بعيدًا عن قسوة اللّحظة. خطبت بلهجة الدعاة عن حكمة الابتلاء وكأنها في درس ديني إسـتعدّت له جيّدا. قالت وهي تعدّد صفات المؤمن:

- يجـب أن يوقـن المؤمـن المبتلَـى أن ما وقع به من بـلاء من قدر الله المكتوب عليه ولا رادَّ لقضـائه، وعليه أن يسـتقبل ذلك بالرضا والصـبر والثبـات، وأن يأخذ بالأسـباب المشـروعة للتخفيف من الآثار المختلفة لهذا البلاء، ويتجنب الضـجر والسـخط والغضب حتـى يفـوز في الامتحـان ولا يخسـر الدنيـا والآخـرة. فقـد روى الترمذي عن سـيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط».

ويعلـو صـوتها أكـثر فأكـثر عندمـا إستشـعرت التشـجيع على الاستمرار من المعزيّات اللائي التفتن إليها وتحلقن حولها، فتابعت:

- يجب على المؤمن المبتلى التحصّـن بالذكر والاستغفار والتوبة والدعاء الخالص، والصـبر نصـف الإيمان وهو من صفات المتّقين الذين يحبّهم الله، والذين يوفيهم أجرهم بغير حسـاب، وصدق الله وهو القائل سبحانه: «إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ»

(الزمر آية: ١٠)

وفي الابتـلاءات نفحـات لمن صـبر وثبت وإحتسـب ذلـك عند الله القائل: «وَبَشِّـرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَـابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعُـونَ(١٥٥) أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَـلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ » (البقرة آية: ١٥٥:١٥٦).

مضـى أسـبوع وأنا في منـزل العائلـة بالإسـماعيلية بجانب هبة زوجـة المتـوفي والتـي أعتبرها نعـم الأخت منـذ ارتباطهـا بأحمد كمـا اعتبرتني بدورهـا أختًا، وهي التي عاشـت وحيـدة محرومة مـن الإخـوة ، وكانت علاقة الأخوَّة التي ربطتنـي بكل أفراد عائلة زوجي تُشْعرني بأني كثيرة بهم .

خيّـم جو من الهمّ والغمّ. غـير أن كل أفراد العائلة، الأطفال منهم قبل الكبـار، يداري الألم ويخفي هول الفاجعة ويسـتعجل تجاوز المصـيبة علّه يكون مجرد كابوس فنستيقظ منه لنكتشف أن أحمد معنا ولم يفارقنا.

وكانت أُمنية الشـقيقة التي تتحمل في أنين، قلبها خائر من فقدان الأخ والصـديق والأب بعـد رحيـل الوالـد وتجلّدهـا علـى فوهـة بـركان داخلـي لا تـكاد تخمده حتـى ينفجر مـن جديد. أمـا والدة زوجي فتحمّلت المسـكينة مصيبتها في ابنها بصمت عجيب، وتلقّت الفاجعة بسـكون، وتقبّلت الصدمة برضا منقطع النظير، صبورة

على أهوال ذلك الزلزال مادام لا حيلة لها في دفع القدر، ولها صحة العاقبة لأنها إحتسبت وصبرت، وبالمثل كانت شيماء الأخت والصديقة قبل السِّلَّفة صابرة ينطبق عليها المثل القائل «الصابر يعيش بصبره في نعيم، وسجن الصابر جنة، وبليته عطية، ومحنته منحة، وفقره غِنًى، ومرضه عافية».

بدوري ظللت أتقلّى حزنًا على أحمد الذي فارقنا وهو في عز العطاء وحرم الله أبناءه منه ولم يشبعوا بعد من حضن ورعاية الوالد الأب ، ولكن لا إعتراض على إرادة الله.

قاومت الانهيار والهزيمة أمام شظايا المصيبة. وقضيت لياليَ حزينة بجانب هبه تجمعنا ذكرى أحمد ولا تتركنا. ولا يماثل الشعور بفقدان أحمد أي شعور آخر بالألم والعذاب الذي يشوي الجوارح وينهش الأحشاء ويدمي تجاويف القلب، فيمزّق الرُّوحَ والوجدان ويطيح بكل كياني فأستسلم ليأس الفراق. ومازلت أبكيه في وحدتي وفي وحشتي ولا يمرّ يوم دون أن أقرأ الفاتحة على روحه. ولم تمضِ الأيام على نحو هادئ فالمناعة تدهورت وعاودني هجوم الهربس الشرس، وكنت أحدّث النفس فأقول لها: لقد عشت السرّاء ، والآن جاء دور الضرّاء ولابدّ من وجهي العملة في الحياة. وكان يوسف شقيق زوجي الصغير لا يواسيني منذ

مرضي إلا ومعاني الصبر في دثار المواساة، وقد فتح لي أبوابًا، ربما بدون قصد منه ، فالتقطت ذلك الخيط من الأمل وأخذت أخيط به الجراح وأجاهد به الإحباط، وأُنازل به الخطب وأمارغ به الفشل. وكلما اشتدّت الكربات وهبت عليَّ كالعاصفة الناسفة القاصفة، استنجدت بالصبر فيأتي ليكشحها، فيستر الجرح، ويبرد المصيبة، ويضمد نَزْف النفس، حتى أصبح الصّبر زادي الوحيد الذي لا ينفد ومَعِيني الذي لا ينضب، وصاحبي الذي لا يفارق. قررت أن أسمع النصيحة وأُقضِي هذه المرحلة الجديدة من العلاج والنقاهة في صحبة الوحدة في منزل بعيد عن التلوث حيث الجو الصحراوي الجاف والهواء النقي، بين الشجر والزرع. ورغم قضاء وقت طويل في غرفة النوم إلا أني استشعرتُ بعض الحرية في سجني الجديد. حاولت أن أستجمع قواي الخائرة لأنزل الدرج وأعبر الصالة نحو المطبخ، ثم السلّم إلى أن أصل إلى الحديقة، وهو مجهود مذهل بمثابة الحرب التي يخوضها جسمي الضعيف الذي أكل العلاج الكيميائي كراته الحمراء. لكن جناحَيَّ لم يطيرا بي . أنهكني الإعياء وألهث كشيخ مريض فأقرر أن أغير نومتي إلى غرفة المكتب في الدور الأرضي حتى أتفادى صعود السلالم.

أكتم عَبَراتي وأنا على الكرسي متّجهة إلى القبلة أصلّي ، لم أعد قادرة على تحمل آلام العضلات والنخز بالعظام وفي الرقبة

والأكتاف وثنية الركبة؛ فضلاً عن التيبس في اليدين والركبتين والقدمين وأسفل الظهر. أتحاشى الشكوى لأسرتي رفقًا بهم من الألم والجزع . ودون أن أستدعيه،أجد محمد إبني وكأنه شعربألمي فيحاول تدليك العضلات والرقبة فأشعر باسترخاء وأمسح دموعي المنسابة على خدي إشفاقًا عليه من دموعه المحبوسة، ومن أنفاس الخوف التى تخرج من صدره في حرقة.. وبمجرد أن يكشف دموعي التي تبلّل خدي نصبح شخصًا واحدًا ويبكي بعيوننا الأربعة .

يا إلهي لقد تعبت لأنّي أتعبت كل أفراد الأسرة والأحبّة. لم يقدر محمد على أن يتركني ليلة واحدة بل لازمني في السّكن الجديد وأصبح يذهب إلى المدرسة ويعود إليّ ملتاعا متعجّلاً الإطمئنان على حالتي. كان يحترق مثلما تحترق الأغصان فوق الشجر. ولا غرابة فشجرة الحب تنبت في القلب ثم سرعان ما تثمر في العائلة.

وبدوره يتابع الزوج رعايته لي رغم الضربات التي أوجعه بها القدر، فقد توالت النكبات وهو متسلّح بالإيمان داخل قلعة مشيّدة من الصبر. وكلما اشتد بي البرد وارتعدت فرائصي وتسمّرت أطرافي اقترح طارق مساعدتي على أخذ حمام ساخن. فتجتاحني رشّات الماء فتنعش جسدي العليل. فأدعو لطارق بالخير كما تدعو الأمهات والعجائز للأبناء. هناك حكمة كان الراحل العظيم الدكتور

غالي شكري يقولها عندما يسألونه عن المشكلات الزوجيّة: «إبحثي عن السعادة في بيتك، ولا تبحثي عنها في حديقة الجيران «.

أتأمّل طارق المتصبّب عرقًا فأتأكد إن حرارة الصيف وقيظه مازالت مستمرّة رغم أن الخريف قارب على الانتهاء.

أنظر من نافذة الغرفة فألمح حيوانات طليقة...إبلاً ومَعَزًا وخرافًا ترعى وكلابًا تحرسها، على ملك أصحابها من البدو القاطنين في هذه المناطق الصحراوية والذين يعتبرون هذه الأراضي حقًا لهم بوضع اليد، لذلك هم يفرضون على المناطق السكانية المحيطة إتاوات تحت دعاوي الحماية ضد السرقة والمحافظة على الأمن ضد البلطجية. إنها ثقافة الإتاوات التي انتشرت في عهد مبارك تجدها في شرم الشيخ والغردقة وغالبية الأراضي السياحية والمناطق السكنية الجديدة .

تأملت الحديقة فوجدت براعم الخضراوات بدأت تنمو وتناديني، فأسرعت إلى النهوض من السرير وقد أيقظت البراعم فيّ لحن الحياة. وخلال عدة دقائق أصبحت وسط الحديقة يحيطني الهدهد وهو يلتقط الحبات من الأرض في خيلاء، عُرفه البني الفاتح المرقط بالريش في أطرافه كالتاج يزين رأسه وألوان جسمه البديعة بين الأسود والأبيض المرقط به الريش تجعل النظر إليه

فســحة للروح والبصــر. أما مالك الحزين فهو ينتقل من مكان إلى آخر برشــاقة وهدوء ويحلّق بريشه الأبيض وأرجله الصفراء، في أسراب فوق الأشجار فتكتسي باللونين الأبيض والأصفر، ويبعث وجوده الأمان في نفســي لأن تواجــده مقياس لنقاء البيئة، فهو من الطيــور التي تهجر المناطق التي تُرش بالمبيدات الحشــرية، ومنذ تلك اللحظة يصــبح صديقي الذي يواســيني ويحاكيني مثلما كان صــديق الفلاح طوال الدهر. كدت أحسب أن مالك الحزين انقرض مــن الحقــول لأن الفــلاح تراجعــت الأرضــ مــن قائمــة أولوياتــه وأصــبحت تبور تمهيدًا لتحويلها إلى أراضٍ سكنية عالية القيمة، وأصبحت تستهوي الفلاح هوايات النّت والأتاري والجلوس على الكوفي شوب مثله مثل بقية الشعب المصري.

أستكمل جولتي في الحديقة وكلي امتنان لخالي الهادي الذي أوحى لي بأهمية زراعة خضــراوات في الحديقة ولو بســيطة، فأكتشف أن نمــو البراعم ينعكــس على نفســي فتدخلها الســكينة وأنتعش مع انتعاشها وأحيا في نموها وأستبشر في اخضرارها وأبرأ في ورقاتها اليانعــة ! أتأمــل قواقــع قد حفرت عــدة حفرات في أرضــ الجنينة لتضــع بيضــها، لعلها فرحت برخات المطر الخريفــي التي انهمرت فرطّبت التربة، ومدّتها برحيق الحياة .

كـم أنعش الـرذاذ هـذه الزرعـات، لسـوف تندفـع وريقاتهـا وغصيناتها وتفرشها بدلال على التربة الناعمة. كان محقًا أستاذي الإنجليزي الذي درس لي اللّسـانيات في الجامعة ، قال مرة في أثناء الدرس :«لو أراد شـخص أن يُذهب عنه الضـيق فليغمض عينيه وليتخيـل فسـحة في حديقة غنّاء فسـوف يتشـتت الضّـيق وتحلّ محلّه الابتسامة. وأغمض جميع الطلبة الأعين في تلك اللحظة بمَنْ في ذلك الأسـتاذ نفسـه، فضحنا بتلقائية لأننا اكتشـفنا إننا جميعًا ضجرون متضايقون!

هذه النصيحة الخضراء الفواحة يعطّرني عبقها كل يوم مع قدوم ساعات الليل حيث لا تفلح جلسة الشرفة ، مع تسلل نسمات البرد تنبـئ عن قرب حلـول الشـتاء، في اسـتدعاء الكَرَى فتحكُـم الأرق ووخز الآلام في مختلف الأنحاء من الجسد يُذهب ذلك الخمول الذي يتسـرّب إليّ مـع تأمّل النجـوم وهي تتجول في ربوع السـماء تبوح بأسرارها. كنا صغارًا نتسابق لاختيارنجمة لكل واحد نطلق عليها اسمًا من أسمائنا، ونظل في اللّيالي نراقبها ونحزن عندما تختفي . أما القمر فكان صـديقًا وملهمًا للجميع، رفيق العاشـق، كاتم الأسرار، شاهدًا على الإخلاص أو الهجر. بحثت عن نجمتي وقمري وتجولت في صـفحة السـماء فاختطفتني إلى دنيا الأحلام، فأغمضـت عيني طويـلاً، أتخيل الحديقة بالبراعم الخضـراء والطيور وهي تزغرد

فرحا ، فترصّـــع خيالي بالورد والألوان المبهجة، ويتسلل النوم إلى عيني وأودّع النّجوم لتستكمل بوحها إلى السّماء.

في صباح جديد كان زوجي قد جهّز الملف الطبي ووضع الأشعّات والتحاليـل كافةً اسـتعدادا لزيـارة الطبيب. هذا هـو الموعد الأول لإجـراء الفحوصـ منـذ أن انتهيت مـن بروتوكول العـلاج. الآلام القاضـمة تنبئ بوجود روماتيزم وهشاشة حادّة في العظام نتيجة علاجات السـرطان، فالعلاجات الكيماوية المسـتخدمة في سـرطان الثدي تسـبّب هشاشـة العظام بسـرعة أكبر ممّا كان يظنّ العلماء في السابق، هكذا أوضح طبيب الأشعّة عندما كنت بصدد إجرائها. قـال إن ضـعف متانة العظام عند النسـاء بسـبب ما يعـرف طبيًا بأوستيوبوروسز.

ظهرت علامات الدهشـة على إخصـائيّ الأشـعة عندما وجد أنّي قـد فقـدت إحدى عشـرة بالمائة من كثافـة العظـام ، ولم يكن على درايـة بـأني خضـعت لعلاج كيمـاوي لكن الدهشـة تبـدّدت عندما عرف التاريخ المرضيّ . ولكنّ الدكتور هاني المحمدي طبيب العظام الشهير وأحد القامات الرفيعة في مدرسة طب العظام المصرية علّق بعد الكشـف بأنه شاهد حالات عديدة أكثر سـوءًا من حالتي، وأن جميعها نتيجة تداعيات العلاج وسوف تختفي خلال ستة أشهر.



الصوم الطبيّ

((إن الجسد إذا صلح .. كفاهِ القليل من الطعام

وإن القلب إذا صلح .. كفاه القليل من الحكمة»

هذا يومي الثالث من الصــوم الطبّي . لقد فشـلت في التجربة المرّة السـابقة حيـث غلبتنـي الشـهوة وعجـزت النفس الضـعيفة عن اسـتكمال أكثر من يومين فقـط؛ فقررت أن أسـتنجد بأنفة الإرادة لأكرّر التجربة سـيرًا على خُطَى صـوفي لاكوسـت، وهي صـحفية فرنسـية شـاركت في عـدد خاص من مجلـة العلـوم والحياة حيث إكتشـف الباحثون العلاقة بين حالات شـفاء تلقائية من السرطان والعجز عن تناول الطعام أي الصـوم الإكراهي. وحققت لاكوست ثـورة طبيـة في كتابهـا Les suprenantes vertus du jeune أو «أسـرار العلاج بالصـوم، حيث بشّـرت بأسـلوب علاج الأمراض المستعصـية على نطاق واسـع من خلال الصوم الطبي الذي يقوم بتنقية الأجساد وإصلاحها مما تعانيه من اختلالات واضطرابات». وتحاول لاكوسـت تكوين جبهة علمية تسـعى إلى إقناع حكومات العـالم والوزراء والبرلمانيين بالموافقة علـى إدخال هذه الطرق في العلاج تحت مظلة التأمين الصـحي، حيث تكون النتيجة مبهرة لو تم تجريب الصـوم مع مجموعة في رحلة ممتدة لعدة أيام، وتقول لاكوسـت إنه من الضـروري تجريب هذه الطريقـة في العلاج لأنه مجاني مائة بالمائة ويسـاعد أيضًا على التوفير الاقتصادي، وتؤكد أيضًـا إن الصوم ولو جزئيًا بشكل مستمر يطيل أمد الحياة ويعزز فرص الصحـة الجيدة [1]. وتُواجَه هذه الدعوة بمقاومة شديدة بل

حروب مضادة وتهميش من قوى معادية للطب البديل وعلاجاته التي لا تدر الفوائد والأرباح على أحد غير المريض!.. وهذه العداوة والحملات التشكيكية للطب البديل ناجمة عن أنه في حالة انتشاره و نجاحه في شفاء المرضى في شتى أنحاء العالم ، فسوف تبور أدويتهم وتفسد تجارتهم التي ينفقون عليها المليارات لتكوين لوبيهات صناع الدواء، ليس هدفها العلم من أجل الإنسانية وإنما العلم من أجل أن تدر الأموال الطائلة.

ويعود إحياء ممارسة الصوم الطبي إلى أوائل القرن التاسع عشر، على يد أطباء خذلهم الطب التقليدي وعلاجاته وشهدوا بعض المعجزات التي حققها الصوم على المرضى. ثم نشأت حركة واسعة في السويد عام ١٩٥٤ يقودها عشرة أطباء قاموا بالسير مسافة خمسمائة كيلومتر على مدى عشرة أيام من دون تناول أي شيء غير الماء وذلك لإثبات عدم ضرر الصوم، ثم بدأ الصوم في ألمانيا في الثمانينيات يحشد مؤيدين بمساعدة من حزب الخضر وأحد مؤسسيه كريستوف ميشيل الذي أخذ ينظم ويقود مسيرات للجوع مع مناضلين صائمين. وانتشرت الطريقة في فرنسا ولكن كنوع من «الثيرابي» أو الصوم في دورات تدريبية جماعية. وأهمية الصوم مع مجموعة من الناس هو أن الكل يصوم

ويتضامن جماعيًا ويستقوي الفرد بالكل على إغراءات النفس وشهواتها.

وبدأت تتفاوت طرق الصوم بين الاكتفاء بشرب الماء فقط لعدد من الأيام أسبوعيًا أو شهريًا، أو سنويًا، وبين الصوم الذي لا يتم فيه الامتناع التام عن الأكل، وهذا النوع يُسمَّى صوم بوشينجر وهو اسم الطبيب الألماني الذي نادى به.

أما الصوم بالماء فهو يبدأ بتقليل الطعام تدريجيًا قبل البدء في الصوم عن الأكل تمامًا ويتم شُرب ما لا يقل عن ستة لترات ماء يوميًا ويمكن أن يتم شراب الماء المعطر بالأزهار. أما صوم بوشينجر فيكون بشرب أربعة أكواب الشراب الساخن في الصباح، ثم عصير الفواكه أثناء النهار بشرط أن يكون طازجًا وخاليًا من السكر. ثم يمكن تناول شُرْبة الخضراوات ليلاً مع الحرص على شرب كميات من المياه طول النهار، كما يجب الامتناع نهائيًا عن تناول المعُجَّنات والخبز. ويصاحب هذه الحمية السير على الأقدام لمدة لا تقل عن ساعتين يوميًا، صباحًا ومسَاء. البعض تقلقه فكرة السير وهو صائم لأنه لا يتناول سعرات حرارية كافية لتمدّه بالقوة لكن هذا الإحساس خاطئ؛ لأن الصوم مع السير يساعدان على التخلص من السموم والفضلات.

وقد يقول قائل إن الصوم عادة قديمة، فلدينا كمسلمين الصوم في رمضان وفي مواسم مختلفة وكسُنن عديدة ، كما إن المسيحيين واليهود لديهم الصوم ضمن العبادات عدة مرات في السنة، وبالمثل الديانات غير السماوية فيها الصوم أيضًا. فهل هذا يكفي لإعتباره صومًا طبيًا يساعد على شفاء المرضى من أمراضهم ؟

الصوم الديني يختلف عن الصوم الطبي مادام الأول يعتمد على فكرة الحرمان لوقت محدد من الطعام والشراب، والثاني يعتمد على الإكثار من شرب الماء والامتناع عن الأطعمة أو الاكتفاء بالقليل من الحَسَاء وشُرْبة الخضر.

وقد لاحظ المعالجون المختصون بالصوم الطبي إمكانية زوال الأورام السرطانية عبر الامتناع تمامًا عن الطعام، حيث إن الجسم يستخدم مواده المضرة أو غير الضرورية لصناعة الطاقة قبل أن يستمدها من موارده المهمة.

بالنسبة لي فقد جربت عدة طرق في الصوم الطبي، الطريقة الأولى وهي الامتناع تمامًا عن الأطعمة والاكتفاء بشرب الماء الدافئ صباحًا ثم شرب مشروبات عشبية طوال اليوم، ولم أتوقف عن تناول الأدوية الخاصة بالسرطان. ولكني شعرت بتعب وصداع في نهاية اليوم الثاني، ولابد من الاعتراف بأن أسلحة النفس لم تكن

قوية بما يكفي فأوقفت التجربة في انتظار التسلّح بالإرادة القوية. وقد أسهم خالي الهادي شقرون بشكل رئيس في إقدامي على تجريب الصوم الطبي وسلحني عبر حوارات متواصلة بالإرادة؛ لذلك فأنا مصممة هذه المرة على النجاح. فقد شعرت من خلال التجربة التي لم تنجح بتحسن كبير في نشاطي العام وفي حالة الصفاء الذهني. الغريب ان كمية الكريات الحمراء تزداد أثناء الصوم مما يكون نافعًا لحالة فقر الدم التي أشتكي منها بسبب تداعيات جرعات العلاج الكيمياوي، رغم أن نصيحة الطبيب المعالج تطالب بضرورة تناول اللحوم والأطعمة المفيدة لاستعادة قواي ولم يقتنع باستعادتها عبر الصوم الذي يؤدي في نظره للمزيد من فقر الدم. أما المعالجون فيدركون أنه في مثل حالتي يُجْدي الامتناع عن الطعام؛ لأنه يسمح للجسم -عبر تمكينه من التخلص من الفضلات والسموم- بحرق العناصر الغذائية الوافدة إليه بشكل أفضل كما ان الصوم الطبي يخلص الجسم من الانتفاخ والتورم والفضلات الناتجة عن الكورتيزون الذي عادة ما يتناوله مريض السرطان بكميات أثناء الجرعات ثم بعد الجرعات، مثلما كان الحال لديَّ لتخفيف آلام العضلات والعظام التي تنتابني بعد الجرعات .

ومما تجلت صحته من فوائد للصوم الطبي الذي أقنعني به خالي وأمدني بالأبحاث التي تدعمه هو الشعور بالقدرة على الكتابة

وإنجاز هذا الكتاب الذي خططت أهمّ فصـوله وأنا في حالة صـوم، حيث تحسّـن إدراكي الحسـي وجهازي العصبي واستعدت بريق الكثـير مـن الأفكار وألَق المشـاعر وطزاجة الروائـح التي كنت قد نسـيتها، فيبـدو أن التخلص مـن السـموم والفضـلات التي تثقل الجسـم وتعيق عمله يعزز جهاز المناعة ويعيد الصـحة والشباب إلى الحواس والجهاز العصبي.

وزاد إنتاجـي خـلال الصـيام لكـن بمجـرد أن عدت إلـى روتيني وامتلأت المعدة نامت الفكرة.

وقد لاحظت أنه بعد عدة أيام من الصوم يخرج من المريض براز أسود، فإذا خرج هذا البراز فهو يعني أن السموم قد خرجت وهذا بحسـب الوصـفة التي ذكرها الدكتور عبد المالـك الجزائري، وهو طبيب مشهور في الطب البديل بفرنسا.

أمـا المدرسـة اليابانية في الصـوم الطبي فأحـدث تجاربها أثبتت شفاء عدة أمراض من بينها السرطان، وذلك بشرب الماء على معدة خالية وأصـبح من المعتاد اليوم في اليابان شرب الماء مباشرة بعد الاستيقاظ صباحًا، وقد سجلت أبحاث طبية يابانية نجاح العلاج بالماء لأمراض مزمنة وخطيرة ومنها السـرطان. ويعتمد أسـلوب الصوم الياباني على شرب أربع كؤوس من الماء بمجرد الاستيقاظ

في الصباح وقبل أو بعد غسل الأسنان، ثم الانتظار ساعة حتى يمكن أكل أو شرب أشياء بسيطة. وبعد تناول كميات قليلة من الطعام في الإفطار يجب الامتناع عن الأكل والشرب لمدة خمس ساعات، وكذلك بين الغداء والعشاء ولا يترك اليابانيون أية وجبة دون سداد فالوجبات الثلاث لابد من تناولها مع احترام الساعات الفاصلة بينها، والاقتصار على كمية صغيرة. وعادة عندما يتناول الياباني خضرًا لا يخلط معها لحومًا أو أي بروتين آخر؛ إلا إضافة الكثير من الأعشاب البحرية التي تشتهر بها البلاد. فالمصدر الرئيس للبروتين للمواطن الياباني السمك والمأكولات البحرية باعتبارها مجموعة جزر، أما اللحوم فكيلوغرام اللحم البقري يتعدى المائتي دولار حيث يستورد اليابان اللحوم من البرازيل وأستراليا. فهل تدرك الشعوب العربية مدمنة اللحوم إن الياباني، الذي يتمتع بدخول هي بين الأعلى في العالم، ربما يولد ويعيش ويموت دون أن يعرف طعم اللحم ومع ذلك فلم ينقص ذلك من كونه في مقدمة الشعوب المتقدمة والمعمِّرة حيث تتمتع بالصحّة الجيدة، والأمل في الحياة هو الأكبر بين شعوب العالم.



السرطان والعلاقة الحميمة

أنا الجرح والسكّين أنا الخدّ والصّفعة

أنا الجسد ودولاب التعذيب

أنا الجلاد والضحية

أنا مصاص دماء قلبي

وأحد هؤلاء المنبوذين العظام

الذين حُكم عليهم بالضحك المؤبد

ولكن امتنع عليهم الابتسام

(أزهار الشرّ) شارل بودلير

- إحنا في إيه ولاً في إيه؟

كان ذلك ردي المتحفز على صديقتي(...) التي فاتحتني في موضوع حسّاس وهو العلاقة الزوجية الحميمة وتأثير السرطان على استمرارها بشكل طبيعي. فعادت صديقتي لتجمع شجاعتها وتواصل الحوار بلطف شديد:

- موش محتاجة أقول لك إن العلم لا يعرف الخجل، لذلك أريد أن أطمئنك إن المرض ده ميأثرش على العلاقة بين الزوجين!

القضية أبعد من مجرد خجل ، فلابد من الاعتراف بأن الجراحة، والعلاج الكيماوي أو الإشعاعي أو الهرموني جميعها لها آثار جانبية تؤثر على الحياة الزوجية الحميمة كما أن التغيرات الفسيولوجية التي يمر بها الجسم أثناء العلاج وما تصاحبها من تقلبات مزاجية ونفسية تتعارض مع دفء العواطف الإنسانية؛ ومن ثَم فإن الحالة العقلية مضطربة ومتناقضة بين الفزع والدموع واليأس من جهة، وبين الانتظار والرجاء والأمل من جهة أخرى .

- لابد أن يكون لديك أمل وأن ترفعي من حالتك النفسية، ولا تستسلمي لليأس، وافتحي مشاعرك للتفاؤل والحب...

لم أستحسن الحوار واحتلّني الضيق ، فصمتُّ ثم سرحتُ رغم إني ناقشت الأمر بيني وبين نفسي من قبل، وكانت لدي تساؤلات في هذا الخصوص ظلت معلقة بدون إجابة .

قـررت أن أسـتعين بـرأي طبـي وعلمي بعيـدًا عـن الاجتهادات. وبحثـت عـبر الإنترنـت عـن مواقـع متخصصـة فوجـدت مواقع إلكترونيـة عالمية كثيرة تفسـر هـذه الظاهرة، التـي أولاها علماء النفس والاجتماع الاهتمام الواسع.

وتشـير الآراء العلميـة مـن خـلال الأبحـاث التـي أُجريـت على مريضات سرطان الثدي، إلى إن الاستئصال يترك أثرًا نفسيًا مؤلمًا في المرأة التي قد تشـعر بفقدان عنوان للأنوثة ومانشـيت للجمال فينعكـس ذلـك خوفًـا علـى أنفتهـا. وإذا كانت العمليـة الجراحية فـي حـد ذاتهـا لا تترك أثـرًا فسـيولوجيًا باسـتثناء الندبـات لكن الأثر النفسـي هو الذى يسبب بعض المشـكلات، كفقدان الرغبة في التواصل مع الناس والميل إلى الإنعزال[1].

قـد ترفض بعض السـيدات العـلاج الكيماوي خوفًا من تسـاقط الشعر وقد ترفض حتى استئصال الثدي خوفًا من تأثيره لا عليها فقـط وإنما على زوجها أيضًـا وتلك مشـاعر طبيعيـة تحتاج إلى الإستعانة بطبيب نفساني أو بمن خاضت التجربة لتحكي كيف إنها تعيش بشـكل طبيعي بعد أن أجرت العملية وخضـعت للعلاجات الكيماويـة. والـزوج هـو الأقـدر في هذه الظـروف على المسـاندة ومسـاعدة المرأة على تجاوز هذه المشـكلات بسرعة بفضل منحها الحبّ والاهتمام وإعطائها ثقة كبيرة بالنفس تُشعرها بأنها مازالت جذّابة ، حتى تستعيد حالتها الطبيعية.

وهنـاك جـدل طبـي محتـدم بـين الجرَّاحـين الذيـن يفضّـلون إزالـة الثـدي كاملاً لضـمان عدم ارتداد السـرطان وبـين الأطباء النفسانيين، الذين يفضلون إزالة الكتلة نفسها فقط مع الإشعاع في عملية تسـمى «لامباكتومي»؛ حتى يتيح للمريضة أن تحافظ على توازنها النفسـي وثقتها في نفسـها. وقد رصـد الأطباء النفسانيون اختلاف حالة الإصـابة بسرطان الثدي تحديدًا عن أي مرض آخر لـدى المرأة، لأنه يحمل تأثيرًا خاصًـا عليها. كما رصـدت دراسـة أعدتها جامعة سـتانفورد الأميركية أن احتمال هجر أو ترك الرجل لشريكة حياته إذا تبين أنّها تعاني مرض السرطان تصل نسبته إلى ٢١ في المائـة، وذلـك علـى العكس من جانب المـرأة التي لا يتجاوز احتمال تركها للزوج في المواقف المماثلة نسبة ٣ في المائة فقط.

ومن خلال تأملي لحالتي الشخصـية لاحظت خلال فترة العلاج الكيميائـي الشـعور بالاقـتراب العاطفـي الشـديد تجـاه الـزوج، ولم يكـن مسـتغربًا أن لا تكـون ردة فعل الزوج متماثلـة في إبداء الاقتراب.

لكـن لا شـك أن التأثـيرات الجانبيـة للعـلاج الكيميائـي مثـل الغثيـان والإرهاق الجسـدي الذي صـاحبته أعراض فقر الدم في مرحلة معينة من العلاج وآلام العضـلات والأعصـاب والالتهاب

والاحمرار المصاحب بألم أو تقرح ملحوظ في الصدر وبالقرب من مكان حقنة الكيميائي ، وضيق التنفس والتقرح بالفم أو الألم في الحلق والرقبة وغالبية هذه التأثيرات تحول دون إقامة علاقة حميمة بين الزوجين. أضف إلى ذلك أن العلاج يؤثر على وظائف بعض الأعضاء مثل المبايض التي تنخفض الهرمونات التي تنتجها كما أن بعض النساء يعانين عدمَ انتظام الدورة الشهرية ثم توقفها تمامًا خلال العلاج الكيميائي. وقد يؤدي انقطاع الطمث إلى أعراض مشابهة لأعراض سن اليأس مثل التغييرات الهرمونية، غير إن الحب والاحترام والتفهم للوضعية الصحية يجعل الزوج يشعر بالخوف على شريكته المريضة من أن تضرها العلاقة الحميمة. وقد عمدنا إلى الأسلوب العلمي الأسلم وهو إستشارة الطبيب المعالج للتزود بالمعلومات كاملة ومناقشة المخاوف كافة بشكل علمي.

والنصيحة التي يقدمها الأطباء النفسانيون والأشخاص الذين لديهم خبرة سابقة مع المرض هي ضرورة تَحلّي الشريكين بالصبر حتى ينتهي العلاج وتزول الآثار الجانبية، وتفهم كافة الأعباء الطارئة على نمط حياة الأسرة من إنفاق على بنود العلاج وتكاليفه العالية جدًا ربما على حساب السفر والإجازات.

وهذا يزيد من الضغط النفسي على المرأة والزوج ويترتب عليه كثير من المستجدات الأخرى.

وأستطيع أن أؤكد بعد انتهائي من الجرعات وبروتوكول العلاج إن أغلب تلك الآثار الجانبية والتداعيات الاجتماعية بدأت تختفي تدريجيًا بعد نهاية العلاج؛ ليعود نمط حياة الأسرة إلى طبيعته في مرحلة ما قبل المرض.

والله مع كل زوج وقف ويقف مع رفيقة الدرب حنوًا وحنانًا والمجتمع أيضًا الذي يُبْدي تقديرًا إضافيًا للزوج الذي يساند زوجته المريضة - ربما لأنه من الطبيعي أن تقوم المرأة بهذا الدور مع الرجل ولأنه من المنظور الاجتماعي يقع في صلب واجبها - لكن الرجل يستحق تصفيقًا على ذلك، وعلى كل حال فإن ذلك لا يغير شيئًا في المثل الشعبي القائل: «أهلك يحبونك غنية وزوجك يحبك عفية».

الهوامش:

(١) حالات مرضى السرطان: مسترز وجونسون.

باسم الحبِ!

لا أحد سواي يعلم أن حذائي يؤلمني ...

مَثَل إنجليزي

هممتُ أن أوضحَ لهم أنهم يضايقونني بالطلب المتكرِّر بألاَّ أرهق نفسي وأن أوقف النسق السريع الذي أعيشه، وأن أعتبر الأيَام القادمة راحة إجبارية، فحقٌّ البدن على المرء أن يريحه كما يقولون، لكن تراجعتُ عن التعليق وفضَّلتُ الصمت، وفي المقابل تواصلَت تلك الكّمات التي تنطلق بحماس شديد لتهشّم مشاعري وتزيدني قلقا وتوتُّرًا ونفورًا من الالتقاء بالناس مع شدَة تكرارها مع كل شخص قريب أو بعيد يزورني وأنا مازلت تحت وطأة الوجع من آثار العملية الجراحية، ولم أُدرِك أَبعادَ رَأسِي من قدَمِي مع تشتّت شذرات الأفكار. استرجعت بعض الذكريات الفارقة عندما كنت أُحاولَ أن أطَمِئنَ على الجزء المُتيبِّس من جسدي، أفكر مليًا في حيلة توصلني إلى تلمُّس صدري لأرى ماذا حدث بالضبط وإلى أي مدى قد نفذ الجراح السيناريو الأسوأ :هل تمّ استئصال الثدي أم قد قد تجاوز الاستئصال إلى محيط الصدر، وإذا كان قد استأصل الثدي فقط فلماذا كل هذه الآلام التي تنهش نصفي الأيسر كله وتخزُّ أعصابي كالإبر الحادّة؟

تدخل عليَّ إحدى الصديقات مصحوبة بزوجها الذي يحمل علبة شيكولاتة كبيرة تغطي نصف وجهه والتكلف واضح لبذل أقصى الجهد للتودّد. تمسك يدي والدمعة تكاد تنهمر من عينها بينما يرمقني الزوج بنظرة سريعة استقرت على صدري. التقت

نظراتنا فتراجع بعينيه، وانبرت الصديقة تخبرني أن مرض السرطان أصبح مثل الأنفلونزا وأن الشفاء منه سهل وإن عمليات التجميل لترميم المنطقة التي تم استئصالها ناجحة مائة بالمائة، وتتحمّس في تنميق المونولوج أكثر فأكثر، دون أن أنبس بكلمة بينما زوجها يحرك رأسه تأكيدًا على صحة ما تقوله، وشعرت في تلك اللحظة أنها كانت تتحدث ربما لتُطمئِن نفسها قبلي. وتنضم إلى هذه الزيارة إحدى الزميلات التي رسمت جيّدا الإبتسامة على وجهها ، وكأنها قد تدرّبت أمام المرآة على ذلك طويلاً قبل أن تزورني، وفاجأتني بالقول إن وجهي يشبه القمر وتكررت على لسانها أبيات شعر رومانسي ركيك مدحًا في طلعتي البهيّة بعد العملية الجراحية، وملأت الغرفة جلبة بصوتها الرجولي الذي ترك نيكوتين السجائر عليه أثرا، فانسحبت الزائرة الأولى مع زوجها لإفساح المجال للقادمة. ولما كان وقع القصيد الرومانسي على رأسي كما الهجاء في الشعر الجاهلي تراجعت الزميلة لإفساح المكان إلى الممرضة التي جلبت لي معها حقنة المسكّن.

أنظرُ إلى يدي اليمنى المستسلمة وهي تحملُ الكانيولا موصلَة بمحلول الدواء المعلَق في حامل معدني بجانب السرير، وعندما أحاول أن أكتفي بالإحساس، فأضع أطراف الأصابع على كدمات

العمليـة ... تداهمنــي الآه آه آه آه ، ثم لا شــيء غير الألم الشــديد فأتوقف عن الإحساس وأسلم نفسي إلى التيه .

عرفـت الخبر المفجع الذي كان أســوأ الاحتمالات قبل أربعة أيام فقط؛ ولكنه أصبح الحقيقة المرّة بمجرد أن فتح الطبيب بالمشرط ووجد ما لا يُحمد عقباه.

أولى وثاني وثالث وعاشر النصائح التى لابد أن أستمع إليها الآن هى أن أتشـبث بالحياة ولا أستسـلم لليأس ولا أغلق الجفون في انتظـار الموت الـذي إسـتقر في اليقين ..لـن تتغير النهايـات في كل الأحوال.

افتـح عينيك واشـرب مـن نبع الحيـاة حتى ترتـوي، فلا عطش هنــاك مـادام نهر التفـاؤل والحب يجـرى فى وديـان الحياة. غير انه من الســهل عمَّن هو خارج المصيبة أن يقدم النصائح كما يقول الشــاعر اليونــاني أســخيليوس. فلا أحــد يحاول أن يقدر بالضــبط حالتي وإحتياجي في هذه اللَحظات الصعبة. الحرص على إيصال رســالة محفوظة في مثل هذه المناســبات هو النغمة المنفرة ، يعني كل واحــد عنده كلمتــين عايز يقولهم، وكأن الزيارة بهدف تســميع كلمـات المـؤازرة التي يحفظهـا وجاء مـن أجلها. بينمـا إحتياجي إلـى الإنفراد بنفســي في تلك اللحظـات يفوق حاجتــي لرؤية أهلي

وأصــحابي، حاجتي إلى البكاء.. ربما إلى الصــراخ ، لكن تُقْصيها عمليات المراقبة من الذين يحيطونني حيث تصل إلى مسامعي تلك العبارات التي تهدئني وتردد: «شدِّي حيلك ألفة خليكي قوية ، ده تخفيف ذنوب، المهم تكون نفسيتك كويسة!».

كيف تكون كويسة..وكل تلك الكلمات تضربُ على أوتار أعصابي وتدقُ مطرقة الحروف على دماغي، وحتى أقاوم رد الفعل الموتور الــذي يغرينــي بالانفـلات أحـاول تبرير حُسْــن النوايـا والدوافع الطيّبة لتلك النصائح دون قصد إيذائي أو مضايقتي ، فلا يجب أن أمنّي نفســي بمعاملة مختلفة، فثقافة المرض في أوطاني ترتكز على وَهْـم فكرة عبقرية هي أن المريض في المستشـفى في فســحة جميلة ولا يجب أن يحرم نفســه من أي شــيء. وانتبهت إلى هذا الصراع الــذي يمزقني فأعطيت أمــرًا لدماغي بالتوقف علــى الفور، وقلت: «على كل حال ..مفيش فائدة موش ممكن أوقَف القطار!».

هذا السَّيل الجارف والمتكرر من النصائح يندفع مسرعًا مثل قطار يابــاني، ولا أظن أن أيًا من الزوار يحاولــون أن يتبينوا وقع الكلام عليَّ، لذلك بقيت كلماتي معلقة على لساني محبوسة وكم تمنيت أن تنطلــق لتقول لهم إن الإرهاق ليس ســببه ما يفعله الإنســان وإنما ما لا يفعله، والمســئوليات الموكلة إليك إذا لم تنجزها تسبب قدرا

كبيرا من التعب، إضافة إلى أن طبيعة الأمور تقول إن الإنسان عندما يكون مفعمًا بالحيوية والأمل يرى فرصًا في كل مكان حوله ويتحرك للعمل بتلقائية، غير أن الإصابة بمرض خبيث ماكر تسحب الأمل من داخل النفس ومعها الفرص والحافز على الحركة. والمبالغة في تذكير المحيطين للمريض بضرورة التحلي بإرادة قوية ومعنويات مرتفعة وحالة نفسية جيدة يؤدي إلى حالة عكسية تمامًا خاصة إذا كان كل ما يتمناه المريض في تلك الحالة هو شيء بسيط للغاية كأن يستريح ويغفوَ لبعض الوقت، أو أن يخفَّ الألم المبرح قليلاً أو أن يقل عدد مرات الدخول إلى الحمام ، حيث يأكل الكيماوي الأمعاء فيشتد الإسهال .لا أدري ما قيمة تكرار النصيحة مليون مرة دون أن يأخذ بها أحد، فهذا معناه أن النصيحة لابد أن تتغير مادام لم يُعِرْها أحد إنتباهه.

أرسل لي «متعاطف »رسالة على بريدي الإليكتروني، قال إنه قرأ مقالي ، فعلم أني أعاني السرطانَ وأنه لمس تأثري الشديد بالمرض، فقدم لي نصيحة من خلال بيت شعر للمتنبي ..يقول:

إذا لم يكن من الموت بُدٌّ فمن العجز أن تكون جبانا

لا أدري لو كان هذا المتعاطف«شامتا» وغير متعاطف فما عساه كان سيرسل إلي!!

ما الحل إذن لكي أهرب من ضغط الآخرين فقد أصبح الآخرون هم الجحيم كما يقول سارتر[1]، هل أعتزلهم وأنطوي على نفسي وأبني جدرانًا عالية بيني وبين الناس حتى أمنع أية أذية قد تصلني.. هل أغلق عليَّ غرفتي وأقاطع الكلام والبشر، وإذا قمت بذلك اليوم فإلى متى أستطيع أن أستمر في وحدتي؟! .

شعرت برياح عاتية من الأحزان تهب وتقتلعني من منامي، وتزحف المياه بسرعة فتحاصرني وأضرب بيدي ورجلي أبحث عن القاع فلا أجده، وتشدني دوامات الفيضان إلى قاع النهر فتبتلعني فأغرق وتصعد إلى السطح فقاعات الهواء.

هل أعزل نفسي عن الناس وأستسلم للغرق أم أجدف بقاربي وأتعلم الإبحار لأعبر النهر وأصل إلى الشاطئ. قديمًا قال الفيلسوف: «العاقل من يصنع قارباً يعبر به النهر بدلاً من أن يبني حوائط حول نفسه تحميه من فيضانه».

أحاول أن أنزع نفسي من غطاء السرير المبتل عرقًا وأسند يدي اليمنى إلى ثلاث وسائد لأستدير نصف دائرة وأتجه بوجهي نحو جهاز الكمبيوتر «النوت بوك» الذي وضعته سمر على الكومود المجاور للسرير. لماذا يجرفني هذا النزيف من القلق كما تُجرف التربة من الأرض وكيف السبيل إلى إيقافه. المتصوفة يؤمنون بأنّ القلق ينتهي عندما يبدأ الإيمان، وجدت السّلام في أعماقي يناديني من الداخل: «إنّ القلب ليمرض كما يمرض البدن وشفاؤه بالتوبة

والحمية، ويصدأ كما تصدأ المرآة، وجلاؤه بالذكر، ويعرى كما يعرى الجسم، وزينته التقوى، ويجوع ويظمأ كما يجوع البدن، وطعامه وشرابه المعرفة والمحبّة والتوكّل والإنابة»[٢].

والفراغ داء قاتل للفكر والعقل والطاقات الجسمية، إذ النفس لا بد لها من حركة وعمل، فإذا كانت فارغة من ذلك فإن الفكر والعقل يتبلدان، وتضعف النفس، وتستولي الوساوس والأفكار الرديئة على القلب والإرادة.

إن تركيز وساوس النفس مُنصبٌّ على القلب، فهي لا تملُّ من إرسال جنودها واحدًا تلو الآخر حتى يوقع المحارب في هذا المرض المقيت، وبعد ذلك لا تسأل عما يجري من وساوس وأوهام وقلق لا تنفك عن صاحبها إلا بالرجوع إلى واحة ذكر الله، فتنقلب الهموم والأحزان إلى راحة واطمئنان، قال تعالى: «أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» (الرعد: ٢٨)، وقد قال ابن القيم: (خراب القلب من الغفلة، وعمارته من الخشية والذكر)[٣].

عجيب أمر الإنسان ، إذا علم أن به مرضًا معينًا قلق وزاد همه، وحرص على علاجه بأسرع وقت، لاسيما إذا كان مرضه خطيرًا، ولا يحرك هذا الشخص ساكنًا، بل ينام قرير العين إذا علم أنه مُبتلًى بالغفلة، قال تعالى: «وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا»

(الكهف:٢٨)، وهـذا المرض هو الذي يجب على الإنســان أن يفطن له ويبدأ بعلاجه قبل أي مرض آخر.

إن الصــلاة والعبـادات وسـائلي الجديـدة في التقرّب من نفســي الضعيفة على نحو جديد وإصلاح ذات البين مع كلّي الذّي يخاصم كلّـي. الله لا يحتـاج إلى صـلوات العبد وتضـرّعه إليـه لكن العبد هـو من يحتاج إليها لضـبط سـلوكه وزيادة بذلـه ونفعه للمجتمع وللإنسـانية قاطبـة؛ ومن هنا كان قول الرسـول (صـلى الله عليه وسلم): «الدين المعاملة». هل قدر العبد أن تتلاطمه أمواج الشك، ويغرق في بحار المحن حتى تنتشله لمسة حانية من الإيمان يركض في الدماء ويربّت على القلب فتتلّحف الغيمات بقطيرات المطر تنزل حانية على الأرض العطشى.

أحاول بأصـابع يـدي اليمنـى أن أتلمـس أزرار الكمبيوتر. أفتح صـفحتي على الفيسـ بوك..أقـرأ لينـك مقتبس مـن الكاتب جلال عامر: « إحنا أصلا كنا رايحين لدولة حديثة مدنية ورافعين شعار عيش وحرية وكرامة وطنية، وبعدين لقينا السـواق بيلف ويرجع تاني ... مع نفســه كده ومن غير ما يشاور الركاب ... ولما سألناه: هـى مصـر رايحة على فـين ؟؟ بص لنا من فوق لتحـت كده وقال: مش كنت تسأل قبل ما تركب».

جـلال عامر بين نخبـة أداوم على قـراءة مقالاتهم يوميًـا، أتابع تعليقاته الشائقة على تويتر فتُدخل البهجة على روحي المبتئسة. هكـذا هي الكلمة دومًا صـديقة محلّقة محتضـنة للعـوالم دون أن يدري كاتبها.

أتناول الدواء: هذا مغلف للمعدة وهذا مضاد للقيء وذاك مضاد حيوي.. ورابع مسكن للأوجاع. لقد كثرت الأدوية ولابد أن أشرب كميات من الماء والأعشـاب الدافئة كالقرنفل والزنجبيل والليمون والبابـونج بمـا يكفي؛ للتخلص من سـمومها وتهدئـة التقرحات الداخلية التي تسببت فيها كثرة العلاجات.

احتياجـي للنـوم أصـبح كبـيرًا ولكني أكرهـه هذه الأيـام خوفًا من احتـلال الكوابيس أحلامـي، وكأني مازلتُ في قلـب المعركة ولم أفارق المقاتلين والجرحى. أبحث عن قصـة تبعث في قلبي البهجة وتسـتدعي دثـار النوم من سـراديب روحي ليسـدل سـتائره على وجه القمر، فأفتش في المواقع والمدونات فأقرأ هذه المسرحية التي اشـترك في حبـك خيوطهـا جمهور لا يعـرف بعضـه البعض ولكن يشترك في الدم الخفيف وروح السخرية التي أصبحت بعد الثورة ولا أكثر جرأة ، وتخيل الجمهور أبطالاً لهذه المسـرحية وحوارات بينهم.

تقول مقدمة المسرحية :

«انتشـرت منذ أمس أخبار على صفحات الفيس بوك تفيد بسرقة حـذاء المشـير حسـين طنطـاوى رئيسـ المجلسـ الأعلـى للقوات المسـلحة عقب أدائه لصـلاة العيد، وكعادة المصـريين في اغتنام الفرصـ للتنكيـت امتـلأت الصـفحات بالتعليقـات السـاخرة على موضـوع سـرقة الحذاء، بينما ظهرت أكثر من أربع صفحات على الفيس بوك تعلن مسـئوليتها عن حادث سـرقة الحذاء: كل سـنة وأنتـم بخير ونترككم مع مسـرحية خيالية بشخصـيات من ابتكار القراء حول سرقة جزمة المشير.

– الرويـنـي: مدرعات تجوب القاهرة ليلاً في سـرية تامة بحثًا عن جزمة المشير.

– منصـور العيسـوى (تصـريح أول): المشـير معندوش جزمة أساسًا.

– العيسـوى (تصـريح ثانٍ): أساسًـا مفيش مشـير عشان يبقى فيه جزمة.

–العيسوي (بيان ثالث): إحنا معندناش جزم في مصر.

– عمرو مصطفى: الجزمة فوتوشوب.

- أحمد سبايدر: المشير جزمته اتسوقت ، أوقسوم بالله ياشعب ما أنت عاوف جزمة المشيو وايحه فين.

-عمرو مصطفى: اسم الفيلم الجديد بتاع أحمد حلمي (إكس لارج) هو كلمة سر عملية سرقة جزمة المشير.

- خبير استراتيجي: سرقة جزمة المشير مخطط لتقسيم مصر فردة يمين وفردة شمال.

-أسامة هيكل: نناشد المواطنين الشرفاء البحث عن جزمة المشير والإدلاء بأي معلومات عن السارق.

- مرتضى منصور: أنا عندى سيديهايه للى سرق الجزمة ومعايا مقاسه كمان.

- أحمد فؤاد نجم: يا بخت اللى سرق جزمة المشير والله عيل جريء دا أنا أخاف أسرق جزمة أمين شرطة.

- طارق الشناوي: المشير هينتج فيلم جديد اسمه (رُدَّ جزمتي).

-أحمد رجب: المشير سرق الثورة والشعب سرق الجزمة (يا خفيف دمك تقيل).

-التلفزيون المصرى: قلة مندسة وأصابع خفية تلعب فى جزمة المشير ولكن مازال الرباط شديدًا بين الجيش والشعب.

- توفيق عكاشـة: يا سيادة الموشـيير..مهو أنت يا خويا لو كنت واخدها تحت باطك وأنت داخل كدا هون مكنتش اتسرقت!

-عمرو مصـطفى: جزمة المشـير أساسا فوتوشـوب... مرسومة على رجله ولا يمكن سرقتها.

- هذا خبر كاذب من منظمة بيادة أون لاين لصـالح كوتشـيهات الأعداء.

-اللواء الفنجري(مشـيرًا بإصبعه): لن نسكت على أي محاولة للمساس بأمن و مقدرات الجزمة.

- التلفزيـون المصـري ينفي خبر اختفاء جزمة المشـير ويعرض فيديو قديما لها من حفل أكاديمية الشرطة.

-على فكرة بقى الجزمة ماتسـرقتش و لا حاجة، المشـير متعود ينزل من بيتهم حافى (نقلاًعن مصـدر عسـكرى ليسـرى فودة فى آخر كلام).

- مصـدرمطلع رفض ذكر اسـمه: الجيش حمى الثورة ولم يحم الجزمة...وزي ما مينا جيه ووحد القطرين، أكيد فيه بطل حييجي يوحد الفردتين.

- صفحة الحوادث: عصابة ولاد أبو إسماعيل أعلنت مسئوليتها

عن سـرقة جزمة المشـير وتطلب فدية ثلاثة ملايين دولار وتعطي مهلـة ٤٨ سـاعة وإلا سـيتم إعدامها فـورًا على مرأى ومسـمع من العالم كله وده آخر إنذار!

-البيـان رقم صـفر: بما أننـا حمينا الثورة ومش عارفين نحمي الجزمة فنناشـد شعب مصر الشـرفاء إللي يلاقي الجزمة يسلمها لأقرب وحدة شـرطة عسكرية وهنيًّالك يا فاعل الخير وإلا فالمشير مش هيعـرف يسـلم العهـدة وهتلبسـوه للأبـد... والله الموفـق والمستعان.

- قنـاة الجزيـرة: خـبر عاجل:بعـد إذاعـة البيـان مباشـرة أعـداد هائلة مـن الجزم تنهـال بغزارة علـى المجلس العسـكري.

- لجنه تقصّي الحقائق: لقد تمت سرقة جزمة المشير وهو لابسها.

- جبهة تحرير المصريين تعلن عبرموقع يوتيوب مسؤوليتها عن سرقة الجزمة.

انتهت المسـرحية والحـوار الخيالي وبدأت مسـرحية أخرى للرد على تلك السخرية والتنكيت.

فعلق ثامر قائلاً :

- إيه الهبل ده احترموا أنفسكم جاتكم القرف!

وتعلق صفحة آسفين يا ريس :

- التريقة والإشاعات وصلت لحد الرجل اللي مرضيش يضرب في شعب مصر زي ماضرب القذافي وبشار وصالح في شعوبهم.

وبأسى تكتب صفحة الشعب والجيش يد واحدة:

- ياخسارة يامصر... للأسف بقينا فى زمن الهيافة والهبل بعد زمن الاستبداد والجهل.

أغلق الكمبيوتر بسرعة قبل أن تذهب الطرافة وتأتي الحماقة، وأغلق عينيَّ واستسلم باشتهاء إلى النوم.

الهوامش:

(١) يركز جون بول سارتر(١٩٠٥-١٩٨٠)على المأزق أو الورطة لأبطاله في مسرحياته التي تدور معظمها حول الجهد الذي يبذله المرء ليختار حياته وأسلوبها كما يرغب ،والصراع الذي ينتج من القوى التقليدية في العالم التقليدي الذي يوقع البطل في مأزق ويحاول محاصرته والإيقاع به

(٢) الفوائد لابن القيم (١/٩٨) .

(٣) الفوائد لإبن القيم (١/٩٨).



النوم يخاصم عينيّ طيلة الليل، فأصوات سيارات الإسعاف تجوب شوارع بنغازي ودويُّ المدافع في اتجاهات عديدة وأزيز طائرة عن بُعْد .هذا أمرغريب بل ونادر منذ حظر الطيران في الأجواء الليبية، لم أعد أفكر إذا ما كنت خائفة أم لا ، اللّحظة تتطلب القرار السليم ،والحكمة الآن أن نغادر بنغازي. وتطوع لنقلي إلى طبرق الهادي وهو عميد التوانسة في المدينة بحكم وجوده بها لما يزيد على عشرين عامًا. رفض الهادي الخروج مثل بقية التونسيين والجاليات العاملة في ليبيا والتي غادرتها فور اندلاع الثورة. فهو يمتلك ويدير بالمشاركة مع ليبيين عددًا من المحالّ التي تبيع الملابس والسلع المعمرة . ولما اشتدت الأزمة وزاد الهجوم على بنغازي من كتائب القذافي وبدأت العديد من العائلات الليبية بدورها في الهجرة إلى مصر وتونس وأوروبا، فكر بدوره في العودة إلى بلده تونس، ولكن الأمر يتطلب أن يجمع رأسماله من السوق وعرض بيع المحالّ بالسلع التي بداخلها بأرخص الأسعار دون أن يجد إستجابة تذكر. فالسيولة تُعْوِز الليبيين في تلك الظروف الصعبة. قرر الهادي أن يبقى وينسى فكرة العودة نهائيًا وربط مصيره بمصير الليبيين الذين عاش وسطهم طيلة السنوات الماضية كصاحب أرض وأخ وصديق، ولم يشعر بالغربة أو أن هناك تمييزًا ضده. وظل الهادي يؤدي أدوارًا

مختلفة تجاه محاولات إجلاء التونسيين عبر باخرة الحبيب التي رست في ميناء بنغازي فقام الهادي بالتنسيق مع أفراد الجالية كافة، خاصة عدد من المعلمين المنتشرين في أماكن متفرقة وبعيدة وحاول أقصى جهده ليتمكن الجميع من المغادرة،غير أن فاطمة ووالدتها لم تلحقا بالباخرة. وفاطمة هي مُدرِّسة تعمل في منطقة الجفرة الواقعة في قلب الصحراء الجنوبية الليبية والتي تبعد نحو ثلاثمائة كيلومتر جنوب سرت، كما أن هناك ثلاثة مدرسين يعملون في ودَّانِ وهون وزلة – وهي مدن رئيسة تابعة للجفرة أيضًا – لم يعودوا وانقطع الاتصال بهم وهو ما ضاعف من كدر الهادي.

ولن أنسى نظرات الحزن وخيبة الأمل التي استبدت به، فكأنما حاول إنقاذ غريق ولم ينجح.

ظللت أبحث عن توثيق قصص التوانسة الباقين في بنغازي ومدن أخرى أو الذين قرّروا العودة بالبر عن طريق مصر بعد أن تأخروا عن الباخرة الحبيب فغادرت بدونهم. ويمدني الهادي بفيديو صوّره عشية اندلاع مظاهرات السابع عشر من فبراير لشاب تونسي وآخر مصري رأساهما منفصلان، ورغم تحذيري مسبقًا من بشاعة الصور إلا أنّي أجهشت بالبكاء في صرخة الدهشة

وشعرت بالغثيان لهول الجريمة البشعة التي ارتكبتها الأجهزة الأمنية التابعة للقذافي. وعرفت كل التفاصيل عن الشاب التونسي الشهيد والمفاجأة كونه بلدياتي يعني مسقط رأسنا صفاقس، وقد تم دفنه في مقابر بنغازي جنبًا إلى جنب مع الشهيد المصري، وشهداء المدينة لتختلط دماؤهم جميعا وينضموا إلى قائمة طويلة من ضحايا القمع الذي ارتكبه القذافي على امتداد أربعة عقود.

في الطريق إلى الكورنيش سار ثلاثتنا، الهادي والكاميرا مان وأنا، دون أي ينبس أحدنا بكلمة. وقبل أن نصل إلى مبنى وزارة العدل والمركز الإعلامي أشار الهادي إلى شيخ يرتدي ملابس تقليدية أنيقة أشعرتني بالأُلْفة لأن والدي تخصص في صنعها وأصدقاؤه من تجار ليبيا يترددون عليه لشراء تلك الفرملات والبرانس والسراول العربي ، وقال الهادي: هذا أحد شيوخ قبيلة القفافدة الذين انضم منهم العديد من الشخصيات إلى ثورة السابع عشر من فبراير. توقفت لتحية الشيخ وعرفته بنفسي فانفرجت أساريره مرحِّبًا بي، ومددت المكروفون للتسجيل فلم يمانع وعرفني بنفسه «عبد الرحيم أصنان»، وتحدث بلغة عربية جميلة عن مشاعر التضامن والإخاء بين الشعب التونسي والمصري في مساندة الليبيين في محنتهم ، باغتُّه بسؤال عن قرار الانضمام إلى الثورة والانسلاخ عن القذافي ، وهو القريب للعقيد، فأجاب بقصّة:

- القذاذفة عدة بطون مثل القحوص والأوملة والخطرة والطرشان ولا يمكن أن يكون هناك ليبي حر يقف ضد الحق، وقد عانى القذاذفة مثلما عانى بقية الشعب الليبي الجهل والفساد، واستشهد أبناؤنا، مثلهم مثل أبناء الشعب الليبي كلّه. والقذافي يرتكب جرائم بشعة تشيب لها الولدان. وآخر أخبار جرائمه في الأيام الماضية تفجيره لطائرة وهي تحلق في الجو خلال استعراض عسكري، كان بالطائرة قائد طيار من أبناء عمومته ولم يتردد لحظة في تنفيذ حكم الإعدام به في الجو؛ ليبعث رسالة تهديد وتخويف للضباط في القوات الجوية بأن مصيركم سيكون كمصير هذا الطيار الذي بلَغه إنه يفرغ الذخيرة بعيدًا عن التجمعات السكنية حتى لا يصيب شعبه فاعتبره خائنًا!

دخلت إلى المركز الإعلامي بعد أن فتّشني الشباب الذين يقفون على باب المبنى. المكان أصبح مستهدفًا بشدة لأنه يدير معركة أشرس من معركة السلاح. عبقريته بالنسبة لي ولغيري من الصحفيين أنه يتيح خدمة الإنترنت بعد قطع خطوط الاتصال التي مازالت طرابلس تتحكم فيها . عجزت ارسال التقرير من خلال القمر الصناعي ، فالوكالات التي اتخذت من فندق تبستي مقرًا لها غادرت بنغازي ، وكان اليأس قد دبّ في نفسي . سألت أحد المهندسين الليبيين المشرف على خدمة الإنترنت إذا ما كان

بالإمكان إرسال التقرير بالإنترنت.. قصصت عليه كيف غادرت الوكالات التي كانت تؤمِّن موضوع الإرسال بالقمر الصناعي. يبدو أن الخوف وراء الهروب والتضحية بالأرباح الهائلة التي يحققونها من بيع هذه الخدمات في مناطق الحرب . قادني المهندس إلى شاب آخر وجهه مألوف تعلوه إبتسامة تبعث على الاطمئنان وكأنني قابلته من قبل ، قدمه قائلاً محمد نبوس، صاحب قناة ليبيا الحرة على الإنترنت تبث برامجها مباشرة من بنغازي منذ اندلاع ثورة ١٧ فبراير.

شعرت أني قد اغتنيت ذلك اليوم وطوال الرحلة بمعرفة شخصية بمثل هذا الثراء النفسي والإنساني والإرادة والعطاء وعشق الوطن، برغم سنه الصغيرة التي لم تتجاوز الثلاثين فهو يتصرف بخبرة كهل متمرّس .عرض نبوس مساعدتي على الفور فهو يملك برنامج الكمبيوتر المخصص للإرسال وسيستغرق الأمر وقتًا أطول من الإرسال بالقمر الصناعي. انتشلني من اليأس،فقمت ببعض الإجراءات لتأمين عملية الإرسال الإليكترونيّة، ثم جلست بجواره أتأمل إنجاز المهمة ونتبادل الدردشة. عرفت أنه مهندس لكنه قرر أن يصبح صحفيًا عندما شعر بالحاجة الماسة لإيصال ما يحدث في بلده من هجوم عنيف من قِبل الكتائب التي قطعت الإنترنت والاتصالات واتخذت كافة الإجراءات لمنع أي إتصال من الثوار بالعالم الخارجي، فأسهم في إنشاء مركز قيادة في قاعة المحكمة في

الأيـام الأولى للثورة . سـألني عن موطني فلمـا عرف أنهما تونس ومصـر، قال إنـه زارهما عدة مرات مع زوجتـه الأجنبية بريديتا، ثم أضاف في نبرة حياء ممزوجة بالفرحة أنه متشوق إلى وصول ابنته الأولى بعد أقل من اثني عشـر أسبوعًا وتمنى أن يكون نظام القذافي قد إنتهى عندما تحل المولودة بالدنيا، وبعد أن علم بأسماء أبنائي قال أيضًا إنه اختار لها اسم «ميار».. وأشار إلى أنه على علم بأن نظام القذافي يتعقبه وأن حياة اللّيبيين رخيصـة جدًا بالنسبة له لكن أكد إنه مستعد لهذه التضحية . ثم أضاف: «لست خائفًا من الموت لكنني خائف من أن نخسر المعركة !»

طـال الوقـت ولم أكن أرغب أن يلهيه وجـودي بجواره عن إكمال العمل ، فأخـذت أتفقّد المواقع الإليكترونيـة، وعرّجت على الموقع الإخبـاري لوكالـة رويترز للأنباء فقـرأت هذا الخـبر الذي حرره برايان روهان:

«ظهـرت قطـع مـن مجموعة ضـخمة لا تقـدر بثمن مـن العملات المعدنية القديمة والمجوهرات والتماثيل النادرة التي نُهبت من قبو أحد البنوك في شرق ليبيا في غمرة الفوضى التي صاحبت الانتفاضة ضد حكم القذافي في السوق المحلية والتي يجري نقلها إلى الخارج. وكان لصوص قد سرقوا نحو ثمانية آلاف قطعة بعد أن أحدثوا ثقبًا في قبو البنك الخرساني ببنغازي في الأيام الأولى لأعمال شغب شهدتها الثـورة بعـد أن امتدت النيران من مقر مجاور للشـرطة السـرية.

وقال يوسف بن نصر المدير بمراقبة الآثار في المدينة التي بُنيت على موقع يحمل اسم بنغازي العتيقة أو يوسبريدس حين أسسها الإغريق القدماء في القرن السادس قبل الميلاد إن هذه كارثة».

بسرعة التقطت هذه القضية المهمة التي تستحق التحقيق فيها وتصوير ريبورتاج عنها . أفضل شخص للمساعدة هو الهادي. استأذنت من محمد أن أخرج لتصوير التقرير . فارتاح لأنني سأتخلص من ضغط الانتظار واتفقت معه على العودة إليه بعد انتهاء التصوير ،وسلمته فلاشة كينج ستون حتى يحفظ عليها الريبورتاج بعد إرساله .

خرجت للبحث عن هادي بجوار محالّ للأكل ومقاهٍ على ملك لمجموعة من التونسيين، فهم يعرفون طريقه في ظل هذه الظروف.

انطلقنا إلى عدد من السكان المقيمين في الحي المطل على البحر. شققنا شارعًا طويلاً مستقيمًا، يبدو بلا نهاية. وبينما الرياح تهب عاتية تلهو بخطانا وتقرقع شبابيك البيوت في الأحياء المجاورة. مررنا ببعض الدكاكين المفتوحة، غالبيتها تبيع كروت شحن التليفون وآخر لصيانة التلفزيونات والغسالات ..نتلمس طريقنا بصعوبة فالأرصفة مكسرة وأحجارها منزوعة ومياه الصرف تُغْرق الشوارع .

توقفنا عند بيت كبير وعتيق، بابه خشبي أبيض اللون مثبت عليه يد حديدية زرقاء للطَّرْق، يشبه أبواب تونس. دخل الهادي بينما انتظرته في الخارج. وسرعان ما خرجت سيدة تتدلى الأمومة من بين جنباتها، وفتحت ذراعيها للترحيب بي كما تتفتح أزهار المساءات. ولجت معها إلى الوسطِية التي تفتح عليها غرف البيت وجلست على أريكة خشبية عليها نقوش جميلة مجوفة الحواف. تعرفت إلى خالد محمد خبير الآثار الذي جلس الهادي بجانبه في أريكة مقابلة.

وحكى خالد كيف تعرضت الآثار إلى النهب والتخريب خلال الشهرين الماضيين، وكيف قام مع شبان من الكشافة بنقل عدد من القطع الأثرية إلى بنك في المدينة للمحافظة عليها من السرقات. أضاف أن لصوصًا هاجموا هذا البنك حين حلت الفوضى في بنغازي اقتحمت حشود مباني أمنية لتحرير سجناء سياسيين. واستغل مجرمون وقت الهروب الجماعي لمساجين من سجن قريب للانقضاض على البنك وفُقدت عملات أثرية من ضمن السرقات. الباحث في الآثار خالد محمد أنشأ مدونة للتعريف بتاريخ ليبيا وحضارتها عبر العصور المختلفة ومن أجل خلق وعي أثري وثقافي من شأنه حماية تلك الآثار، وتطوير الدراسات الأثرية وتسجيل القطع وتبادل المعلومات حول الكنوز الموجودة في المتاحف لمنع

سـرقتها وتهريبهـا خارج الحـدود والاتجار فيهـا. ويقول الخبير إن معظـم الآثـار اللّيبيـة حالفها الحظ ولم تتضـرر بفضـل العمل الـدؤوب لأشـخاص يعشـقون التاريخ وكرسـوا جهودهـم لتأمين قطـع من الـتراث اللّيبي في صـناديق أودعوها البيـوت والمكاتب. غـير أن المجموعة التي كانت في مصـرف بنغـازي لم يحالفها نفس الحظ. فالمعلومـات تدل على أن بعض المكتشـفات وجدت طريقها إلى الأسـواق، فظهرت في مصـر بعض القطع الأثرية التي أودعت قبـو أحـد البنـوك في بنغـازي، حيـث شـوهدت مئـات العمـلات الذهبية والفضـية من مقتنيات الكنـز المفقود مؤخرًا لدى تاجر من الإسكندرية ، وصلتني هذه المعلومات المؤكدة من ليبيين يعيشون هناك وطلبنا منهم تتبع المقتنيات. أنهيت التصـوير مع الباحث في الآثار وودعته على وعد بلقاءات أخرى، وخرجت في صحبة هادي نبحث استكمال قصة الكنز المفقود.

نصـل إلى مبنى كبير به المصرف التجاري اللّيبي. البهو العثماني للمبنى تتناثر به بقايا رماد وعلامات احتراق قديمة على الأبواب أما الشـبابيك فمازالت عارية من زجاجهـا ، ولاتزال الأقبية تحت الأرضـ مفتوحـة يلفّهـا الظلام وتوجد في بعضـها سـجلات مرتبة بعناية للتعاملات المصـرفية مع العملاء. يقول حراس المبنى وهم تلاميذ وطلبة صـغار السـن إنه على عمق أسـفل البنك لايزال قبو

كبير مغلقًا ويوجد به إزميل محشور بين الحديد والطوب ،وذكروا أنهم يتناوبون على الحراسة والتأمين منذ اكتشفوا وجود عدة محاولات فاشلة لفتحه. في الطابقَ الذي يعلو القبو تظهر الفتحة التي تتسع لدخول إنسان استخدمها اللّصوص في إختراق السقف الخرساني المقوًى، وهو ما احتاج إما إلى معدات ثقب كهربائية أو أيامًا من الحفر اليدوي الشاقّ.

اتجهنا بعد ذلك إلى السوق نبحث عن العملات البرونزية التي شاهدها مراسل وكالة رويترز مخزّنة في حجرة خلفية بمتجر للمجوهرات في سوق بنغازي. قال صاحب متجر المشغولات الذهبية إن قطع الآثار ليست بحوزته الآن. لقد أصبحت في أيدٍ أمينة! هكذا ردّ عندما ألححت بالسؤال عن هوية من آلت إليهم تلك العملات، فأوضح أنهم شخصيات من المجلس الانتقالي الذي يقدر قيمتها ويدرك أن عمرتلك العملات يتجاوز الألفيتين وأنها كنز من تاريخ ليبيا ولا تقدر بمال. ولم يؤكد الخبر أي شخص من المجلس عندما بحثنا عن الحقيقة.

المسؤولون الليبيّون في المجلس الانتقالي لديهم من المصائب ما يلهيهم عن البحث عن آثار مفقودة..«ليس في وسعنا القيام بالكثير باستثناء أن نطلب من المؤسسات على مستوى العالم والإنتروبول مساعدتنا في استعادة الآثار إذا ظهرت..» هكذا علقت الدكتورة سلوى الدغيلي العضوة بالمجلس الإنتقالي والمسؤولة عن الشؤون

القانونية والإستشارية؛ مشيرة إلى أن ليبيين يعيشون في مصر جمعوا أموالاً لشراء تمثال إله الحب كيوبيد الذي عُثر عليه في سوق بالإسكندرية..هذا ما حملته الأخبارعن مصير الآثار المسروقة.

ما الذي اختلف بين الأمس واليوم ؟ لقد انتقلت المجموعة التي سرقت من بنغازي من يد إلى أخرى بالفعل عدة مرات في القرن العشرين واستولى على معظمها مسؤولون إيطاليون إبان الحرب العالمية الثانية. أخذ الدكتاتور بنيتو موسوليني القطع الأثرية كغنيمة باعتبارها جزءًا من إمبراطوريته الرومانية الجديدة. وعرضت في معرض للمقتنيات الاستعمارية في إيطاليا عام ١٩٤٠ قبل أن تتم إعادتها إلى ليبيا المستقلة. وفي عهد القذافي انتهى المطاف بالمسروقات في سويسرا بشكل غامض، ولحسن الحظ حصلت ليبيا على مساعدة مؤسسات دولية هناك فاشترتها لها وتمت استعادتها.

ربما لا نعرف عن تاريخ ليبيا وحضارتها الكثير رغم كونها مجاورة لنا. قد يعود ذلك لماكينة الدعاية التي كانت تروج للمرحلة المعاصرة المبتسرة التي حكم فيها القذافي وكأنه مؤسس ليبيا من الصفر، أو ربما السبب في التقصير يعود إلينا كإعلاميين أيضًا فمنظومة الدعاية للجماهيرية العظمى وغسل الدماغ قادتنا إلى النفور من ليبيا كلها التي لا أحفظ لها في ذاكرتي إلا زعيم حرب

التحرير الشيخ عمر المختار، وآخر حاكم لها قبل انقلاب القذافي الملك محمد إدريس السنوسي الذي أسَّس لعرشه وأعلن استقلال ليبيا سنة ١٩٥١. بينما لو عدنا إلى التاريخ فسنجد أن ليبيا قد حكمتها إمبراطوريات متعاقبة على مدى قرون وبها عدد من أجمل الآثار اليونانية والرومانية والتي لم تُفْسدها الحياة الحديثة إلى حد كبير ولم يَرْتَدها السائحون . ومن المفارقات أن هناك عددًا من الأثريين في العالم متخصصون في الآثار اللّيبية، منهم عالم الآثار البريطاني بول بينيت.

شباب الكشافة وتلاميذ المدارس ينتشرون الآن في عدة مواقع لحراسة الآثار لكن المتاحف في حالة رثة . وما العجب في ذلك إذا كانت المستشفيات والمؤسسات الحيوية متداعية. إنها الحرب لا تُبْقي ولا تذر!.

فرحت بالإنجاز بعد هذا اليوم الطويل والمثمر.عدت بحصيلة من الصور والحوارات تؤثث لريبورتاج غنيّ بالمعلومات والشهادات الحية.

مررت على محمد نبوس في طريق العودة إلى الفندق. كان قد انتهى من العمل . وشعرت بالإشفاق عليه، فقد كلّف نفسه مساعدتي وقضى عدة ساعات في إرسال التقرير وبذل جهدًا فدائيًا في تأمين

وصـول العمل إلى القناة في الموعد. شـكرته فابتسم وهو يودعني قائلا :

- سوف أشاهده .. متى تُذاع النشرة ؟

أجبت :

- في الثامنة مساء وتُعاد في منتصف الليل.

ثم حرص على التأكد من وجود سـيارة ستوصـلني إلى الفندق ، ومن أمام المبنى القديم للأمن الوطني تفرق كل منا إلى طريقه.

قضيت ليلتي في عمل المونتاج للتقرير الجديد. كنت قلقة ومتوترة ربمـا بسـبب سـفر أغلـب الأطقـم التلفزيونيـة وخاصـة الفنيـين والمهندسـين بوحـدات الإرسـال ، أو ربمـا لأن التحـركات كثـيرة ومريبـة حـول الفندق في ذلك المسـاء وفي محيط المركـز الإعلامي. قلت في نفسـي سـأكمل يومـين فقط من التصـوير ثم أنسـحب إلى طبرق، وهناك يمكن أن أستكمل المونتاج ومن ثَم إرسال التقارير.

اليومـان أصـبحا أسـبوعًا والطمع في المزيد من القصـص تحول مـع الأيام إلـى تعاطف وألفة نشـأت بيني وبين الناس والأمكنة. وأصـبحت أجلـد الضـمير كلما فكرت في ضـرورة الرحيـل قبل أن يتحقق النصـر الكامل . حتى كان ذلك الصـباح المسـعور الذي لم

تغرد عصافيره. حملت الأخبار نبأ حزينًا فاجأ الليبيين وثوارهم وهزمني: مقتل الشاب الذي شغل بال العقيد القذافي وأقضّ مضجعه، إنه محمد نبوس الذي كان يقضي الوقت في جمع الشرائط والصور والفيديوات من هنا وهناك ليبثها عبر الإنترنت إلى مواقع الأخبار الليبية واليوتيوب ومواقع التواصل الاجتماعي. ومنها وبفضله كانت وسائل الإعلام في القارات الخمس تعلم بالصوت والصورة ما يحدث تمامًا داخل بلاد لم يُمهل نبوس فسحة حتى يراها وقد تحررت من طاغيتها الأكبر! .

اختارت يد الغدر أن تغتال مؤسس فضائية ليبيا الحرة في نفس يوم إفتتاحها رسميًا وبدء بثها المباشر. قضى محمد نبوس بقصف مدفعي شنه القذافيون على بنغازي بعد ساعات قليلة من قيامه ببث أول تقرير في القناة التلفزيونية، وكان التقرير من إعداده، حيث تحول فيه إلى محرر ميداني تجول بالكاميرا ليبث صورًا ولقطات تؤكد للمشاهدين ما أحدثته القوات الموالية للقذافي من خراب رافق اعتداءاتها الدموية على المدنيين في أحياء المدينة. وفي التقرير ظهر محمد وهو يتجول في الشوارع بين أبنية شبه متهدمة، ويمر بالعدسة على السيارات وقد بدت محترقة والدخان يتصاعد منها، ليقدم الدليل لمشاهديه على وحشية النظام. ثم توقف كل بث في القناة ولم يظهر على شاشتها سوى تقرير نبوس

المتلفز، وتخللته لقطة صـوتية من دون صورة وقت القصف وفيه تسمع أصوات من كانوا مع نبوس يسألونه عما حدث، ومن بعدها علموا بأنه سـقط قتيلاً. فجأة سـمع مشاهدو القناة صوتًا لفتاة في العشرينات من عمرها، وراحت تسأل عبر الشاشة بإنكليزية متقنة تماما: «هل هناك من يسـمعني؟!»، ثم مرت لحظات صمت تخللتها تنهدات متسارعة، وبعدها تابع الصوت المتهدج يقول:

أريد أن أخبركم بأن «مو» قد غاب عنا.. مضى في سبيل قضيته..

ثم أردف الصوت بعربية متعثرة:

- لا اله الله محمد رسول الله!

لم أفكـر يومًا في قتل أحد ، بالأسـاس لم أكن غاضـبة في يوم على أحد إلى الحد الذي يمرض خيالي فيتمنى القتل ويعشش في الحقد، لم أفكـر يومًا في قهر أحـد أو حتى إيذائه ، فكيف يمكن أن يثور هذا التسـونامي داخلي فأختـار- لو بيدي - أن أقتـل ذلك الجرذ الذي أذاقنا الموت والذل والهوان!

سـأوقف نبض قلبي وأغلق على أحلامي ، سأبوّر أرضي وأجفّف آباري، فالأرض التي لا تحلّق فوقها الملائكة لا تسـتحقّ أن ننسـج سـماءها ونعطر هواءها ونروي عطشها. لست شَغُوفة بشيء آخر منذ اللّحظة وحتى آخر العُمر سوى بأن أراه مقهورًا، معذبًا مكلومًا

ومذبوحًا. امتطيت ظهر التشفّي وأصبح قلبي رماحًا مُشْرَعة. الحرف كفن مدهش والمطر المتعثر في الغيمة ينتفض فتنفرط عناقيد الغضب وتنهار جبال الملح. كل المآذن والمنابر والشاشات ترنو إليك أيها الشهيد!.

يَا هَذِهِ الصّرخَاتُ قُومِي وَاقْلِبِي
مِيزَانَ جَورٍ لَمْ يَجِدْ مَنْ يَرْفَعُهْ
مَنَحُوكَ بَيضَةَ عِشْقِهِمْ وَتَصَبّرُوا
صَارُوا يَئِنُّونَ امْتِثَالاً لِلرّغِيفْ
وَلّوكَ أَنْفَ ذُلولِهِمْ وَتَغَبّرُوا
فَجَمَعْتَ مِنْ أَشْنَافِهِمْ أَقْفَالَهَا
وَجَلَسْتَ تَحْلِبُ مِنْ فَسَائِلِ حُلْمِهِمْ
عَرَقًا كَرَعْتَ نَبِيذَهُ وَالسُّحْتَ مِنْ عُنُقِ الضّعِيفْ[1].

الهوامش:

(١) صقر أبو عيدة- شاعر فلسطيني(من قصيدة: رَحَلُوا فَتَرَنّمَتْ لُغَةُ الزُّهُور).



انتزعتْنــي من الفراش والنوم مازال يطبق علــى جفوني. تغيرت عاداتي منذ اســتعمرت الأدوية جسدي. أصــبحت أنام بعد الفجر وأســتيقظ مع أذان الظهر. لكن اليوم لابدّ أن أعود لبعض النشــاط عندمــا كنــت أصــحو مع تلاميــذ المدارس وقبــل أن يـؤذن الديك كوكوكوكــو. اليوم عرس مصــر الحقيقــي، فلابد أن أدلي بصــوتي في الانتخابــات. نتائج إنتخابات الدوائر الســابقة تشــير إلى تقدم الإسلاميّين. فوز حزب الحرية والعدالة كان متوقعًا أما السلفيون فهم المفاجأة ..غير السارة للعديدين.

صوت الريح وهي تقرع النوافذ أيقظني قبل أن يرن منبه تليفون الموبايــل. هذا الجهاز أصــبح بيتي الذي أســكن فيــه ومكتبي الذي أعمــل منه، وصــديقي الذي أقضــي معه غالب أوقاتــي، له وظائف متنوعة، فهو يوقظني وأختار الأغنية التي أحبها حتى تطرد النوم من رأســي بتؤدة ، وهو شُبّاكي إلى العالم حيث أعرف كل الأخبار مــن خلاله وأتصــفح الإنترنت حتى من قبل أن أنهض من الســرير وأعرف الوقت وينبهني إلى المواعيد ..إنه عبقري بحجم اليد يوفر لي كل مــا أريــده دون أن يزعجنــي برأيــه بل يشــجع فيَّ دكتاتورية وكسلاً ممتعين!

الريح في الخــارج تزمجر فأمســك ببقايا ذكرياتي خوفًا من أن تلج

من ثقوب أبوابها فتبعثرها. أمي هاتفتني وأعطتني التعليمات بألا أخرج من البيت اليوم حتى لا يتسلّى الهواء على صحتي فأنتكس. داعبتها قائلة إني أحتاج أن أطير على بساط الريح . وعندما لم أجد مكانا للدعابة عندها راضيتها متظاهرة بطاعة أوامرها بينما كنت قد قررت بالفعل أن أبدأ في ارتداء ملابسي بعد أن أنتهي من قراءة آخر الأخبار.

يشد انتباهي خبر مستعجل يطيِّره عدد من وكالات الأنباء العالمية يشير إلى حوار تنفرد بنشره مجلة الثقافة الجديدة في عددها الجديد على لسان الشاب الذي حاول قتل نجيب محفوظ قبل سبعة عشرة عامًا، وفيه يعترف بأن الجماعة الإسلامية شرفته بتلك المهمة !.

ما الرسالة التي تسعى هذه الوكالات إلى إيصالها في ذكرى مئوية نجيب محفوظ والتي تتزامن مع الانتخابات البرلمانية ؟؟ ..هل تريد التأكيد على اتجاه الإسلاميين بمختلف أطيافهم لحصد نسبة كبيرة من الأصوات.. هل تريد القول إن ثورات الربيع العربي يقطف ثمارها الإسلاميون.. هل ضاعت جهود المفكرين والتنويريين عندما حانت لحظة القطف والحساب؟!

رئيس إتحاد كُتَّاب مصر والعرب محمد سلماوي هو صاحب

الحوار السبق مع محمد ناجي محمد مصطفى الذي حاول قتل محفوظ ، وهو شاب محدود التعليم حاصل على شهادة متوسطة ويعمل صنائعيًا متخصصًا في إصلاح أجهزة إلكترونية واتجه «إلى الله منذ أربع سنوات» كما يقول في حواره. ويروي كيف قرأ كتبًا كثيرة خاصة بقادة الجماعة الإسلامية، منهم عمر عبدالرحمن المعتقل في الولايات المتحدة الأمريكية وناجح إبراهيم عضو مجلس شورى الجماعة وعبود الزمر الذي خرج من المعتقل بعد أن أنهى فترة عقوبته بعد إدانته بالاشتراك في اغتيال الرئيس الأسبق أنور السادات عام ١٩٨١.

سلماوي أدار حوارًا غير مباشر بين محفوظ والشاب الذي حاول إغتياله في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٩٤ وذكر إن محمد ناجي اعترف له بأنه لم يقرأ شيئًا لمحفوظ وعقب على سؤاله قائلاً.. «أستغفر الله» مشددا على انه لا يحتاج إلى قراءة أعمال محفوظ. ويشرح الشاب كيف أنه حاول اغتيال محفوظ لأنه ينفذ أوامر أمير الجماعة، والتي صدرت بناء على فتاوي الشيخ عمر عبد الرحمن.

قادة الجماعة الإسلامية هم طلقاء الآن ، خرجوا من المعتقلات بعد ثورة ٢٥ يناير. ويدينون للثورة بحياتهم وبتكوين أحزاب سياسية وخوض الانتخابات التشريعية.

ولكن العديد من الثوار والقوى السياسية في المقابل يندبون حظهم على أن الثورة أخرجت التيارات الإسلامية من القمقم، بمن في ذلك الذين كانوا ينافقون أمن الدولة حتى يسلموا من بطش رجالها. والكثير من القوى اليسارية والليبرالية تذرف الدموع على أن الثورات العربية أوصلت الإسلاميين إلى الحكم ، وكأن قدرهم أن يظلوا في صفوف المعارضة.

على بُعد بضع خطوات من مدرسة القبة للبنات -المقر الانتخابي الذي سأدلي فيه بصوتي- قابلتني تجمعات من النساء يسرن في مسيرة صغيرة ويهتفن «إسلامية إسلامية ..». لم يمنعهن المطر من الخروج بأعداد ضخمة. ولم يضايقني في هذا المشهد سوى الطول الزائد لأثواب البعض بحيث كانت تكنس الشوارع المليئة بالقاذورات. وتضطر النسوة إلى التفرق مؤقتًا حتى يجتزن بركة من مياه عطنة راكدة من مخلفات ماسورة صرف انفجرت قبل بضعة أيام واتسعت البركة مع هطول المطر فانسدّت الأزقة .

لمحتُ أم محمّد وهي تسير في ركب النسوة وتفصلها بضع خطوات عنهن مرددة «إسلامية إسلامية»..ثم تكمل بمفردها: «عليه الصلاة والسلام !».

أم محمد هي بائعة الخضر أمام محطة مترو حمامات القبة،

أسكنتُها أحد عوالمي منذ فترة، وهي بمثابة ترمومتر أقيس بها قسوة الأجواء السياسية واحتدام الوضع الاجتماعي والاقتصادي ولطالما كانت بطلة لمقالاتي ، فهي التي تنبأت بسقوط حكم مبارك بعد الفضيحة المدوية لتزوير انتخابات ٢٠١١. يومها قالت إن الفقر أصبح لدى الفقراء على اللّحم ، لم أتفهّم ما تعنيه، فروت لي إن ابنها وأبناء الفقراء أصبحوا يذهبون إلى المدرسة بدون ملابس داخلية يعني «عاللحم». أم محمد كانت تعرف إن الفقر الذي يوجع القلب ويصل إلى اللحم والعظم لن يستمر في التآكل الداخلي وسوف ينفجر قريبًا . وصفت كيف تضاءل حُلمها منذ أن إرتفعت أسعار الخضر والفاكهة فلم تعد تستطيع أن تبيعها..حتى اختصر حلمها في توفير وجبة واحدة في اليوم..حلم الوجبتين والثلاثة أضحى من المستحيلات لأم محمد!.

سرعان ما لمحتني أم محمد فأسرعت في إتجاهي. لم تخطئني برغم أن الإيشارب يغطي رأسي ونصف جبهتي، والشحوب يعلو وجهي ويضيع ملامحي، والتورم بالرقبة وباليدين والساقين يجعلني مثل الديناصور المتداعي . كنت دائما أشعر لما أتأمل مرضى السرطان بعد جرعات الكيمو أننا مثل رهبان التبت، الرأس حليق والبشرة صفراء والوجه شاحب كأنه صائم الدهر كلّه.

- حمدلله على سلامتك يا دكتورة ، كنت غائبة عننا فين ؟؟.. بسم الله ماشاء الله وشك منور والحجاب زادك جمال ووقار والله.. متنسيش يا دكتورة تنتخبي الميزان!.

- من إمتى يا أم محمد بقيت ناشطة سياسية ؟

- أنا طول عمري بحب النشاط يا أستاذة ما إنت عارفة بصحى من الفجر وبروح السوق وبجري على أكل عيشي ولقمة عيالي ومفيش أحسن من اللي يعرف ربّنا ..إحنا كنا في كُفر واللي كانوا يحكمونا ميعرفوش الرحمة!

أمام باب المدرسة بسطت مجموعة من الشباب قطعة بلاستيك بطول طابور السيدات، وحموهن من المطر الغزير، بينما أسرع أحد أفراد الجيش لمساعدة سيدة مسنة وإنزالها من سيارة أجرة وإدخالها إلى اللّجنة لتقوم بالإدلاء بصوتها. وتك تك تك صوت كاميرات تأخذ الصور ..لا أدري أين كان المصورون يختفون وما كل هذه الشطارة !

كانت قطرات المياه فوق أسقف سيارات الميكروباص والتك تك كالدموع التي بكتها السماء. مازالت السماء تملؤها السحب السوداء وتغطي الأرض بأديم الظلام وتمتلئ عيونها بالدموع وتعد بالمزيد من الغضب. سبحان الله ، في تونس يفرح التوانسة

لنـزول المطر ويتبادلـون التهاني ويتمنـون اسـتمرارها وتكرارها، أما في مصـر فنزول المطر نذير للمشـاكل ولعنة السـماء التي تنزل بالفقراء!

أعيـاني الوقـوف في الطابـور الطويل وخرت سـاقي، وعندما حان دوري اكتشفت أن لجنتي دونًا عن أربع لجان أخرى في المدرسة لم يحضر القاضي المشرف عليها. فقررت أن أعود إلى المنزل وأحضر في اليـوم الموالي ربما تتوقف الأمطـار وتهدأ الريح الباردة. وجدت علـى باب الجـراج عشًـا دحرجتـه الريح علـى الأرض فتكسـرت البيضـة التـي كانت بالعشّ. حزنت لأن كل شـيء جميـل يمكن أن يتبـدد في لحظات، كنت أتابع اليمامة وهي تبني عشـها لكن الآن لا وجود لليمامة. يبدو أنها فزعت من الريح وتناثر ريشـها من شـدة الهواء والمطر فلاذت بالفرار تبحث عن مأوى.

شعرت بالبرد يتخلل أركاني ويسري في روحي، والطبيعة الجَوْعَى للفوضـى تتواطـأ ضـدي. احتميـت بالغرفـة والسـرير وفتحـت التلفزيون لأتابـع تغطيات الانتخابات في القنوات الإخبارية. ومع انتهاء النهار بدأت المعركة تشـتد سـخونتها واستُخدمت الأسلحة في بعض الدوائر في خناقات بين مرشحين وأنصارهم، والانتقادات والتجاوزات لا حصر لها.

فكرت أن أعطي صوتي لقائمة «الثورة مستمرة». البعض يعلق على صفحات الفيس بوك بأن أصواتنا ستتناثر مع الهواء!

وفي خاتمة هذا المشهد لم يصدق أحد النتيجة. فالأقباط أعطوا أصواتهم للمصريين الأحرار ولم يعطوا أصواتهم للإخوان، والوفديّون لم يعطوا أصواتهم للإخوان واليسار لم يُعطِ أصواته للإخوان والليبراليون لم يعطوا أصواتهم للإخوان ، والسلفيون أعطوا أصواتهم لقوائم حزب النور وحزب الإصلاح والفضيلة والأصالة ولم يعطوا أصواتهم للإخوان، وأغلبية المثقفين والكتاب لم يعطوا صوتهم للإخوان والعاملون في قطاع السياحة لم يعطوا أصواتهم للإخوان.. والنتيجة: اكتساح الإخوان في الإنتخابات .. اللغز الكبير يحتاج إلى من يفكّه: من أعطى صوته للإخوان إذن؟ «موش- فلة كبيرة» تكتب تويتاية: «هتجنن يا ناس!».

أما أنا فلم أكن مندهشة مثل الباقين، لأني أعرف إجابة السؤال اللّغز: «أم محمد وراء نجاح الإخوان!».

«واحد مخنوق»كتب على الفيس كلامًا يخنق – طبعًا هو مخنوق لازم يكتب كلامًا يخنق – قال:

– رسالة هامة إلى التيار المتأسلم،السلام عليكم ، مطلوب منكم الآتي : أن تتفرغوا لتنظيف العشوائيات من البرك والمستنقعات

قبل تنظيف الإعلانات من المشاهد المثيرة وأن تتفرغوا لحل مشكلة رغيف العيش قبل مشكلة حجاب المذيعات ومضيفات الطيران... أن تتفرغوا للضرب بيد من حديد على أيدي البلطجية قبل الضرب بنفس اليد على تاركي الصلاة. أن تتفرغوا لتربية النشء قبل تربية اللِّحَى... أن تتفرغوا لبناء شرطة مدنية تحترم الشعب وتطارد تجار السوق السوداء قبل إنشاء شرطة دينية تطارد المفطرين في رمضان... أن تتفرغوا لمراقبة أداء الحكومة قبل مراقبة أداء الناس للصلوات... أن تتفرغوا للتنقيب عن البترول والمعادن في صحاري مصر قبل التنقيب في كتب التراث عن الفتاوى... أن تتفرغوا لبناء المساكن لمحدودي الدخل قبل هدم الكنائس المخالفة... أن تتفرغوا لفتح أسواق جديدة للسياحة المصرية قبل فتح ملفات في أمن الدولة «الجديد» للعاملين بالسياحة ومراقبة ملابس السائحات... أن تتفرغوا لتعبئة الشعب خلف مشروع قومي تنموي قبل تعبئة الشرائط بالدروس والخطب الدينية.

ويرد شباب كثيرون على الأخ المخنوق فيطحنوه طحنًا ويتدهور مستوى الحوار على الصفحة وينقلب إلى شتيمة بالأب والأم وكل حركات الجسد القبيحة، حتى البنات لم يتعفف لسانهن من القباحة.

أما «قاهر الفلول» فيكتب تعليقا بدم بارد ويغرد خارج السرب

بعيدا عن وابل الشتائم على الصفحة:

- القوى التي تدعي إمتلاك السّماء وإحتكار تذاكر الدخول إلى الجنة تقول أنها الأجدر بحكم الأرض!

ويرد «نهرالنيل»(ربما تكون امرأة) بسؤال آخر:

- موش حنتقدم شوية بدل جمهوريات الموز دي؟ موش حترحمونا من التخلف بقه..أنتم سبب ما نحن فيه يا ثوار؟

ويرد «قاهر الفلول»:

- بطلوا شغل البردعاوية ده...محسّسينًا إن الجو صومالي ليه؟..متجيبي موزة؟

أما «أحمد الجمال» فينقل الحرب إلى جبهة أخرى، فيكتب:

-استمرارًا لتخلف البعض من مدعي التدين في الفضائيات، نفس الجملة يكررها صفوت حجازي: اللي مش عاجبه الإسلاميين يسيب البلد ويمشي... هو إيه الموضوع؟ هي مصر بقت شقة إيجار قديم واللي مش عاجبه يلم هدومه ويمشي؟.

كلمات الشيخ حجازي «راهب الثورة» تستخدم في جملة غير مفيدة.

وتعمل نائي «لايك» وشير وتكتب تعليقها:

– فاكرنها سايبه .. لا خلاص الشعب فاق ومش هيسمح باللي حصل إنه يتكرر تاني وتاني!

ويرد أحمد:

– بعد إيه يا ناني..بطلي تتكلمي تاني!

ويتحمس إسلام جمال ويعمل لايك لناني:

– أنتم ياشيوخ ...(حذفت الشتيمة عشان ميصحش) ..اللي مش عاجبه يسيب البلد ويمشي، يمشي يروح عند أصحابكم السعوديين اللي بترفعوا علم بلدهم بدل من علم بلدكم ...السعوديين اللي بتلبسوا الغترة الحمرا على رؤوسكم زيهم ، السعوديين اللي بتتكلموا بلهجتهم وطريقتهم، السعوديين اللي بتصوموا وتفطروا على رؤية هلالهم لو خالف رؤيتكم ... السعوديين اللي بيمولوكم وفاتحينلكم الفضائيات عشان تصدعونا ليل نهار... روحولهم هومة أولياء نعمتكم.

وتعليقا على الحوار يصلني رابط على الفيس من طارق فأفتحه:

– عن الدكتورمصطفى محمود –رحمه الله: «لا تخدعونا بهذا الزعم الكاذب بأنه لا إسلام بدون حكم إسلامى فهي كلمة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، قد حاربنا إسرائيل وحطمنا خط بارليف

وعبرنــا ســيناء دون أن ننقلب إلــى حكومة اســلامية، وقد حاربنا التتار وهزمناهم ونحن دولة مماليك . وحاربنا بقيادة صلاح الدين القائد الكردي وكسرنا الموجة الصليبية ودخلنا القدس ونحن دولة مدنية لا دولة إســلامية... وكنا مسلمين طوال الوقت وكنا نحارب دفاعًا عن الإسلام في فدائية وإخلاص بدون تلك الشكلية السياسية التى اسمها حكومة إسلامية ولم تقم للإسلام دولة إسلامية بالمعنى المفهوم إلا فى عهد الخلفاء الراشــدين ثم تحول الحكم الإســلامي إلى ملك عضــوض يتوارثــه خلفاء أكثرهم طغاة وفســقة وظلمة. لا تخدعونــا بهذا الزعم الكاذب بأنه لا إســلام بدون حكم إســلامى فهــى كلمة ظاهرهــا الرحمة وباطنهــا العذاب . والإســلام موجود بطول الدنيا وعرضــها وهو موجود كأعمــق ما يكون الإيمان بدون حاجــة إلــى تلك الأُطــر الشــكلية ...أغلقوا هذا البــاب الذى يدخل منه الانتهازيــون والمتآمرون والماكرون والكذبــة إنها كلمة جذابة كذابة يستعملها الكل كحصان طروادة ليدخل إلى البيت الإسلامي مــن بابه لينســفه مــن داخله وهو يلبــس عمامة الخلافــة ويحوقل ويبسمل بتسابيح الأولياء . إنها الثياب التنكرية للأعداء الجدد ... عن الدكتورمصطفى محمود (منقول).

طارق في الأيام الأخيرة دماؤه تغلي وغضبه يستعر حزنًا وكمدًا مــن تحالــف الأصــدقاء الناصــريين خــلال الإنتخابات مــع حزب

الحريـة والعدالة ، لم يتخيـل أن يحدث ذلك يومًا مـا ،لكن الثورة غيرت المفاهيم والتحالفات . وهو متدين جدًا بل إنه متشدد يرفض على سـبيل المثال فوائد البنوك... ولكنـه لا يرى الحلّ إلا في إقامة الدولة المدنيّة وقد واكب معارك خاضها الدكتورمصطفى محمود، بل ترافع عنه في عدة قضـايا جرّه إليهـا أقرب الجماعات إلى فكره وإتهمته بالكفر!.

ويعبر «معالي الباشا» في صفحة التواصل الاجتماعي عن ضيقه، فمنـذ فـوز الإخـوان بأغلبيـة المقاعـد في الانتخابـات التشـريعية أصـبح كرسـي الرئاسـة يداعب خيالهم فيجرّبون مع الرأي العام لعبة التصريحات التي تخلط الأوراق علّنا ننسى ما وعدوا به من عدم رغبتهم في الترشـح لمنصـب الرئيس وهـا إني أعيش على وقع تصـريحات الإخوان مع طلعة كل صـباح ما يلبثـوا أن ينفوها مع توسط الشمس كبد السماء.

الشعب يحترم جيشه كثيرًا ويقدره لكنه يخشى أن يبقى المجلس العسكري هو القوة السياسية التي تتحكم في توجيه الأمور خلال الفترة القادمة وما بعدها .

الثـورة تعنـي التقـدم ،الحق ،الخـير والجمـال والثـوار الذين إستُشهدوا من أجل قيم دافعوا عنها . لكن هناك مَنْ رسالتهم القتل وسـلاحهم الرصـاص ويواجهون ثورة رسـالتها الحياة والولادة

الجديدة لشعب يستحقها، سلاحهم الرصاص والثورة سلاحها الفكر.

أكتب «تويتاية»:@ تفتكروا مين الأقوى و مين اللي هيستمر: الرصاص أم الثورة؟

ترد تويتاية من «أمك الحاجة تفيدة»:

-إيه ..قلت إيه ..ثورة ..ده نوع دهان بوهية ده ..فوقو بقه وكفاية..!!

أصابني التعليق الساخر بالإحباط . إنه يوم رديء من الإحباط المتكرر، بعد أن قرأت ما كتبه محمد حسنين هيكل في سلسلة مقالاته عن الثورة ، إنه لا ينفك يروج لنفسه قامة لكل العصور ..فليكن كاتبا لكل وقت وحين ، لكن أيُعقل أن ينجح في الحفاظ على مصالحه طيلة نصف قرن . أبناؤه من أقرب الأصدقاء لجمال مبارك ولأبناء الرئيس السادات ، كنت أشاهد تشابك المصالح والصفقات واختلاط البزنس فيما بينهم.

لم يكن يقنعني وجيلي كله كاتب أكثر من محمد حسنين هيكل ، حان الوقت للتوقف والسؤال ، فالسؤال الآن أهم من الإجابات .

ومع كل تلك الأسئلة الكبيرة التي تتملكني كما تتملكني عفاريت كلماته ، فإنه يصور الواقع بعبقرية المخضرمين، يقول: «نحن وسط قفص حديدي نرقص فيه على البارود، وأقمنا حفلات

زار، وسط النار، والكل يصرخ، ويدور في مكانه، والجميع يدق على الدفوف، ويترنح.. لكن على البارود.. فأنا لا أعرف الكثير عن حفلات الزار، لكني أظنهم يستخرجون العفاريت فيها لكي يصرفوها بعد ذلك. والعفاريت كثيرة في ظروفنا، فهناك عفاريت أمريكية، وأخرى إسرائيلية، فليس من الطبيعي ولا من المعقول أن يحدث في مصر ما يحدث الآن، ثم نتصور أن مصر محصّنة ضد الطامعين والمتربصين من الجنّ والإنس، مع ملاحظة أن العفاريت حاضرة بشدة في الأساطير العربية.. ومن السهل أن تستخرج وتستحضر العفاريت.. ولكن كيف السبيل إلى صرفها؟».

انتفضت من السرير عندما تذكرت أني نسيت تناول الدواء الهرموني الذي سيصاحبني خلال السنوات القادمة، على أمل أن يتوقف زحف الأورام واستعمارها لجسدي.

قررت أن أغلق أبوابي على صفحات المرض حتى لا أتذكر من جديد ألمًا افترس شهورًا من عمري.

تليفون الموبايل يرنّ. أحمد الباز يذكّرني بموعد الدورات التدريبية للصحفيين الشبان. إختاروا أن يهدوني يوم السبت أسبوعيًا لأقضيه معهم، هو اليوم الأنسب للطلبة الذين مازالوا يكملون دراستهم. أطلقت عليه يوم تبادل الخبرات بدلاً من التدريب. أرتب أوراقي من جديد. يوم الثلاثاء سأخصصه مع المهندسة

هبة والدكتورة منى لزيارة أهالي الشهداء والمصابين. العدد كبير جدًا لكني سأبدأ بشروق فهي تداوم الاتصال بي وتطمئنني على أحوال والدتها وأختيها ..قالت في آخر مكالمة إن محافظ السويس إلتقى بأهالي الشهداء وبلغهم رسالة من المشير والجنزوري وأعلن بأنهما قررا زيادة مبلغ التعويض. سوف تُصرف خمسون ألف جنيه لأسرة كل شهيد. صوت شروق كان منكسرًا ولا تبدو عليها الفرحة بالخبر. قالت:

- محتاجين ٥٠٠ جنيه يا أبله عشان نجيب اللّبن لأختي والدواء لنينه عشان عيانة أوي. ماما بتقولك الفلوس دين لحد ما نصرف... مفيش قرش ساغ في البيت والمسئولين كل يوم يقولولنا الأسبوع الجاي!».

حال أغلب عائلات الشهداء في محافظات مصر مثل حال عائلة غريب عبد العزيز أول شهيد سويسي. يارب امنحني الفرصة والحماس حتى أوثّق حالتهم وأسّطر مشاعرهم. لا يمكن إنجاز شيء عظيم بدون حماس!.

لا شيء كثيرًا قد طرأ عليه التغيير خلال الأشهر الماضية سوى أني أصبحت أكثر حرصًا على صحة الإنسانية، ودموعي بين مقلتيَّ دفّاقة خفّاقة متأهّبة ترفرف فوق أهدابي، لذلك ألغيت من قائمة

قراءاتي اليومية الكثير من الكتّاب والمطبوعات المنغّصة ونقلت جهاز التلفزيون إلى غرفة المكتب حتى أتفرج فقط على الإعادة الصباحية لبعض البرامج ، لكنّ اللّيل الذي طال كثيرًا سيكون بلا شاشات أما النهار فسيبدأ الآن.

مواسم الرحيل استوطنتها الفوضى المفجعة، والنوارس تهجر المرافئ، والأراضي المزروعة بالجثث تئنُّ ولم يَحِن الحصاد.

الرياح تهب من سوريا تغني أنشودة الموت. قوات الأسد تمطر حمص بالصواريخ والقتلى بالعشرات. أخيرًا وصلتني رسالة إلكترونية من صحفية المعارك ماري كولفن ردًا على رسالتي الإليكترونية لها قبل أكثر من ثلاثة أسابيع. الرسالة مبعوثة من حساب إلكتروني غريب غير حسابها المسجل لديَّ. طمأنتني أنها بخير وأكدت إنها موجودة في سوريا وتستعد للذهاب إلى حمص .

يالها من مجنونة...كيف وصلت إلى هناك وقد رفضت دمشق منحها تأشيرة الدخول! إنها من أشجع الصحفيين على مستوى العالم . إلتقيتها في ليبيا ، ثم تركتنا عندما قررت الذهاب إلى مصراتة وقرأت لها بعد ذلك الكثير من القصص التي كتبتها في صحيفة صنداي تايمز البريطانية عن جرائم القذافي في مصراتة، كانت من القلائل الذين اخترقوا حصار مصراتة ومن أول الصحفيين الذين غطوا مقتل اللّواء عبد الفتاح يونس.

عرفت منها حكاية عينها اليسرى التي تغطيها بستارة سوداء. حكت لي كيف فقدت عينها في حرب سريلانكا... دمار الحروب وقسوة الذكريات لم تطفئ شهوة الحكي لديها، فهي بارعة في سرد قصص الحرب في الشيشان وتيمُور وكوسوفا والبوسنة والهرسك وأفغانستان والعراق ، وصولاً إلى ثورات الربيع العربي في مصر وليبيا.

الثلاثون عامًا التي قضتها في تغطية الأحداث زادت سنواتها الخمسين تألقًا ونضارة ويقينًا. سألت ماري كيف لا تخاف وهي تقتحم المناطق الخطرة وكيف يتعامل أطفالها ووالدتها مع مغامراتها ، فأجابت:

- أحيانًا لابد أن نكون مستعدين للموت في سبيل إيصال صوت الحقيقة ومعاناة البشرية، وعندما يقمع الإنسان أخاه الإنسان ويرهبه فلابد أن يجدنا على الأقل هذا المقهورلإيصال صوته لكل من له إنسانية ورحمة.

أخرجت الملابس الشتوية الثقيلة استعدادًا للسفر فالطقس في سوريا صقيع زمهرير،يحتاج المعطف المغلف بالفرو في البطانة والبلوفرات الصوفية ، والحذاء البوت الطويل والجوارب السميكة التي تحجز البرودة...لابد من أخذ كل الاحتياطات فلن

يسعفنا النظام والطبيعة على حد السّواء في البحث عما ينقصني. لم أنسَ حقيبة اليد البُنية التي يتفاعل بها الأصدقاء![1].

الهوامش

(١) «ببالغ الحزن والأسى العميق علمنا بمقتل اثنين من الصحفيين الغربيين الذين لقيا مصرعهما في حمص اليوم الأربعاء ٢٢ فبراير، ٢٠١٢ بعد قصف قوات الأسد مركزًا إعلاميًا متنقلاً أقامه المعارضون في حمص. لقد غادرتنا الصحفية الأمريكية الأصل ماري كولفين والمصور الصحفي الفرنسي ريمي أوشليك. كانا يمثلان لنا الكثير حتى وقت قريب جدا. نطل من خلالهما عما يحدث في سوريا بآلة الحرب النظامية التي قتلت حتى الآن أكثر من سبعة آلاف مواطن سوري. أفكارنا ومشاعرنا مع عائلاتهم وأصدقائهم!».

هكذا أعلن مذيع قناة السي إن إن الخبر الذي قال إنه جاء بعد ساعات من إدلائها بحديث للقناة وصفت فيه مذابح الجيش النظامي السوري بالشنيعة. آخر رسالة نشرتها كولفين على فيس بوك عبر صفحتها، قالت فيها: «إن الحديث عن إمكانية نجاتي من هنا قد يكون أمرًا مبالغًا فيه، فالوضع في بابا عمرو مقزز.إنني لا أفهم لماذا يقف المجتمع الدولي هكذا.. أشعر الآن بأنني بلا مساعدة، إلا أني سأحاول بأية وسيلة جلب المعلومات».



قلوبكم معي

إلى أسرتي الصغيرة .. والكبيرة ، إلى كل أصدقائي وزملائي، شكرًا لكم جميعا ..شكرًا على دعمكم.

لقد بعثتم فيَّ إرادة الحياة والإصرار على الكفاح والمقاومة لعدو داخلي شرس، وساندتم عثرتي في أشد الأوقات تدحرجي . وعندما لم أكن أرى أملا كنتم أنتم الأمل، وعندما تبتلع الأوجاع كلماتي كانت كلماتكم البلسم الذي يخففها ويصالحني على الدنيا التي أعرضت عني.

عفوًا أيها الأصدقاء... أن أتخير من دفاتري بعض رسائلكم الشخصية وأنشرها... فعذري أن الهدف نبيل وهو إعلاء القيم الإنسانية وإبراز إلى أي مدى يمكن أن يكون التضامن غرفة إنعاش لحياتنا... قد ننسى من شاركنا الضحك...لكن لا يمكن أن ننسى من شاركنا الألم واختلطت دموعنا معهم.

.. لو سمحتم في حضوري كما في غيابي لا تستخدموا دفتر العزاء فإني سآخذه معي، استخدموا فقط دفتر التضامن لأنه سيواصل الحياة!

حبيبتي ألفة

أدرك تمامًا وقع المفاجأة والصدمة ولكني أيضًا أدرك وعن تجربة وإن لم تكن شخصية ولكن قريبة مني أن التحدي رغم خطورته البادية لكنه ليس سوى رحمة في النهاية. فقد أصيبت والدة زوجي منذ أكثر من خمسة عشر عامًا بهذا المرض...كنا زوجي وأنا الأقرب إليها ، بحكم أننا نعيش معها. لقد هزمت المرض ياألفة ولم يكن التحدي سوى بداية لإبداع وإنجاز بل واستمتاع غير محدود بالحياة الملونة!.

لقد كانت سيدة رائعة لا يمضي يوم إلا وهي تنجز عملاً بدأته أو تتعلم شيئًا جديدًا. لم يشغل المرض عقلها طويلاً اللهَمَ إلا في البداية حين كان هناك تكثيف للعلاج. ولكنها بعد قسوة الصدمة الأولى تمكنت من استعادة رغبتها بل ونهمها لكي تحيا حياة مليئة بالنشاط والحيوية الكاملة. سافرت وقابلت أصدقاء جددًا وصنعت أعمالاً فنية مختلفة حيث تفتَقت لديها مواهب فنية كانت مدفونة وأخذت تُهدي أحفادها تلك القطع الفنية من صنع يديها . وهكذا وإلى الآن أحتفظ بمصحف سجلت فيه عدد المرات التي أنهت فيها تلاوة القرآن بمعدل مرة شهريًا ثم مرة كل ١٥ يومًا بإصرار رهيب وأحتفظ به وأُظهره من حين لآخر للأبناء ،فقط لأدلّل لهم أن الإنسان إذا أراد فإنه يستطيع الكثير ولن يوقفه شيء.

عزيزتي ألفة ،،

أعلم جيدًا أن التجربة ليست هيِّنة ولكني أعلم أيضًا أنك محاطة بقدر كبير من المحبة العميقة والصادقة من الجميع ، وأولهم زوج متيم بك، رأيت عينيه وهما تلمعان بمزيج من الإعجاب والفخر والحب في كل مرة تقع فيها عيناه عليك ، كما حباك الله بأبناء هم أقرب إلى الرفاق والأصدقاء،ومجموعات أخرى رائعة من البشر يحيطونك بالمحبة والتقدير وهم أصدقاؤك وتلاميذك.

أدعو الله أن تمر تلك الأيام وأن تكتشفي مع الوقت أن الزلزال هو مجرد تأرجح بسيط لسيارة تستقلينها في الطريق. أما الطريق فهو يحمل لك الكثير من الأحداث والخبرات ويظل صاعدا إلى كل المحطات المشرقة.

فى انتظارك في أقرب زاوية. وآمل أن أسمع منك وعنك قريبًا جدًا كل الخير.

محبتي ،،

ألفة طنطاوي



إلى العزيزة جدًا جدًا.. ألفة

أنا سـعيد جدًا بردك عليَّ أخيرًا وحمدلله على سـلامتك وبالتأكيد أنـا أحلـم أن ألتقيـك قريبًـا وأنت في كامـل نشـاطك وحيويتك كما تعودنا منك .

شـكرًا يـا أحسـن إنسـانة عرفتهـا وأنا إن شـاء الله سـأعود يوم الخميس ليلاً وأنا أتمنى في أقرب وقت تسمح ظروفك أن ألتقي بك وأنت في حال أفضل.

ألفـة أنـا مكنتش عارف إنـك غالية جـدًا ومهمة قـوي عندي. مذ علمت بما أصابك وأنت ملازمة لي ، دعواتي لا تنقطع لك باستمرار أن تقومي وتعودي إلى سـالف نشـاطك. لقد كنت أحسـن إنسانة، أعطيتِني الأمل وشـجعتِني في حاجات كثيرة، وكنت الشمعة التي أضاءت لي طرقًا ودروبًا في حياتي وقت الشدة..ربما لم تنتبهي إلى هـذا الدور الذي لعبتيـه.. فاكرة لما حفزتيني على تغيير الشـقة ، فاكرة لما كنتِ تصبريني... وأصبحت أجري عشانها وأردد كلامك «بكره رزقها ييجي».

والله ما أصابك أصابني، حيث أتأمل ما حدث فأقول لنفسي أكيد لحكمـة لا نعرفها وأنـا تقريبًا أفكـر فيك كل الوقت. وسأتصـل بك بمجرد وصـولي مصـر. أشـوفك إن شـاء الله قريبًا جدًا بابتسامتك التي تزين وجهك وتفاؤلك الذي ينساب كنهر دون أن يوقفه شيء.

ربنا يحفظك ويشفيكي ويعزك ، ويخليكي لأسرتك ولكل أصدقائك وزملائك لأنك قيمة كبيرة في حياتنا.

مع خالص التحية،

عصام ندا



إزيك يا أستاذة ألفة ..

بجد وحشتينى أووووووووووووووي،

نفسي أشوف حضرتك وأطمّن عليكى يارب تكوني في أفضل حال ونشوفك قريبا جدا فكل الزملاء منتظرينك بفارغ الصبر...

أستاذتي العزيزة، الجورنال ملهوش حس بدونك والعمل بدون طعم من غيرك، لدرجة أصبحنا جميعا نذهب إلى الجريدة مضطرين وننصرف بسرعة... نحاول أن نتفادى تلاقي العيون حتى لا تنفجر الأسئلة المربكة.

بالنسبة للموضوع الذي كلفتيني به سأنفذه إن شاء الله ... أنا لسة شايفة الرسالة التي بعثتيها حالاً. وأطمئنك بألا تقلقي على العمل ، فسوف نكون جميعًا عند المسؤولية التي ربيتنا عليها...موش حنخذلك أبدًا وكفاية إن حضرتك

بتفكري في الجورنال والعمل وأنت في عز ما أنت تعبانة.
أنا مكنتش بدخل على الفيس بوك خالص، لو كنت عارفة أني هلاقي رسالة حضرتك كنت أكيد دخلته من زمان،عشان كده تأخرت عن قراءة رسالتك وذلك لأنى أشعر بعزوف عن الحياة.

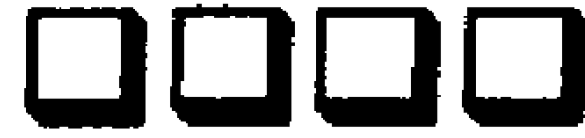
ومثلما فهمت من رسالتك فالتكليف يتضمن إعداد ملف عن «١٠٠ يوم بعد تولي حكومة شرف.. في الميزان . ماذا تحقق وما المطلوب تحقيقه على المستوى المالي وفيما يخص الموازنة وأهم المشروعات ذات الأولوية مع الأخذ بعين الإعتبار المطالب المُلحَّة للثوار في ميدان التحرير، مثل رفع الحد الأدنى للدخل وما يستلزمه من موازنة ووضع حد أقصى للأجر ..

حاضر يا أستاذة، سوف أركز على رأي الأحزاب والقوى السياسية المختلفة مثل حزب الوفد والكرامة والحرية والعدالة والمصريين وائتلافات الثورة وجزء خاص مع الخبراء وأساتذة الاقتصاد وأقترح أن يكون السؤال الذي سأطرحه كالتالي: بعد مرور أكثر من مائة يوم على تولي حكومة د. عصام شرف، أصبح هناك أكثر من رأي في حكومته فالبعض يرى أنها جاءت دون مستوى التوقعات، والبعض الآخر يرى أن الظروف وما صاحبها من اضطرابات زادت من صعوبة مهمة حكومة شرف....

وحضرتك ما تقلقيش، أنا على طول مواظبة على عمل شغل

العقارات وموضوعات أخرى وقمت بتغطية أحداث ماسبيرو وعملت حوارًا مع وزير الري.. يعني لازم نكون على قدر المسئولية ونبيض وش حضرتك. إحنا بنحبك أوي والجورنال مظلم من غيرك بنكره ندخله لكن موش حنتأخر على الشغل . أرجو من الله أن ترجعي لنا بألف سلامة.

دينا حسين



أستاذتي العزيزة ،

أنا بحبك أوي أوي ماليش قدوة غيرك ربنا يشفيكي ، وموش عارف أعمل إيه من غيرك... شدي حيلك عشان خاطري أنا ماشي في حياتي بالعافية من غيرك، ماليش قيمة من غيرك يا أمي، وياصديقتي، ويا أستاذتي ، وحشتنيني أوي يا أغلى وأطيب الناس، وحشتيني يا ضحكة أيامي، أرجوكي خدي بالك من نفسك..إنت اللي رجعتيني أحب الدنيا ..فاكرة وقوفك جنبي ..!!

ابنك وتلميذك ..

أحمد الباز

أستاذتي وأمي وأختي وصديقتي :

أنا بحبك جدًا وهفضل جنبك وربنا يشفيكي وأرجو أن تسمحي لي بزيارتك وأوعدك سأكون متماسكًا ولن أبكي...عايز أكون بجوارك فقد دعانا ديننا الحنيف إلى زيارة المرضى ورغَّب فيها. وقد جاء في صحيح السُّنَّة عن البُراء بن عازب رضي الله عنهما قال: «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعيادة المريض واتباع الجنازة وتشميت العاطس وإبرار المقسم ونصر المظلوم وإجابة الداعي وإفشاء السلام» متفق عليه. كما جاء في الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : إن الله عز وجل يقول: «يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟.....» رواه مسلم.

وجاء في ثواب زيارة المريض ما روي عن علي رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول: «ما من مسلم يعود مسلمًا غدوة إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حين يمسي وإن عاده عشية إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح وكان له خريف في الجنة» رواه الترمذي..

والخريف هو «الثمر» مرضت يا إبن آدم فلم تعودني يقول العبد: وكيف أعودك وأنت رب العالمين؟» والأدعية كثيرة منها أن يقول الراقي سبع مرات: بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك ومن شر كل نفس أو عين حاسد والله يشفيك سبع مرات أو يضع المريض يده علي المكان الذي يتألم منه ويقول: بسم الله أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر ويقول: بسم الله ثلاث مرات ويقول الراقي أيضًا أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك ويعافيك. فمن فعل ذلك عافاه الله من المرض وهذا لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب من الذهاب للطبيب وأخذ الدواء فما جعل الله من داء إلا وجعل له الدواء والله أعلم.

فرجاء يا أستاذة أن تمكنيني من نيل هذا الثواب.

أحمد الباز



عزيزي أحمد ..أرجو أن تكون بخير ..

الحياة لا تعطي الإنسان كل شيء ولكن من المهم تحويل كل المواقف والاختبارات والمحن إلى قصص نستفيد منها جميعًا...

العمليـة الجراحية يوم الخميس في مستشـفى كليوباترا ومكنتش محتـاج تبحـث عـن كل الآيـات والأحاديـث التـي بعثتهـا لي حتى تقنعني بالمجيء إلى زيارتي.

لو جئت لزيارتي السـاعة السادسـة مساء سـأكون قد أفقت من التخديـر إنشـاء الله...وربمـا تكون أنـت أول واحد أحـب أن أرى وجهـه السـمح أنـت مثـل عيـالي طبعًـا... وأقـترح عليك بـدلاً من الحضـور معي إلى المستشـفى مبكرًا وانتظار العملية ، سلِّ نفسك واذهب إلى الجورنال واعمل شـغلك الرائع وبعدين تعال شـوفني ولو جبت معاك الدكتور تميم وصلاح أو أي شخص أنت تحبه من الشـباب الرائعين سأكون سـعيدة بكم وأنا أحبكم أنت وأصحابك جميعًـا ولازم تعرف أني محتاجة لكـم أكثر بكثير مما تحتاجوني... وأغتنم هذه الفرصة لأوصيك بأن تكون «راجل» دائمًا مثلما عهدتك وجدع زي ما عودتنا وربنا يحفظك من كل سوء.

وأراك على خير،

ألفة

– ملاحظة :كل المواعيد التي أعطيتها لأصـحابي مضـروبة ومع ذلك حضروا كلهم العملية!

أستاذتي العزيزة ،

أرجوك اقرئي سورة ياسين وصلِّي ركعتين في اللَيل ، بينما أنا ووالدتي سنصلي اثنتي عشرة ركعة بعد منتصف الليل عشان ندعي لك. ربنا معاك يا أستاذة.

أما بالنسبة لي فما تقلقيش أنا هرفع رأسك كما عودتك . أنا بحبك أوي وأرجو السماح لي بزيارتكِ لأسلمَ عليك وأشوفك بس موش أكثر، نفسي أجلس قليلاً إلى جانبك ، أؤكد لك فيما يخص العمل فأنا لست مقصرًا في شغلي، صدقيني ، وممكن تسألي الأستاذ هشام المنياوي حيقولك رغم مرضي مؤخرًا بشتغل وعمري ماقصرت في الشغل .

لكن الشغل مع حضرتك له طعم تاني ، مقدرش أمنع نفسي من إني أفتقدك. وحتى الأستاذ هشام مفتقدك وبشعر أنه ذبلان من غيرك. خدي بالك من نفسك...أنا ماقابلتش ناس محترمين زيك.

أنا بحبك أوي ياصديقتي وأمي ربنا يشفيكي.

ابنك وتلميذك أحمد الباز



أستاذتي العزيزة أكتب لحضرتك وأنا مخنوق ، ربنا يرجعك بالسلامة... موش عارف حتوصلك الكلمات إمتى.. لكني أفتقد وجودك ..

من حِكَم والدي التي كان يقولها لي إذا سألته كيف نرضي الناس كان يقول:

يابني
بسمت فقالوا يرائي بها
عبست فقالوا بدا ما كتم ..
صمت فقالوا قليل اللِسان
نطقتُ فقالوا كثير الكلم ..
حلمتُ فقالوا صنيع الجبان
ولو كان مقتدرًا لانتقم ...
بسلت فقالوا لطيشٍ به
وما كان مجترئًا لو حكم ..
يقولون شذ إذا قلت لا
وإمعة حين وافقتهم ...
فأيقنت أني مهما أُريد
رضا الناس لابد أن أذم!

أحمد الباز

Dear Olfa،

I was thinking of you wallahy yesterday..wanted to call you... how are you now ? are you back ? want to see you soon... wahshani awi

Wish you will be between us soon with perfect health. I will pray for you habibti

Nadia Abou Almagd



أختي التي لم تنجبها أمي

أعلم أنك أقوى من أي معضلة أو مرض

أعلم أنك سوف تقهري المرض مهما كان بأسه بقوة إرادتك

أعلم أن العمر سيطول بك لتري حفيدتك وربما الجيل الثالث

أعلم علم اليقين أن الله أودع فينا إرادة تقهر الجبال

أعلم أنني سوف أراك مجددًا وأنت مفعمة بالحيوية والحياة

أعلم أنك قوية.. قوية وقوية

رجاء ألا تحبطي توقعاتي ، فالمرض لن ينال منك إذا لم

تستسلمي له فكوني قوية ورددي مع نفسك : «إنني أقوي من أي مرض».

. أحبي الحياة فمن الحب نحصل على الأمل في الحياة.

أخوك ،

مجدي عبيد



ألفة الجميلة ،

حبيت اقولك إني فرحت جدًا اني شفتك بعد طول غياب خلال زيارتي الأخيرة، والصدفة الجميلة أن نلتقي في ميدان التحرير لتجمعنا الثورة على غير موعد. وقد إيه انبسطت إني شفت بنتك الرائعة سمورة وشفت طارق اللي ماتغيرش خالص!!!

راجعة مصر تاني قريبًا وأتمنى تكون فيه فرصة نتقابل تاني. خليكي على اتصال إلى أن نتقابل.

قبلاتي،

منال قابيل



حبيبتي منال إزيك ..

أنا فرحانة إني قرأت «ستوري» رائعة جدًا لك في جريدة الشروق وكان إسمك منور فيها...أنا كويسة وكله ماشي. طبعًا مثلما حكيت لك لما زرتيني بعد العملية ، تعبت جدًا بعد جلسة الكيمو ولما بدأت أتحسن لقيت نفسي بستعد للدوز التاني.

أبوسك وأشوفك على خير وشدي حيلك في موضوع الكتابة وأعتقد إنك من الممكن أن تعملي مراسلة تلفزيونية في هذه الفترة وياريت تتواصلي مع قنوات خاصة زي الأون تي في ،أو دريم.. راسليهم من أسبانيا واعملي متابعة لقضية حسين سالم خاصة أن القضية موش حتخلص على طول وتحتاج متابعة. محتاجين تألقك وإبداعك زي زمان...فاكرة يا مَنُّولَة...

شدي حيلك وعايزة أقرأ إسمك على طول ومتغيبيش عنا،

ألفة



Alf shokr ya olfa. Ya3ni fi west elli enti fih da kollo w fakrani!!

Merci ya gamila bass shakl el mawdou3 mesh

7ayekmal with this case ,kheirha fi 3'irha . kwayess ennek tamentini، wanted to tell you that i'm thinking of you a lot and trying to send positive energy towards you، but was a little busy with my husband who was operated from el mosran، 7aga basita، but of course el qalaq wel naqaha and then Gamal had school yet and i'm alone ...

Qobolati

Manal

(sorry i have a problem with my arabic keyboard)

Chere soeur،

Alf salama 3la ton mari. ma3lish it doesnt work with many people these days but try to be optimistic. This is always your message for me. See you soon isa

Olfa



ألفة العزيزة،

بفتكرك كتير وعلى بالي وعايزة أعرف أخبارك وأطمئن عليكي. أخبار العلاج إيه ومعنوياتك وأسرتك الجميلة.. ياريت تكتبي لي.

أنا إنقطعت تمامًا عن التواصل مع العالم المحيط من فترة ، كنت أرتب نفسي للانتقال إلى مصر بداية العام الدراسي ويومين قبل السفرعرفنا أن زوجي يحتاج لعملية ، وبعدين عرفنا أن الأفضل البدء بالعلاج .....!!!

فاكرة الصدمة اللي كلمتيني عليها وقت عمليتك؟ مررنا بشيء مشابه حدث لي ومازال ... حبيت بس أبلغك إنك في فكري وإنه لا يمنعني عن السؤال عليكي إلا الشديد القوي.

مع حبي،

منال قابيل



Chere Manal،

Je ne sais quoi dire. J'ai perdu les paroles. Dieu avec vous، et beaucoup de courage. Je t'embrasse ma petite soeur.

Olfa

العزيزة جدًا الأستاذة ألفة،

مبعرفش أتكلم كتير عباراتي مخنوقة وموش بتسعفني ، لو سمحت عودي بسرعة، العقل يفتقدك يا سيدتي.

محمد درويش



ألفة السلامي ..

زميلتنا واختنا العزيزة التونسية بنت البلد عاشقة مصر والمقيمة علي أرض مصر والتي شغلت منصب مدير تحرير العدد الأسبوعي لـ «العالم اليوم»، الأستاذة ألفة السلامي غابت عنا عدة أسابيع بسبب المرض، واحتجب مع غيابها عمودها الأسبوعي الذي كان نبضاً من نبضات الشارع المصري وتفاعلاته.

العزيزة ألفة.. شافاك الله ورعاك وإن شاء الله عودا حميما قريبا في أتم الصحة والعافية

سيد البابلي

رئيس تحرير الجمهورية

والكاتب في عدد من الصحف المصرية والعربية



لن يستطيع الهزار معك!

(2011-06-06)

بقلم الكاتب الكبير الأستاذ مفيد فوزي

"شعلة متوهجة من الحركة والفكر والمهنية"، هكذا في عبارة واحدة من كلمات ست، يمكن أن أصف الأستاذة ألفة السلامي. ولعلي رأيتها وجهاً لوجه مرات قليلة وكنا نتواصل بالتليفون كثيراً.. ومرة كتبت عن المهنية في أدائي في عمودها الأخاذ وكم سعدت بكلماتها لأنها نابعة من قلبها وربما كتبت سطوره القليلة المهمة بحبر القلب. فـ.. ألفة السلامي التي أعرفها، صدقها مع نفسها، ومع الآخرين أهم ملمح في شخصيتها.. وهي كاتبة "تبوح" بما تحس وتعتقد و"الاستراحة" التي تطل علينا منها ـ كل يوم اثنين ـ موعد صدور العدد الأسبوعي من العالم اليوم، هي "نشرة أحوال ألفة" الذهنية فهي تري وتكتب، وتدفقها علي الورق يحمل كلماتها علي جناح المصداقية. أما عن عشقها المهني، فلم أصادف هذه النوعية إلا قليلاً يوم أن كانت الصحافة حباً وعشقاً وتفانياً.. أحيانا كنت اتصل بها لأهنئها علي سخونة الصفحة الأولي للعدد الأسبوعي وكنت اختار وصف أحمد بهاء الدين "مشطشطة" أي ملتهبة وطازة.. عندما تسمع مني ألفة هذه الكلمات أكاد أشعر أن

حمـرة الخجل كسـت وجنتيها. والحق أقول إن "ألفة" في اسـمها، الكثير مما يشي به الانطباع الذي تتركه في نفسك إذا تعاملت معها، ألفة تشـعر بألفة مـع "ألفة".. حين كانت تعـد برنامجا تليفزيونيا للأسـتاذة لميس الحديدي.. كانت كالنمر وهي تنقض علي ضيوفها ولديها ملكة الإقناع والإبحار بالمعلومات في الشخصـيات.. وحدث أن كان أحد ضيوف لميس المستشار مرتضي منصور الذي عاتبني علي الهواء لعدم السؤال عنه من باب العشم والصداقة، فأسرعت ألفة السـلامي بالاتصـال بي وكنت خارج البيـت ولا أتابع الحلقة فأخذت تنقل لي حرفيا ما يقوله مرتضي منصور وكأنها تذيع نشرة إعلانية أو ترجمة فورية ثم نطقت لميس الحديدي باحتراف اسمي للمداخلـة.. وتكلمت وكأني كنت في الاسـتديو وفندت كل كلمة قالها المستشار عني بفضل سرعة مهنية ألفة أحد القلائل الجادين في دنيا الإعداد التليفزيوني. مناسـبة الكلام عن الأسـتاذة ألفة السـلامي، مقـال لها عـن المرض "اللي مابيهزرش".. كتبت بشـجاعة منقطعة النظير عن تجربة خاصة تعيشها الآن أو تحاول ألفة أن تحاصره بقوة إيمانهـا والتحدي الكامن لحب الحيـاة.. فهي الأم والزوجة والابنة والأخت وهي الصحفية عاشقة الحرف والصديقة النادرة والإنسـانة الدمثة. وكل محبي ألفة يقفون معها متضامنين متآلفين متآزريـن ضـد "اللي مابيهزرش" وبهتاف صـامت وصـلاة خافتة

يقولون له "أرحل من جسـد ألفة".. إني أعرف حالات انتصـار علي "اللي مابيهزرش".. منهم د. أسـامة البـاز ومنهم قريبتي عايدة سـيد ومنهم تلميذتي آية عباس ومنهم جارتي في الإسكندرية ليلي عبدالـدايم ومنهـم زميل مقاعد الدراسـة عاصـم مرتجـي.. هؤلاء كانـوا في المرحلـة الأولي واكتشـفوا خبثه وقاوموه بضـراوه بعد العلاج الكيماوي الذي أثمر.. ويا ألفة، يا شـجاعة، يا مؤمنة بالله، ستكتشفين أن هذا المرض لن يستطيع "الهزار" مع صلابتك.



الفهرس



ثورة جسد

ألفة السلامي



كاتبة صحفية وإعلامية جمعتُ بين تجربة الصحافة المكتوبة والصحافة التلفزيونية، أغنتني تجربة الترحال بين الأوطان. رصيدي حديقة تنمو فيها زهرتان فواحتان (سمر ومحمد) وتحلق فيها الطيور المغرّدة، أبناء وأصدقاء وزملاء يشجون حياتي بأغنياتهم الرائعة ، أثروني بمشاعر وخبرات أعتز بها أكثر مما أعتز بشهادات من مدارس وجامعات أو أرصدة في بنوك . هذه هي الحديقة التي عانقت بها الإنسانية الرحبة وصارعت بفضلها الوجع والهزيمة .

هبّت عليَّ عواصف منذ عدة أشهر تحاول اقتلاعي من حديقتي تهدم أسوارها وتقطع وريقاتها وتكسر أغصانها، جاءت مع رياح الربيع المنتفضة على امتداد الأوطان. إنه السرطان اللعين. قاومت ومازلت أقاوم على أهزم العاصفة فتحط الرياح بلقاحها وتستقر على ورق الشجر فتزهره وتثمره مع إشراقة شمس الربيع الحانية.

أحكي قصة الوطن والجسد في ثورتيهما ، فتشت عن ابتسامة سقطت بين تعرجات الصخور ومغامرة في الطفولة النضرة والشباب الفائر لأحتمي بها من دماء تسيل في ميادين الأوطان وأوجاع تفترس العقل والروح .

كلمة أخيرة : مصر، بحبّك يابنت الإيه ..تونس ،نموت عليك ياتحفونة ..أوطان العرب أنت لعنتي ..وقدري!



هلا للنشر والتوزيع
www.halapublishing.net
hala@halapublishing.net
للتسوق عبر الإنترنت WWW.halapublishing.com
9 789773 564629